الشرق الأوسط الديمقراطي

مجلة فصلية فكرية تحليلية تعنى بشؤون الشرق الأوسط

العدد ٦٤آذار/ مارس ٢٠٢٤م

إدارة المجلة

مجلس الإدارة

الاشراف العام

زياد محمد

رئيس التحرير

صلاح الدين مسلم

هيئة التحرير

روشن مسلم
عواس علي
أحمد دالي
مصطفى شيخ مسلم
اسماعيل خالد محمد

الهيئة الاستشارية

السيد عبدالفتاح السيد
حسن ظاظا
جاسم الهويدي
ياسر شوحان
هزار شكر

الإخراج الفني

كُليستان كوسا

الآراء المنشورة تعبر عن رأي أصحابها وليس بالضرورة أن تعبر عن رأي المجلة

وسائل التواصل

يمكنكم متابعتنا والإدلاء بآرائكم ومقترحاتكم وإرسال مساهماتكم عبر وسائل التواصل التالية:

http://www.alawset.info

serqalawset@gmail.com

@AlawsetMagazine

@KovaraAlewset

@/alawsetmagazine

رقم الاعتماد
لدى نقابة الصحفيين العراقيين
١٤٨
رقم الإيداع
دار الكتب والوثائق ببغداد
٨٦٨ لسنة ٢٠٠٥

لدى وزارة الثقافة المصرية
دار الكتب والوثائق في القاهرة
رقم ٢٤٢١٧

مكتب القاهرة: 18 شارع ضريح سعد - القاهرة
ت: 27901104 / 01554349602

محتويات العدد

العدد: 64 ـ آذار ـ 2024

كلـــمة العـــدد	رئيس التحرير	٣
في أغوار المجتمع		
أبعاد الحرية الفكرية في ظل التأثير الإعلامي، وتعزيز التفكير المستقل	شيراز محمد	٤ - ١٦
دور الشباب في التغيير السياسي والاجتماعي	أحمد زردشت	١٧ - ٢٥
الفنون والثقافة أدوات لمحاكاة الواقع ومفاتيح للغور إلى أعماق المجتمعات	احمد دالي	٢٦ - ٣٧
دور العشيرة في الحفاظ على الإرث الاجتماعي	وليد بكر	٣٨ - ٤٥
في أغوار الدولة والحداثة الرأسمالية		
العلاقات الدولية وانهيار القيم الإنسانية والأخلاقية	مصطفى شيخ مسلم	٤٦ - ٥٦
التحولات الدولية الكبرى وسياسات الدول المفترسة في العالم والشرق الأوسط	جيهان مصطفى	٥٧ - ٦٨
الماسلوية، إعادة تشكيل هرم الاحتياجات وفق فلسفة الحداثة الغربية	إسماعيل خالد	٦٩ - ٨٣
في أغوار الحداثة		
التكنولوجيا والتطور الصناعي	رعد الحمادة	٨٤ - ٩٦
دور الإعلام الرقمي في تشكيل مفهوم الديمقراطيّة والمشاركة المجتمعيّة	ممدوح الحسن	٧٩ - ١٠٩
التَّبعِيَّة الثَّقافيَّة.. مظاهِرُها، حواضِنُها وسُبُلُ التَحرُّر منها	جميل رشيد	١١٠ - ١٢٩
مواضيع منوعة		
الهجرات السكانية إلى «الرقة» بعد الغزو المغولي	محمد عبد الله العزو	١٣٠ - ١٣٢
الجانب الخفي للازمة السورية ومصير أنظمة المنطقة	لقمان أحمي	١٣٣ - ١٣٦

كلمة العدد ١٤

رئيس التحرير

اعتبر فريدريك نيتشه الحداثة الرأسماليّة خطراً سيدمّر المجتمع. فلم يلقَ صوته آذاناً صاغية لدى المندفعين إلى الحركة التنويريّة التي مهّدت للحداثة الرأسماليّة. لتتغوّل وتصبح السبب الرئيس لأكبر جرائم التاريخ من حيث الحروب وتدمير البيئة والمشاكل السكّانيّة والمجتمعيّة التي وصلت إلى أسوأ حالاتها في هذا القرن الذي نعيشه. لكن تلك الأصوات وإن تعالت ما قبل عقود بسيطة من خلال رواد ما بعد الحداثة وغيرهم من المتطلعين إلى الحرية، لم تلق آذاناً صاغية أيضاً، بل شوّهت وما زالت تشوّه من خلال الترسانة الإعلاميّة. فأولئك الحداثيون الرأسماليون باتوا يمتلكون الإعلام القادر على برمجة عقول الأفراد. وباتت الحداثة الرأسماليّة النظام المهيمن الذي يريد أن يغزو المعمورة برمّتها. لكنّه اصطدم بصخرة الشرق الأوسط التي لم تستسغ هذه العلمويّة البحتة. كما استساغتها الذهنيّة الغربيّة منقطعة النسل عن الدين شرقيّ المنبت. التي تخلّت نسبياً عن الدين المسيحيّ الشرقيّ.

من هنا نشأت نظرية المفكّر عبد الله أوجالان؛ الذي أكّد على أنّ الشرق الأوسط منبع الحضارات ومنبع الأفكار والإنسانيّة. فلذلك لم تهضم معدتها هذا المسخ الوليد (الدولة القوميّة)؛ أحد أركان الحداثة الرأسماليّة الثلاثة؛ (الدولة القوميّة. الصناعويّة. الربح الأعظميّ) وكانت نظرية أوجالان تستطيع أن تعيد إحياء الذاكرة الأخلاقيّة السياسيّة لدى المجتمع؛ من خلال عمليّة إعادة تنظيم المجتمع نفسه بنفسه. أي إعادة الروح الطبيعيّة للمجتمع لتستطيع تلك الروح إعادة الحياة إلى المجتمع. وإعادة الهويّة لذاك المجتمع المسلوب من بناه التي أطّرتها الدولة حسب هواها. وصارت تهندسه من خلال النخبة. إنّ التنظيم يختلف عن الهندسة. فالهندسة تأتي من الأعلى إلى الأدنى باتجاه عموديّ. لكنّ تنظيم المجتمع نفسه بنفسه يأتي أفقيّاً ويكون تلقائيّاً عفويّاً طبيعيّاً. وليست مخطّطاً تجريبيّاً مسبّقاً. وإنّما إعادة الحياة إلى هذا المجتمع من خلال مأسسة البنى المجتمعيّة التي تتناسب مع المعاني المهراقة في الذاكرة الجمعيّة.

لقد كان المفكّر عبد الله أوجلان أول من شرّح القضيّة المجتمعيّة العالقة في الشرق الأوسط. ودور الكرد في إعادة إحياء الحداثة الديمقراطيّة كبديل عن الحداثة الرأسماليّة من خلال التركيبة التي تتألّف منها الحداثة الديمقراطيّة في تحديد الثلاثيّة المناهضة لثلاثيّة الحداثة الرأسماليّة كم أسلفنا (الدولة القوميّة. الصناعويّة. الربح الأعظميّ) ومقابلها ثلاثيّة الحداثة الديمقراطيّة (الأمّة الديمقراطيّة. الأيكولوجيا. الاقتصاد المجتمعيّ) وهو الرائد في تحليل شعوب الشرق الأوسط والبحث عن صلات القربى بينهم. وتحديد أواصر القاسم المشترك بينهم. ألا وهي الحداثة الديمقراطيّة النموذج الأمثل لإنقاذ الشعوب من حروب الاقتتال التي تخدم الطبقة ولا تخدم المجتمع بل تدمّره.

لذلك ارتأينا في هذا العدد البحث في أغوار المجتمع والدولة والحداثة والحداثة الرأسمالية. وطرح التساؤلات الجوهرية: (ما هي أبعاد الحرية الفكرية في ظل التأثير الإعلامي؟ وما دور الشباب في التغيير السياسي والاجتماعي؟ ودور الفنون والثقافة والعشيرة؟ والتحولات الدولية الكبرى؟ وماهية الطبقات؟ والاحتياجات؟ ودور التكنولوجيا والتطور الصناعي؟ والإعلام الرقمي في تشكيل مفهوم الديمقراطيّة والمشاركة المجتمعيّة؟ والتَّبعِيَّة الثَّقافيَّة؟).

نشكر كلّ من ساهم في إصدار هذا العدد. في حُلّةٍ بحثيّة جديدة. نتمنى من خلالها أن نصل إلى الحقيقة المغيّبة في الشرق الأوسط. والوصول إلى الشرق الأوسط الديمقراطيّ.

استكشاف أبعاد الحرية الفكرية في ظل التأثير الإعلامي وكيف يمكن تعزيز التفكير المستقل

شيراز محمد

المقدمة

مشكلة البحث

أهداف البحث

أهمية البحث

مصطلحات البحث

الفصل الأول: الحرية الفكرية وحرية التعبير

1- مفهوم الحرية الفكرية وأهميتها

2- العلاقة بين الحرية الفكرية وحرية التعبير

3- حرية التعبير كحق أساسي للإنسان

4- قيود الحرية الفكرية وتحدياتها

الفصل الثاني: تعزيز العمل الإعلامي المستقل

١- أهمية الإعلام المستقل للمجتمع

٢- التحديات التي تواجه العمل الإعلامي المستقل

٣- الحماية القانونية للعاملين في المجال الإعلامي

٤- آليات دعم المؤسسات الإعلامية المستقلة

خلاصة البحث

المراجع والمصادر

المقدمة

يعتبر الإعلام أحد أهم العوامل الفاعلة والمؤثرة في هذا العصر للتواصل وإيصال الفكر إلى المجتمعات و الشعوب, و يلعب دوراً هاماً في صناعة العقل والوعي والتأثير على العقول وصناعة الأفكار, ولذلك ترتكز وسائل الإعلام على الاهتمام بالجوانب المؤثرة لثقافات الشعوب والمجتمعات وعاداتها للتمكن من التأثير المراد.

وأيضاً يعتبر الإعلام الوسيلة الرئيسية التي تقوم بالاتصال بين البشر من خلال أهداف محددة توضع عن طريق تخطيط متقن بغرض التعريف بما يجري, بواسطة الأخبار والأنباء لفهم ما يحيط بهم من ظواهر. ولإيجاد إعلام ناجح وموصولٍ بالعقول ومستقل وغير تابع لبروباغندات أو نظمٍ أو أجندات؛ فإنه يتطلب الموضوعية والمصداقية في تقديم المعلومات بحيث ترتبط بأطراف موثوقة من حيث إدراج المعلومات والأخبار, بيد أنَّ بعض وسائل الإعلام على اختلاف مشاربها تستغل هذه المبادئ بشكل ضار ومنهج وسلبي و حذر, حيث تتلاعب بالحقائق, وتوجه الرأي العام وفقاً لأجندات موجهة لسياسات خارجية تفي بأغراض سياسية واجتماعية وأخلاقية وأيديولوجية واقتصادية مدروسة من قبل تلك الجهات, بغية التحكم بتوجهات الشعوب وإسفاف عقولها, والسير بها نحو مدارك تتماشى مع مصالح تلك الجهات والأجندات.

مشكلة البحث

تتحدد مشكلة البحث في الأسئلة التالية:

١- ما أهمية الإعلام في المجتمع و ما هي تأثيراته عليه؟

٢- ما هي التحديات و الضغوط على الصحافة و الإعلام و كيف يمكن التغلب عليها؟.

٣- ما هي آثار الفكر المستقل على حرية التعبير؟

٤. ما هي أبرز قيود و تحديات الفكر الحر؟.

أهداف البحث

تظهر أهداف البحث تناسقًا مع الأهداف التالية:

١- إيضاح مفهوم الإعلام وشرح تأثيراته الإيجابية والسلبية على المجتمع.

٢- تحديد بعض المشاكل التي تواجه الإعلام والإعلاميين.

٣- تبيين القوانين التي تُسَن للحفاظ على حقوق الصحافيين وأمانهم وحريتهم.

٤- شرح التأثيرات الاطّرادية بين الإعلام والفكر المستقل والتعبير عن الراي.

٥- التعريف بوسائل تعزيز الإعلام وعمل المؤسسات الإعلامية.

أهمية البحث

تبرز أهمية البحث فيما يأتي:

باعتبار الإعلام يلعب دوراً أساسياً في المجتمعات ويؤثر في التفكير المجتمعي والفردي, وبالتالي يؤثر في مصير الشعوب والأفراد عن طريق تكوين الرأي العام, ويشرح البحث للمجتمع الإعلام الجيد من الرديء بحيث يصبح بالإمكان التحكم بتشكيل النظرة السليمة حول الأحداث والمعلومات الواردة

من منصات الإعلام. ويعرّف بتأثير الإعلام على كافة الأصعدة في المجتمع الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية وغيرها.

مصطلحات البحث

أبرز هذه المصطلحات تم حصرها في:

الفجوة المعرفية: والمقصود بها هو وجود تباين بين الأفراد والجماعات في المعرفة نتيجة للتعرض لوسائل الثقافة والإعلام المختلفة الجماهيرية وأثر ذلك في زيادة أو خلق هذا التباين. وقد وضع فروض هذه النظرية (تيتشنور, وألين, ودونوهيو- عام ١٩٧٠) ويرون فيها أن انسياب المعلومات وتدفقها يزيد في النظام الاجتماعي والاقتصادي الأعلى والذي يميل أصحابه الى اكتساب المعلومات أكثر من الفئات ذات المستوى الاجتماعي والاقتصادي الأقل.

الحرية الفكرية: وتشمل حرية تلقّي الأفكار ونشرها دون قيود, وهي إحدى أهم عناصر هيكلة المجتمع الديمقراطي الحر. وهي تعطي الأفراد حق اعتناق الأفكار واستقبال المعلومات والبحث فيها. وتعتبر الحجر الأساس لحرية التعبير والصحافة والإعلام, و قد تطور مفهوم الحرية الفكرية نتيجة معارضة الرقابة على الكتب. ويعتبر التفكير من أهم الأنشطة التي يزاولها الفرد ولا يمكن الاستغناء عنه, و يتكون التفكير من عدة عمليات نفسية وكيميائية مميزة يتم في نتاجها التوصل إلى ما يعين الإنسان في اتخاذ قراراته وأهدافه.(١)

الإعلام المستقل: يشير مفهوم الإعلام المستقل إلى جميع أشكال الوسائط البعيدة عن نفوذ الدولة والحكومات, وهي الصورة المرافقة للفكر الحر والرأي المستقل. والإعلام بعمومه هو نقل المعلومات والأفكار إلى الآخرين وإبلاغ الأخبار والآراء, وتنطوي حرية الإعلام على عدد من الحريات منها حرية الصحافة. حرية البث الإذاعي

تتمثل أهمية الفكر في توسيع دائرة الوعي لدى الإنسان وتعميق إدراكه للموجودات التي تحيط به وتمكينه من رسم خطوط عمله وحياته بطرق اقتصادية منظمة ومدروسة ومخططة، وتكثيف التجارب والخبرات، وبالتالي تزيد من الخيارات في الحياة، وكل هذا يتأتى عن طريق الفكر والبحث والمتابعة، ومن حيث قاعدة المقارنة وفي حجم الإمكانات المتوفرة والدعم المقدم، نرى أن المنظومات الغربية تملك منظومات متكافئة على جميع الأصعدة.

والتلفزيوني والمتصل بشبكات المعلومات.(٢)

المؤسسة الإعلامية: هي مجموع الوسائط التي تحقق أهدافًا محددة يقوم بها أفراد يمتلكون أفكاراً معينة أو مجموعات ومنظومات لهم أهداف ومبادئ مشتركة يعملون في ضوء تلك المبادئ. ويطمحون لإيصال الفكر المشترك لأكبر فئة من المجتمع, ويقومون بدعم المؤسسات التي تخدم المجتمعات. وقد اكتسب الكثير من الناس قدراً لا بأس به من المعلومات العامة من خلال أجهزة الإعلام, ولا شك أن لنشر المعارف أثر طيب في رفع مستوى الوعي العام لدى الشعوب من خلال مؤسسات تعمل في الشأن الإعلامي ونقل الأخبار والصحافة.(٣)

الحماية القانونية: وتعني تلك الوسائل المتّبعة لتقييد القوة التي تُمارَس ضد حرية الأفراد أو

١ - أهمية التفكير، لمياء ياسين زغير، محاضرة، الجامعة المستنصرية، القاهرة ٢٠٢٠م

٢ - حرية الإعلام و القانون، د.ماجد راغب الحلو، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية، ٢٠١٢م، ص ١٥

٣ - حرية الإعلام و القانون، د.ماجد راغب الحلو، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية، ٢٠١٢م، ص٨

حجبها أو منعها أو تقويضها أو التأثير فيها أو تحريفها وتعديلها, ويضع وسائل مدروسة لتعزيز القوانين والحقوق التي تحافظ على تلك الحرية. ويقصد بها كذلك مجموعة القواعد الموضوعة بمقتضى معاهدات دولية مخصصة بالتحديد لحل المشاكل ذات الصفة الإنسانية الناجمة مباشرة عن المنازعات المسلحة الدولية.(٤)

الفصل الأول

الحرية الفكرية وحرية التعبير

أولاً- مفهوم الحرية الفكرية وأهميتها، و حرية التعبير عن الرأي

قبل الخوض في أهمية الحرية الفكرية يجدر بنا شرح مفهوم الحرية الفكرية ألاّ, وهي حرية الأفراد في تبنّي المبادئ والأولويات التي يراها ويقتنع بها ويرى أنها مناسبة. وكذلك حريتهم في التعبير عن تلك المبادئ و ممارستها ضمن إطار الحدود العامة.

وينعكس تأثير الحرية الفكرية على حرية الرأي والتعبير بشكل مباشر وغير مباشر على كافة المنابر سواء علمياً أو ثقافياً أو أيديولوجياً أو دينياً أو عقائدياً في الصحافة أو الكتب, إذ أن من المحال ألا تترافق كلّ من الحريتين الفكرية والتعبيرية؛ فحيثما حلت حرية الفكر وتفتقت عن الإبداع والتقديم, حلّت حرية التعبير.

و يتمثل دور حرية الفكر والتعبير في جميع خصائص المجتمع المعرفية والاقتصادية والاجتماعية, وأيضاً على الصعيد السياسي والإيديولوجي والفكري والثقافي. بحيث يصبح بمقدور الشعوب المطالبة بالإصلاحات اللازمة والإبقاء على ما تجده وافياً لعيش مناسب و كريم .

ويشمل مفهوم الحرية الفكرية العديد من المضامين بإمكاننا أن نذكر منها التالي:

- حرية التعليم: وهو حق الأفراد في تلقّي العلم بكل مراحله وتحصيل الشهادات والبحث والمتابعة واكتساب المهارات والخبرات بالتدريب, وتبادل المعارف والخبرات الأكاديمية والعملية في جميع ميادين العمل الإعلامي .

- حرية الصحافة والإعلام: وهو حق الصحفيين والإعلاميين في حق حرية نقل المعلومات ونشرها وتحصيلها وجمعها دون أية قيود أو معوقات أو ضغوط أو تأثيرات خارجية .

- حرية المبدأ والعقيدة: وهو حق الأفراد في اعتناق المذاهب والعقائد التي يؤمنون بها دون فرض حدود على اعتقاداتهم الدينية والمذهبية والروحية والوجدانية .

- حرية الأمن والشعور بالاطمئنان: وهو الحق الذي يتيح للفرد القدرة على التفكير والتعبير عن الذات بدون أي مؤثرات.

و تتمثل أهمية الفكر في توسيع دائرة الوعي لدى الإنسان وتعميق إدراكه للموجودات التي تحيط به وتمكينه من رسم خطوط عمله وحياته بطرق اقتصادية منظمة ومدروسة ومخططة, وتكثيف التجارب والخبرات, وبالتالي تزيد من الخيارات في الحياة, وكل هذا يتأتّى عن طريق الفكر والبحث والمتابعة. ومن ذلك نستجلي عدة مسوغات أخرى لأهمية الفكر, منها:

١- من حيث قاعدة المقارنة وفي حجم الإمكانات المتوفرة والدعم المقدم, نرى أن المنظومات الغربية تملك منظومات متكافئة على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها, ولها منظوراتها الخاصة على تلك الأصعدة, ولا يمكن في دول منطقتنا أن نشكل ندّاً له إلا في حال إعمال الفكر وإيضاح رؤيتنا من وجهة نظر شاملة وتقديم الحلول الجذرية لبعض المشاكل الكونية المجتمعية والاقتصادية. وكل ذلك لا يتم تحقيقه إلا من خلال الرؤية الواعية للأحداث

٤ - القواعد الأساسية للقانون الدولي الإنساني، من منشورات اللجنة الدولية للصليب الأحمر_يوليو ١٩٨٥، ص١٥

المؤثرة على مجتمعاتنا الشرقية .

٢- الدور الكبير للتفكير في النجاح الدراسي، مما يحسّن مستوى المهتمين والباحثين والطلبة وتطورهم, وتقوي ثقتهم بفكرهم الواعي وحكمهم باتجاهاتهم وميولهم فيما يخدم مجتمعاتهم .

٣- التفكير ومهاراته حاجة تفرضها التكنولوجيا الحديثة على الأشخاص للتمكن من مواجهة تحديات العصر وإيجاد معرفة جديدة ونظرة مستقبلية بعيدة المدى والاستمرار في ركب الحضارة والتغلب على الخوف والتخلف, والدخول على مؤسسات العلم والمعرفة من أوسع الأبواب وأشدها فاعلية.(٥)

ثانياً- العلاقة بين الحرية الفكرية وحرية التعبير

هناك علاقة كبيرة وطردية بين الحرية الفكرية وحرية التعبير, إنها علاقة عكسية متقابلة ومتوازية, فحيثما يوجد فكر نيّر ومستقل يستحيل الصمت والسكون, ويصبح الدافع قوياً للتعبير والانطلاق لنقل الأفكار والحديث بها واتخاذ سُبل التأثير بالمحيط والمجتمع كافة.

و تتمثل حرية التعبير على هيئة العمل بالأفكار وتطبيقها في التأثير بالمجتمع, فالفكر هو المرآة التي تعكس لنا وجودنا وهويتنا, وبه نستهدي إلى حوادث الحياة ومسيرها, ونستنبط كل ما يحيط بنا من ظواهر وخفايا, فإذا كان الفكر إيجابياً وسليماً كان تأثيره جلياً وواضحاً على سلوكنا وأدائنا, وكان إنتاجنا حضاريًّا متطوراً. أما إذا كان الفكر رديئاً ومعتلاً جاءت ردود الأفعال رديئة على شاكلته, وانطلاقاً من هذا الباب يُفرض على كل مهتم بالحرية الفكرية أن يكون حريصاً على سلامة أفكاره وشمولية تلك الأفكار وحداثتها بما يتواقف مع المجتمع, وتطوير ودعم تلك المجتمعات ونظمها الصحيحة السليمة والداعمة, وأيضًا

> **"يتم بناء الوعي الثقافي الذي يعطي الصورة الحضارية المتكاملة لكل مجتمع، ولذلك يقع على عاتق العاملين في مجال الإعلام وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، تحمّل مسؤولية الحفاظ على الصورة الأخلاقية للمجتمع وأن تكون رسالتهم ذات معيار أخلاقي رفيع بعيداً عن السقوط والتفاهة. أيضاً للحفاظ على المصداقية في نقل المعلومات عليهم أن يتحلّوا بالأمانة وعدم نشر أخبار مغرضة"**

صحتها وعدم السماح للمؤثرات السلبية للدخول عليها.

و من أشد عوائق التفكير السليم هو الخوف والتردد اللذان يستلبان الإنسان حرية الإرادة والاختيار, وبالتالي يؤثران في ريادته وعطائه وابتكاراته, وذلك من شأنه التأثير في عمل المجتمع وتراجعه بين الشعوب وزعزعة خطواته على طريق التقدم والتحضّر, ومن هذا المنطلق نلاحظ العلاقة الوطيدة بين الفكر المستنير و حرية التعبير والتطبيق, بحيث يأتي التعبير صورة لا تتجزأ عن الأفكار.(٦)

وعن انعكاس التفكير على التعبير عن الرأي يستوجب علينا إدراج تعريف بمصطلح التعبير عن الرأي وشرح بعض الضوابط التي تتحكم في حرية التعبير عن الرأي .

إن حرية التعبير عن الرأي اصطلاحاً في عالمنا

٥- أهمية التفكير، مياء ياسين زغير، محاضرة، الجامعة المستنصرية، القاهرة ٢٠٢٠م

٦- عالم الفكر _المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، دولة الكويت، نوفمبر العدد ٢٤ ، ٢٠١٦م

> **على الرغم مما اعتمدته الأمم المتحدة من قرارات ومواثيق دولية خاصة بتأمين الحماية للإعلاميين والصحفيين، ومن ضمن تلك الاتفاقيات اتفاقية جنيف والبروتوكولان الإضافيان؛ إلا أننا نلاحظ أن بعض الاعتداءات ما تزال قائمة، وقد أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في يوم ٢ نوفمبر من كل عام يوماً دولياً لإيقاف الإفلات من العقاب على الجرائم المرتكبة ضد الإعلاميين**

الشرقي يفي بغرض حق الإنسان في التفكير المستقل وقدرته على التعبير عن رأيه عن طريق الكلمة المسموعة أو المقروءة, وتلك الحرية تشمل كافة الاتجاهات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والوجدانية وغيرها, وأيضًا تشمل جميع وسائل الاتصال الفردية والجماهيرية عبر قنوات الاتصال الحديثة المتعددة.

أما مفهوم حرية التعبير في المنظور الغربي فهي حق الإعلامي في الحصول على المعلومات من مصادرها, وقد تكون تلك المصادر عبارة عن وثائق ومستندات حكومية, كما أنه من حق المواطن الإلمام بأعمال الحكومة وتفاصيلها.

و نذكر الآن بعض ضوابط حرية التعبير كالتالي:

-1 ألا تكون حرية الرأي فرصة للدعوة إلى الفساد أو العنف أو الاعتداء على الناس أو التطرف أو تأجيج خطاب الكراهية أو التمرد على القوانين والنظم المجتمعية, أو التحريض على تبنّي قيم لا تمت للمجتمعات بصلة, أو الدعوة إلى قبول ثقافات متناقضة مع قيم ومُثل المجتمعات.

-2 التعبير عن الرأي بأساليب راقية غير منافية للأخلاق, ضمن مبدأ قبول الرأي الآخر مهما كان غير متطابق مع رأي الشخص أو الإعلامي.

-3 مصداقية صاحب الرأي وموضوعيته وعملية نقل المعلومات بشكل موضوعي بعيد عن التحيز أو الخضوع لضغوط من جهة, والموضوعية مهمّة لأن رأيه قابل للنشر بين فئات المجتمع.(٧)

ثالثاً- حرية التعبير كحق أساسي للإنسان

يمكننا العودة في هذا الصدد إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عام ١٩٤٨ والذي ينص على أن (لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي و التعبير, ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون أي تدخّل) المادة١٩. وبناءً على ذلك فإن من حق الأفراد و الجماعات التعبير عن أفكارهم ومبادئهم ومعتقداتهم دون خوف من أية رقابة أو جهة, والتمتع بإبداء رغباتهم فيما يخص الأسس الفكرية والاجتماعية و الأخلاقية والسياسية ضمن إطار مجتمعاتهم, ولكن السؤال المهم الذي يطرح نفسه هو إلى أي مدى طُبّقت قوانين الحرية الفكرية وحرية التعبير عن الرأي, وهل حقاً تم إزالة الهواجس والموانع التي قد تحدّ من تحقيق تلك الحرية؟.

ووفقاً للمادة السابقة فيما يخص حرية الإنسان على التعبير جاءت أطروحات المنظمات الأممية في عدة أولويات لتأكيد تلك الحرية. نذكر منها:

١- التأكيد على وجود إعلام حرّ منظم قادر على نقل رأي الأفراد وأفكارهم من خلاله.

٧ - حرية الرأي في الإسلام و النظم الحديثة دراسة تحليلية تأصيلية مقارنة ،محمد بن سعود ، الرياض، ٢٠٠٩م، ص ١١٣

٢- توفر جهات سياسية وقانونية ومجتمعية داعمة للحريات توفر سيادة القانون.

٣- المهارات الأكاديمية القادرة على نقل وتداول وجمع المعلومات ونقدها بطرق سليمة ونقلها, ومساءلة وسائل الإعلام فيما يخص أعمالها (الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ـ الأمم المتحدة).

من خلال ما تم ذكره بإمكان الأشخاص تشكيل أفكارهم تبعاً لأنظمة أكاديمية ناجحة, والإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي طرحته الأمم المتحدة ينص على تعزيز هذا الحق.

رابعاً- قيود الحرية الفكرية وتحدياتها

يطول الحديث في هذا المحور لما له من تأثير على تطور الشعوب, فتحديات الفكر وقيودها استمرت على مر العصور والزمن. نذكر منها أيضًا المعوقات التي تحكمت في مصداقية الحريات والأفكار كالتباين الطبقي الذي تعاني منه بعض المجتمعات, وهيمنة الطبقة البرجوازية التي تمتلك رأس المال والشركات, وتحكّمها فيها وتأثيرها بطريقة أو بأخرى على الفكر المجتمعي والطبقة الفقيرة التي تشعر بتبعيتها للطبقة المذكورة آنفًا, ولذلك نجد الفرد مقيّدًا بالفكر الطبقي وخاصة في الدول التي تنتهج سياسات غير مقيدة بقوانين ترعى الإعلاميين وتحميهم.

كما يشكل الفقر عائقاً كبيراً أمام الفرد بحيث يحدُّ من حريته ومن حق تمتعه بحرية التعليم, ويجعل من أولويات الشخص تأمين المقومات الأساسية للعيش بعيدًا نوعًا ما عن التطلع إلى الحقوق في المساواة أو عن حق المبادرة في القيادة, بحيث ينسى حقه في الاعتراض ويكون أمام قيادة مهيمنة ومسيطرة حتى على وسائل الإعلام التي تتحكّم بفكره.

و في ظل تخلف وسائل الاتصال والنشر ومحدوديتها في وقت مضى؛ أصبح التعبير عن الرأي وعن الفكر والمعتقدات حكرًا على النخبة المسيطرة على تلك الوسائط, الأمر الذي أدى إلى التحكم بحرية الأفراد في التعبير وتشكيل حكومات قمعية أو على الأقل مهيمنة على أدمغة شعوبها. غير أن انطلاق المحطات الفضائية وإمكانية القدرة على إبداء الرأي أو التعبير عن المبادئ والمعتقدات, أصبح متاحًا أكثر في وقتنا هذا ولم يعد ذلك عائقًا رئيسيًّا في الحد من حرية التعبير.(٨)

الفصل الثاني

تعزيز العمل الإعلامي المستقل

أولاً: أهمية الإعلام المستقل للمجتمع, وسائل الإعلام والمجتمع

يمكننا الحديث ضمن هذا المحور حول الأدوات الجديدة التي باتت تشكل تأثيراً كبيراً على الإعلام, ومن هذه الأدوات والوسائل منصات التواصل الاجتماعي التي أصبحت في الوقت الراهن تلعب دوراً أساسياً في تطوير الوعي الجمعي للمجتمعات, وعبرها يتم التواصل وتقصير المسافات باعتبار العالم أصبح اليوم كقرية صغيرة متداخلة.

كما أنها مفتاح النقاشات البنّاءة و تبادل الرأي واحترام الرأي الآخر, وبذلك يتم بناء الوعي الثقافي الذي يعطي الصورة الحضارية المتكاملة لكل مجتمع, ولذلك يقع على عاتق العاملين في مجال الإعلام وعلى مواقع التواصل الاجتماعي, تحمّل مسؤولية الحفاظ على الصورة الأخلاقية للمجتمع وأن تكون رسالتهم ذات معيار أخلاقي رفيع بعيداً عن السقوط والتفاهة. أيضاً للحفاظ على المصداقية في نقل المعلومات عليهم أن يتحلّوا بالأمانة وعدم نشر أخبار مغرضة أو ضبابية من شأنها أن تكون سبباً في هدم كيان المجتمع وبالتالي تؤثّر سلباً على الفرد والمجتمع.

٨ - الإعلام العربي أمام التحديات المعاصرة ، علي محمود العاندي ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية العدد ٣٥، ص ٣

”هناك الكثير من التحديات التي تواجه العمل الإعلامي المستقل، وبعض هذه التحديات هي العناصر التي تساهم في عملية التجميد وترسيخها كأولئك الذين ما يزالون يعيشون في زمن الفتوحات والأمجاد الغابرة التي كان عليها شرقنا الأوسط، وما يزال الافتخار والتمجيد بتلك الآونة من الزمن كأيقونة معلقة وثابتة يصعب إزاحتها قليلاً لإزالة الغشاوة عن الأبصار ومشاهدة ما آل عليه الحال في وقتنا هذا“

هناك عدة نقاط ارتكاز للإعلام الموضوعي حسب رأي الباحثين في مجال الإعلام نذكر منها:

- أن يكون من الضرورة ربط محتوى وسائل الإعلام بقيم المجتمع، أي أن تكون الرسالة منبثقة وحاملة للأبعاد الثقافية والحضارية التي ينتمي إليها المجتمع.

- أن يكون الاتصال تكاملياً، فيتضمن الاتصال السمعي، الاتصال المكتوب والاتصال الشفوي الشخصي.

- أن يكون الاتصال غير مقيد بعوامل مصلحية تابعة.

- أن يكون الاتصال تعبيراً عن قناعة ذاتية بدون أي مؤثرات أو ضغوط قسرية.

قيود الحرية الفكرية

كانت أول القيود التي تحدّ الفكر في العصور القديمة، تجريد الفكرة من باطنها العلمي وإسباغها بطابع ديني بديهي قابل للعمل به دون جدال أو نقاش، أو حتى تتبّع للأسباب والنواهي، إذ أن العقل البشري بفطرته السليمة يتوق للبحث وفهم المعلومة بتفاصيلها وأسبابها والأهداف منها والغاية التي ترمي إليها، إلا أن مع تقدم الزمن واستمرار استخدام ذات الوسائل، وضع حدًّا للتفكير بكل ذلك والسير على ذات النهج دون الفهم الصحيح لتلك المعطيات، ومثال ذلك العادات والتقاليد المتبعة في مجتمعاتنا الشرقية دون التساؤل عن الأسباب التي رسختها والأهداف التي جعلت منها عادة، كذلك الأمر في العصر الحديث تتجلى تلك القيود على شكل تجميد ظاهر وفعلي لعمل العقول وإقناعها أن كل ما يرِد إلينا من أفكار مُسَلَّمٌ بها ومدروس ولا داعي للبحث والتنقيب عن أصل ذلك الفكر، وعلى هذا تعمل بعض المؤسسات لترسيخ هذا النهج المجمّد الخالي من النقاش، و بالتالي تتم السيطرة على القيم والتحكم به.

هناك أدوار كبيرة لعبتها المنظمات المعنية بالإعلام والثقافة وشكلت دوراً أساسياً في تكوين الأفكار وتناقلها بالكلمة والصوت والصورة، ومن بين المنظمات الأممية التي وضعت قواعد وقوانين ممارسة مهنة الإعلام منظمة اليونسكو، حيث نصّت قوانينها على تعزيز الوضع الحر للصحافة، إذ أنها ذات تأثير في الحوار المستقل والتعبير عن الرأي، واعتبرت ذلك حقاً أساسياً من حقوق الإنسان، وعلى غرار ذلك أصدرت عام ٢٠١٤ تقريراً يركّز على مهمة الصحافة والإعلام في الحريات الفكرية بالنقاش والتعبير عن الرأي المستقل، انتهى بمسح عام للتحولات الرئيسية في حرية التعبير وتطوير وسائل الإعلام على الصعيد الدولي.

كما أصدرت عام ٢٠١٥ تقريراً آخر يندرج في نفس السياق، كما أنها نشرت فيما بعد دراسة بوصفها التقرير الثالث عن الاتجاهات العالمية في مجال حرية التعبير، وذلك لأنها ترى أن للفكر المستقل الحر والتعبير عن الرأي دور هام جداً في الحفاظ على سيادة القانون ومشروعيته. وتتطلب المادة ١٩ في القاعدة الدولية والتي استند عليها

هذا التقرير عناصر محددة لتعزيز حرية التعبير على المستوى الإقليمي والدولي, وفي مقدمتها التزام الحكومات بسيادة القانون من خلال إطار قانوني شفاف ونظام يتفق والمعايير الدولية. (كتاب الاتجاهات العالمية على صعيد حرية التعبير وتطوير وسائل الإعلام.(٩)

هذا على الصعيد العالمي فيما تناولته اليونسكو, أما على صعيد الشرق الأوسط فنجد ما ذكره علي عبد الفتاح كنعان من نقاط أخرى لأهمية الإعلام التي تتشكل بالنقاط التالية:

١-إلقاء الضوء على مشاكل المجتمع والمساهمة في اقتراح الحلول.

٢- إيصال المعلومات المهمة التي تخصُّ المواطنين تحديداً.

٣- نقل الخبرات والمعارف والمهارات في مختلف الأصعدة بالتعاون مع كافة القطاعات لتبليغ الرسالة المرجوّة.

٤- توفير المعلومات الكفيلة بتشكيل الرأي العام إزاء قضايا الداخل والخارج.

٥- يلعب الإعلام دورًا مركزيًّا في رفع مستوى الثقافة لدى المجتمع وتنمية الفكر الفردي.(١٠)

ومن الأهمية ذكر الخصائص الإعلامية لنظرية الحرية الإعلامية التي تتمثل في:

١. التحرّر من الضوابط الرقابية.
٢. حرية التراخيص.
٣. التركيز على الجانب المادي.
٤. استخدام المعايير المهنية.
٥. استخدام المواد الإعلامية.
٦. وضع قيود على تملّك الحكومات للصحف.
٧. حماية مالكي وسائل الإعلام.
٨. التقليل من قيود النشر.

إن غالبية الدراسات المتعلقة بالإعلام والتأثيرات المختلفة تدرس النظريات المختلفة في هذا السياق, ومنها كذلك دراسة النظرية الاجتماعية في الإعلام وأهم خصائصها الإعلامية. فهذه النظرية تعقد صلحاً بين ثلاثة مبادئ هي: مبدأ الحرية الفردية والاختيار, ومبدأ حرية الصحافة, ومبدأ التزام الصحافة تجاه المجتمع, حيث يراعي النقاط التالية:

١- إن وسائل الإعلام ليست ذاتية بقدر ما هي موضوعية.

٢- حيادية وموضوعية وسائل الإعلام تجاه الحكومات والقضايا الخلافية على مستوى المجتمع.

٣- تعدد وسائل الإعلام بحيث تعكس تنوّع الآراء والأفكار في المجتمع.

٤- التقليل من الأعمال الصحفية المنحرفة, والتي تخارب الأخلاق والقيم.

٥- الالتزام بمجموعة من المواثيق الأخلاقية, ليتمّ التوازن بين حرية الأفراد ومصالح المجتمع.

٦- تجنّب كل ما من شأنه أن يساعد على حدوث الجرائم والعنف, وسيادة لغة التطرف والعنف.

٧- الحفاظ على الثوابت السياسية والمبادئ القائمة.

٨- يجب أن يكون الإعلاميون مسؤولين أمام المجتمع.

٩- خدمة النشاط الاقتصادي وزيادة مساهمته في الناتج الوطني الإجمالي.

لقد كانت مهمة الإعلام في العقود الأخيرة من القرن العشرين هو تخليص المجتمع من التبعية السياسية للغرب والتوجه نحو الاستقلال ولم تطوّر من أدواتها, وتأثيرها كان محدوداً ومحصوراً في نطاقات بحثية وإعلامية ضيقة بسبب تلك التبعية.(١١)

٩ - التقرير العالمي للحرية الفكرية وحرية التعبير ، منظمة اليونسكو ٢٠١٨\٢٠١٧/ص ١٩

١٠ - الإعلام و المجتمع ، علي عبد الفتاح كنعان ، دار اليازوري، عمان الأردن ، ٢٠١٨ ص٨

١١ - الإعلام العربي أمام التحديات المعاصرة، علي محمود العاندي، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية ٢٠٢١ ص ١٤

ثانياً- التحديات التي تواجه العمل الإعلامي المستقل:

هناك الكثير من التحديات التي تواجه العمل الإعلامي المستقل، وبعض هذه التحديات هي العناصر التي تساهم في عملية التجميد وترسيخها كأولئك الذين ما يزالون يعيشون في زمن الفتوحات والأمجاد الغابرة التي كان عليها شرقنا الأوسط، وما يزال الافتخار والتمجيد بتلك الآونة من الزمن كأيقونة معلقة وثابتة يصعب إزاحتها قليلًا لإزالة الغشاوة عن الأبصار ومشاهدة ما آل عليه الحال في وقتنا هذا، وبطء حركة التطوير من شأنه التراجع في الفكر والحدّ من تقدمه وانفتاحه، والعيش على أحلام الماضي الوردي، وكذلك الأمر من شأنه الانعكاس سلباً على حرية التعبير، و هكذا على كافة الأصعدة.

وهناك نقطة مهمة جداً يجب التركيز عليها وعدم إهمالها ألا وهي التمسك بالمناصب والسلطة بطريقة تؤثر انعكاسياً على المواطنين، فإرادة الشعب ليست إرادة الحكّام، وقد تطول عودتنا للمربع الأول والبحث فيما بعد رحيل الاستعمار ما لم نكرّس الديمقراطية أسلوبًا ونهجًا لإقامة الدولة العلمانية، وبشكل آخر تعدّ الموثوقية من أبرز التحديات التي تواجه الإعلام المستقل، بحيث برزت بين المثقفين والصحفيين المتذيلين والذين انخرطوا في مؤسسات إعلامية ظاهرة موجهة لسياسات غير مهنية وغير أخلاقية، ولا تتمسك بالعمل الإعلامي الحر والمستقل والشريف.

وأمثال هؤلاء الإعلامين يروّجون لأفكار استهلاكية وتابعة أو منحازة عبر الندوات والخطابات التابعة لسلطة المال والإعلام المستهلك، أو تحقيقاً لأجندات تتبع مؤسسات مهمتها تشويه الحقائق وبث السموم والتأثير في الجمهور.(١٢) ونظراً للمخاطر الأمنية التي يتعرض لها الصحفيون يصعب جذب المراسلين والصحفيين لمزاولة مهنة الإعلام، وقد قال يونج «عندما تعمل لصالح وسائل الإعلام المختلطة تكون حياتك المهنية أقل أماناً»، وهو يوضح بذلك صعوبة أن توظف حياتك المهنية لوسائل الإعلام المختلطة، كما قالت ديندكينا أن السؤال البارز الذي يواجه الإعلاميين والصحفيين هو «من أنا؟ هل أنا صحفي في المقام الأول أم مواطن»؟

بإمكاننا أن نذكر أيضاً من تحديات الإعلام بعض الأرقام في عالم الإعلام، وتلك الأرقام عبارة عن إحصائيات اليونسكو وجهات أخرى تُنسب إلى ضخامة المكانة التي احتلتها بعض وسائل الإعلام في بعض الدول، منها ٣٠ دولة وصلت إلى حدّ الإشباع في مجال الصحافة، ٤٨ دولة تشبّعت في مجال الراديو، ٢٢ دولة أُشبعت في مجال التلفزيون، وأيضًا هنالك ٢١ دولة تشبّعت بكافة وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون، بالإضافة إلى ذلك تنتشر في العالم ما يقارب ١١٦ مكتبة وطنية يصدر عنها ١٦٠ مليون مجلد.(١٣)

أمام هذه الإحصائيات العملاقة نجدنا نتساءل: هل أخذ الإعلام في منطقة الشرق الأوسط موقعه بين نظام الإعلام العالمي؟ وذلك يوازي نظرة وسائل الاتصال الدولية تجاه دول العالم الثالث التي تتمثل بالتبعية والخضوع.

ثالثاً- الحماية القانونية للعاملين في المجال الإعلامي

يتعرض الإعلاميون وعبر تاريخ الإعلام الطويل للكثير من العنف والتهديد والقتل في ظل النزاعات والحروب، فمنذ عام ٢٠١٢م إلى نهاية ٢٠٢٣ م هناك ارتفاع مطّرد في استهداف الإعلامين والصحفيين وهناك وفاة اثنين أسبوعياً، وما يزال القتل والاستهداف مستمراً في مناطق النزاعات والحروب بنسب عالية جداً وخاصة في دول منطقة الشرق الأوسط التي تشهد نزاعات كثيرة، وممارسة أشكال العنف والخطف والتعذيب والاختفاء القسري ضد الإعلاميين ما يزال في تزايد، على الرغم من القواعد التي

١٢ - المخاطر المرتبطة بأخلاقيات العمل الإعلامي ، أ.م.د.كاظم المقدادي ، جامعة بغداد ٢٠١٩، ص٣٤

١٣ - التحديات المعاصرة، علي محمود العاندي، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية ص ٢٦

سنّها القانون الدولي الإنساني للحفاظ على أمان الصحافيين والإعلاميين.

وفي بؤر الصراعات الحامية مثل شرق أوروبا وأوكرانيا والقفقاس وجنوب آسيا وفي إفريقيا والبحر الكاريبي ودول أمريكا اللاتينية كذلك, والاستهدافات التي تعرض لها الإعلاميون في تلك المناطق والتي اتسمت بالعنيفة والمدمرة, وتنامي القوى المتطرفة والتي تتخذ التطرف والعنف منهجاً, زادت من وتيرة استهداف الإعلامين.

وعلى الرغم ممّا اعتمدته الأمم المتحدة من قرارات ومواثيق دولية خاصة بتأمين الحماية للإعلاميين والصحفيين, ومن ضمن تلك الاتفاقيات اتفاقية جنيف والبروتوكولان الإضافيان؛ إلا أننا نلاحظ أن بعض الاعتداءات ما تزال قائمة, وقد أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في يوم ٢ نوفمبر من كل عام يوماً دولياً لإيقاف الإفلات من العقاب على الجرائم المرتكبة ضد الإعلاميين, كما اعتمدت تلك الجمعية منذ عام ٢٠١٢ ومجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة ومجلس اليونسكو ١٢ قراراً يخص الحفاظ على سلامة الصحفيين.(١٤)

وممّا سبق نستشهد أنّ للعاملين في الصحافة والإعلام أجلّ الحقوق لِما لهم من دور في نقل الجيل من قوقعة الجهل إلى الخطوة المعرفية بآخر حركات النهضة وأحداث الشعوب.(١٥)

وبالعودة إلى القوانين الدولية وقرارات منظمات دولية, نرى تمخّض عدة قرارات عن مؤتمر لاهاي واتفاقيات, ومشاريع عام ١٩٠٧ جاء فيها التأكيد على حق الصحفيين في مرافقة القوات المسلحة شريطة أن يحصل الصحفي على تصريح ينص على ذلك من قِبَل السلطات العسكرية.

كما جاء في اتفاقية جنيف الثانية عام ١٩٢٩

"أصدر عام ٢٠١٥ تقرير آيندرج نشر فيما بعد دراسة بوصفها التقرير الثالث عن الاتجاهات العالمية في مجال حرية التعبير، وذلك لأنها ترى أن للفكر المستقل الحر والتعبير عن الرأي دور هام جداً في الحفاظ على سيادة القانون ومشروعيته. وتتطلب المادة ١٩ في القاعدة الدولية والتي استند عليها هذا التقرير عناصر محددة لتعزيز حرية التعبير على المستوى الإقليمي والدولي"

في المادة ٨١ والتي اختصت بموضوع الأسرى, أن للصحفيين والمراسلين الذين يتم اعتقالهم في الحروب حق المعاملة كأسرى حرب, أيضًا يُشترط في ذلك أن يكون بحوزتهم التصريح العسكري للجيش.(١٦) ويستمد العاملون في مجال الإعلام والصحافة مشروعية عملهم من خلال ما تنص عليه القوانين والاتفاقيات, والتركيز على حق تمتعهم بالحرية في دورهم ورسالتهم على أسس قوية ومتينة. وعلى غرار ما سبق يتمتع الصحفيون بحق المعاملة كأشخاص مدنيين وفقًا للاتفاقيات الدولية المنصوصة التي تصبّ في بند الحفاظ على صلاحياتهم ومشروعية تواجدهم في مناطق الحدث, مع ضمان حصولهم على الحرية في التعبير عن الرأي وأيضًا التجاوب مع عملهم دون قيود.

١٤ - الاتجاهات العالمية على صعيد حرية التعبير و تطوير وسائل الإعلام ص١٦

١٥- حماية الصحفيين أثناء النزاعات ، بكايري سمية ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير

١٦- الحماية القانونية للإعلاميين في منظور القانون الدولي عام ٢٠١٧ ، د.سامي محمد عبد العال ، القاهرة ، ص١١

رابعاً ـ آليات دعم المؤسسات الإعلامية المستقلة

من أجل تطوير أدوات العمل الإعلامي وتحسين ودعم وأساليبه، وكذلك لضمان جودة الإعلام وجودة ما تقدمه وسائل الإعلام، لا بدّ من وضع خطط داعمة للعمل للإعلام الحر والمستقل ووضع آليات تشجع المؤسسات الإعلامية لدفعها نحو الأمام، واتخاذ تلك الآليات كركيزة الدعم المستمر المتطور والمتجدد. نذكر منها:

١- دعم الإعلام بحوافز العمل.

٢- اختيار الكفاءات البشرية الكافية لعملية الإعلام «اختيار ذوي الكفاءات».

٣- تحديث الأنظمة والمبادئ التي تسير على أساسها المؤسسة الإعلامية.

٤- إيجاد غايات واضحة للعملية الإعلامية كمبدأ أساسي للإعلام.

٥- تحديد مسؤوليات الإداريين والموظفين في المؤسسة.

هنالك أيضًا عدة معايير وخطوات تمهيدية لبناء نظام إعلامي مواكب في المؤسسات الإعلامية نذكر منها:

أ. إجراء دورات لتثقيف العاملين في الإعلام وتطوير عقولهم.

ب. عرض المراحل الأساسية التي يشملها تنفيذ نظام الجودة.

ت. ضبط الوثائق والكتب المرجعية.

ث. الإجراءات التصحيحية والوثائقية.

ج. تحديد عناصر إدارة الجودة وهي (مسؤولية الإدارة، نظام الجودة، مراجعة العقود، ضبط التصميم، المشتريات، الخ)(١٧)

هنالك مبادئ تعمل على أساسها وسائل الإعلام، ويمكننا تلخيص تلك المبادئ في مجموعة من المفاهيم، نذكر منها:

١- النظام: وهو مجموعة الخطط والمشاريع والأهداف الموحدة التي تعمل على أساسها المؤسسات الإعلامية.

٢- العملية الإعلامية: وهي تشمل المناهج والأساليب والسياسات اللازمة لتحقيق العمل الإعلامي المتميز بصورة لافتة و ناجحة داخل المؤسسة وخارجها.

٣- هيكل المؤسسة: وهو عبارة عن مجموع إداريي المؤسسة وأنظمتها الشاملة التي تصبّ في تحقيق أهداف المؤسسة.

٤- الأساليب: وهي تعد المنهاج المنظم والوسائل المتعلقة بالإدراك والمعرفة والتكنولوجيا على أسس أكاديمية مدروسة لضمان إنجاح العمل الإعلامي المقرر للمؤسسة.(١٨)

وقد ركزت المؤسسات الإعلامية على مجموعة نقاط ارتكاز لإيصال الهدف الإعلامي إلى الأشخاص بطرق ديناميكية عالية الجودة ألا وهي:

١- استيعاب حاجات الأفراد على الأبعاد القريبة والبعيدة، و تقديم المادة التي تخدم المستفيدين من ذلك العمل.

٢- العمل على إنجاح التوافق بين المستفيدين وبين أهداف المؤسسة والدمج بين الطرفين، والبحث عن طرق التلاقي بين المؤسسة والمستفيدين بحيث تكون الفائدة متبادلة، والعمل بين كلا الطرفين متبادل من حيث المعلومات والخبرات وحل المشاكل.

٣- ضرورة اهتمام المؤسسة بمراقبة ما إذا كانت قد حققت التأثير اللازم في المتلقين وقدمت ما

١٧ -إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، الأسس المبادئ و آليات التطبيق،أ.د.جمال العيفة، أ.ليلى فقير، جامعة باجي مختارة، عنابة ص٢٦

١٨ - إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، أ.د.جمال العيفة، أ.ليلى الفقيري، جامعة باجي مختار، عنابة ص٢١

يرضي المستفيدين. وإجراء مقارنة مع المؤسسات الأخرى سواء داخلية أو خارجية وقياس فاعليتها بالنسبة لفاعلية تلك المؤسسة, ومحاولة الاستفادة من خبرات وتجارب هذه المؤسسات.

الخلاصة والاستنتاجات:

في نهاية هذه الدراسة يمكننا تقييم العمل الإعلامي المستقل من خلال التعرّف على ضوابطه ومعرفة كوامنه. ومن خلال البحث نرى أن الحرية الفكرية وحرية التعبير تتعلقان بشكل كبير بمستويات التأثير الذي يتعرض له الفرد والمجتمع, فهي عملية معقدة يشترك فيها العديد من العوامل والمتغيرات والاتجاهات والقيم, سواء للفرد أو المجتمع, والتي تساهم في مجموعها في إعطاء الصورة الحقيقية لصناعة القرار.

ولأن عالم اليوم هو عبارة عن قرية صغيرة يمكن فيها للمتلقي التأثر والتأثير في صناعة القرار ورسم الواقع المتخيل بفضل التكنولوجيا الحديثة والمحدثة, والتي ساهمت في التأثير الكبير في وسائل الاعلام والاتصال وعلى المتلقّين (الفرد والمجتمع).

والإعلام يتأثر ويؤثر في الفكر ويحدد مسارات الحرية الفكرية والقدرة على التعبير على اعتبارها الوسيلة الرئيسية التي تقوم بالاتصال بين الفرد والمجتمعات. من خلال أهداف محددة توضع عن طريق تخطيط منظم بهدف التعريف بما يجري في المنطقة بواسطة الأخبار والأنباء المختلفة المنوّعة إشباعاً لميول ورغبات المجتمع والشعوب في فهم ما يحيط بهم من ظواهر, ولإيجاد إعلام ناجح وموصولٍ بالعقول ينبغي التحلّي بالموضوعية والمصداقية في تقديم المعلومات بحيث ترتبط بأطراف موثوقة من حيث إدراج المعلومات والأخبار.

بيد أنَّ بعض وسائل الإعلام على اختلاف مشاربها تستغل هذه المبادئ بشكل ضار ومنهج وحذر, حيث تتلاعب بالحقائق وتوجّه الرأي العام وفقًا لأجندات موجهة لسياسات خارجية تفي بأغراض سياسية واجتماعية وأخلاقية ودينية واقتصادية مدروسة من قبل تلك الجهات, بغية التحكم بتوجهات الشعوب والتأثير على عقولها. والسير بها نحو مدارك تتماشى مع مصالح تلك الجهات.

لذلك لابد من المجتمعات والشعوب أن تتدارك الوقوع في براثن الإعلام الموجه غير المتناسب مع حاجات المجتمع ومواجهة تلك السياسات الرامية لتدمير الشعب بعدة وسائل وأنظمة, و التزام فكرٍ محايدٍ واعٍ وقادر على السير على نهج الحتمية القيمية في الإعلام.

المراجع والمصادر:

-1 تعليم التفكير، لمياء ياسين زغير، محاضرة، الجامعة المستنصرية، القاهرة 2020م

2 - حرية الإعلام و القانون، د.ماجد راغب الحلو، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية، 2012م

3 - القواعد الأساسية للقانون الدولي الإنساني، من منشورات اللجنة الدولية للصليب الأحمر_يوليو1985م

-4 أهمية التفكير، مياء ياسين زغير، محاضرة، الجامعة المستنصرية، القاهرة 2020م

-5 عالم الفكر _المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، دولة الكويت، نوفمبر العدد 24 ، 2016م

-6 حرية الرأي في الإسلام و النظم الحديثة دراسة تحليلية تأصيلية مقارنة ،محمد بن سعود ، الرياض، 2009م

-7 التقرير العالمي للحرية الفكرية وحرية التعبير ، منظمة اليونسكو 2017م

8 - الإعلام و المجتمع ،علي عبد الفتاح كنعان ، دار اليازوري، عمان الأردن ،

-9 المخاطر المرتبطة بأخلاقيات العمل الإعلامي ، أ.م.د.كاظم المقدادي ، جامعة بغداد 2019م

-10 الاتجاهات العالمية على صعيد حرية التعبير و تطوير وسائل الإعلام

11 - حماية الصحفيين أثناء النزاعات ، بكايري سمية ،مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير

-12 الحماية القانونية للإعلاميين في منظور القانون الدولي ، د.سامي محمد عبد العال ، القاهرة ، 2017م

-13 إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، الأسس المبادئ و آليات التطبيق.أ.د.جمال العيفة، أ.ليلى فقير، جامعة باجي مختارة، عنابة، الجزائر 2019م.

14- إدارة الجودة الشاملة في المؤسسات الإعلامية، أ.د.جمال العيفة، أ.ليلى الفقيري، جامعة باجي مختار، الجزائر 2020م.

الفنون والثقافة أدوات لمحاكاة الواقع ومفاتيح للغور إلى أعماق المجتمعات

أحمد دالي

منهجية البحث

مدخل

في الحديث عن مجال متنوع الأطر وواسع الآفاق مثل الفنون والثقافة؛ لا بدّ للقارئ من أن يتوقف لوهلة أمام مفردتين لطالما كان الإقحام من نصيبهما رغبةً أو عنوةً في القضايا الاجتماعية والحياتية صغيرها قبل كبيرها، الكلمتان هما (الضرورات والكماليات)، فما أكثر ما نسمع أن هذا الشيء يُعتبر من ضرورات الحياة سواء بالنسبة للأفراد كحالة شخصية أو للمجتمعات كحالة جماعية، وذلك شيء كمالي وأيضاً بالنسبة للأفراد والجماعات، ولكن ثمة تساؤل ما ـ في اللحظة نفسها التي تراودنا فيها هذه الأفكار ـ يطفو على سطح تفكيرنا عن آلية وكيفية تحديد كل من الضرورة والكمال، وما هي المعايير والموازين التي يمكن أن تُقاس عليها القضية، وما مدى ارتباط تلك الضوابط أو المعايير بالأخلاق والواقع.

أليس من المنطقي أن يكون مطلب ما ضرورياً وملحّاً في مكان ما وكمالياً ترفيهياً في مكان آخر؟ تبدو المسألة خاضعة لمقياس المستوى الذي لا يمكن أن يكون واحداً ومنضبطاً في الزمان والمكان المختلفين, لأن تفاوت القيم الاجتماعية واختلاف المستويات المعيشية والمعرفية في ذات الوقت, هي التي تحدد في النهاية ما هو ضروري وما هو كمالي.

أريد الوصول من خلال هذه المقاربة إلى حقيقة أن من يسعى وراء لقمة العيش التي قد لا تتوفر له بسهولة ويسر, لا شكّ وأن جميع أشكال الفنون وضروب الثقافة ستكون ـ ربما ـ بعيدة المنال ولو إلى حين, وأقول ربما لأنه ثمة حالات فردية جامحة كسرت هذه القاعدة وحطّمتها أمام رغبة إثبات أن الألم يولّد الإبداع, وأن الجوع والحرمان يولّدان المتعة, ولكن تبقى الحالات الفردية عاجزة أمام تحوّلها إلى ظاهرة عامة, لأن القياس يكون على العامّ الغالب وليس الفردي النادر.

أمام مسألة حقيقة الفنون وقدرتها على التأثير في الحياة الاجتماعية والغور إلى ثنايا حياة الأفراد التي تتشابك لتعطي نسيجاً مجتمعياً؛ أمام هذه المرآة تتولّد فكرة امتلاك أدوات محاكاة الواقع والوقائع, وحيازة مفاتيح التعامل معها بواقعية وعقلانية ومنطق سليم من شأنه أن يدفع بالفنون ولو خطوة إلى الأمام, على طريق اعتبارها شيئاً مهمّاً يمكن لها أن ترتقي إلى مصافي الأمور الحياتية والمجتمعية الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها, وتجاوز فكرة أنها مسائل ترفيهية كمالية وأنها خاصة بفئات دون غيرها ولو بنسبة ضئيلة, مع الأخذ في الاعتبار ظروف الزمان والمكان والمستوى المعرفي للمجتمعات الإنسانية المتنوعة.

الأمر ذاته ينطبق ويحضر في الميادين الثقافية المتنوعة, وخاصة مع علمنا أن ثقافات الشعوب هي نتاج تراكمي وليست طفرة تاريخية, فالمجتمعات القديمة التي عرفت تهجين وترويض الحيوان وأتقنت فنون الزراعة, لا بدّ أن تكون على دراية ومعرفة كافية بعلوم الفلك والأجواء والطقس, دافعها إلى ذلك هو الحاجة والضرورة إلى إنجاح العمليات الزراعية وفنون الصيد للمحافظة على الحياة والاستمرار, ففي هذه الحالة امتزجت الضرورة بالكمال, وتلوّنت الحاجة بالرفاهية, لأن حاجتهم إلى معرفة ما يحيط بهم لتأمين حياتهم, دفعهم إلى البحث والمعرفة ببيئتهم سواء على الأرض أو بعلوم الفلك والفضاء, وكذلك الحاجة إلى الإبحار والملاحة دفعتهم إلى الخوض في علوم البحار والمدّ والجزر والمسافات والاتجاهات, وغيرها الكثير من المسائل المعرفية التي قد تبدو من الوهلة الأولى أنها خارج اهتمام الإنسان وأن لا حاجة ولا ضرورة لها, ولكنها سرعان ما تتحول لتصبح ضرورية لا غنى عنها, ولا يمكن أن تستقيم الحياة وتستمر من دونها.

فإذاً للثقافة دور ريادي وطليعي في إسهامها في تعزيز الهوية الاجتماعية وتمييزها عن غيرها من الثقافات المختلفة, كما أنها تعمل على تشجيع وتحفيز التفاعل الاجتماعي وذلك عن طريق خلق الروابط المتينة والقوية بين الأفراد حتى يظهروا على شكل جماعة متماسكة, لأنها تعطي صورة عن الطباع والسلوكيات والأنماط المتشابهة والمشتركة من التقاليد والفنون والملبس والميول وغير ذلك. ومن ناحية أخرى تلعب الثقافة المجتمعية دوراً حاسماً وبارزاً في تشكيل المعايير الأخلاقية ومدى تأثيرها في سلوك وتفاعلات أفراد المجتمع, فهي بذلك تقف عند تحديد القيم والضوابط التي يتّبعها أفراد كل مجتمع على حدة, إذ أن هناك علاقة وطيدة بين ثقافة المجتمع كحالة جمعية, والمواطن الفرد الذي يعيش في إطار تلك الثقافة الجمعية, لأن ولادة الفرد ضمن جماعة ما يعني بالضرورة ولادته في ثقافة معينة, وبالتالي فإن هذه الشخصية لا بدّ لها أن تنمو ضمن هذه البيئة التي ستشكل لها الإطار الاجتماعي والحيّز الثقافي والبعد المعرفي, ونتيجة لكل هذا فإن الفرد سيتأثر بما حوله من ناحية ولادة الاتجاهات والميول والأفكار لديه, وهذا بمجموعه سينعكس على تكوين مهاراته وتشكيل القناعات لديه وطرق التعبير

عن انفعالاته ورغباته.

ولا يكاد الأمر يختلف كثيراً على ساحة المعتقدات الدينية وطقوسها المختلفة وشعائرها المتنوعة, ففي فترة زمنية ليست بالقريبة كانت الآلهة محلّ رهبة لدى مختلف الشعوب التي كانت تسلك مثل هذه المسالك في عدم قدرتها على الاستقلال عن مفاهيم مثل القوى الخفية والطبيعية, وبالتالي كان التقرّب إليها يُعتبر أمراً ضرورياً وحاجة ملحّة لتفادي شرورها وغضبها, فكان تقديم القرابين لتلك الآلهة أو تلك القوى التي يؤمنون بقدرتها على إحداث الفوارق وإلحاق الأذى بهم أو تقريب الخير إليهم وتحقيق رغباتهم؛ كانت تلك الأفعال والتصرفات المتمثلة في تقديم الأضاحي يُعدّ شيئاً ضرورياً يفوق كل ضرورات حياتهم, حتى بلغ بهم الأمر في فترة زمنية ـ لدى بعض الشعوب ـ إلى تقديم أولادهم كقرابين تفادياً لشرور وانتقام الآلهة منهم من ناحية, ولنيل رضاهم واستحسانهم من جهة ثانية.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في طبيعة البيئة المكانية التي تدور في خضمّها الفنون والثقافات والآداب, وتبرز المشكلة أكثر عندما تتقهقر هذه المجالات المهمة من حياة الأفراد والمجتمعات فتتوقع في زاوية المهملات, وبذلك تخرج من حيّز الأولويات سواء من جهة الفرد كحالة أو المجتمع كظاهرة, وهذا الأمر يتفاقم أكثر فأكثر حين يُصاب الفنان والمثقف والأديب بالداء نفسه, فيبدأ بإهمال اختصاصه ووظيفته الاجتماعية, ويتراجع بعد ذلك عن السير في مضماره الثقافي والفني, بسبب انعكاس الظاهرة المجتمعية العامة السائدة والراكدة على الحالة الفردية والشخصية بعد أن كانت متوهّجة وفاعلة.

أهمية البحث

قد يكون من الجدير إبراز أهمية بحث من هذا النوع على الأقل من ناحية إيصال فكرة أن الثقافة والفنون ليست بالضرورة أعمالاً ترفيهية

"أمام مسألة حقيقة الفنون وقدرتها على التأثير في الحياة الاجتماعية والغور إلى ثنايا حياة الأفراد التي تتشابك لتعطي نسيجاً مجتمعياً؛ أمام هذه المرآة تتولد فكرة امتلاك أدوات محاكاة الواقع والوقائع، وحيازة مفاتيح التعامل معها بواقعية وعقلانية ومنطق سليم من شأنه أن يدفع بالفنون ولو خطوة إلى الأمام، على طريق اعتبارها شيئاً مهماً يمكن لها أن ترتقي إلى مصافي الأمور الحياتية والمجتمعية الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها"

كمالية, وبالقدر نفسة ليست حكراً على طبقة اجتماعية دون أخرى, ولكن على ما يبدو أن القيم الاجتماعية والمشكلات الفكرية والقيود الدينية والقبلية التي تتسيّد المجتمع, هي التي تتحمّل جانباً كبيراً في دفع الموضوع بهذا الاتجاه, وخاصة في بيئة شرق أوسطية كما هو الحال في عموم سوريا ودول المنطقة العربية والإسلامية.

أسئلة البحث وبواعث الدراسة فيه

ـ إذا كان الشرق الأوسط يمتلك تاريخاً ناصعاً من حيث انطلاق البدايات الأولى لاستقرار البشرية, فلماذا لا يعيش حياة مستقرة هانئة تليق بمستوى ذلك التاريخ؟

ـ اكتُشفت الزراعة أيضاً في منطقة الشرق الأوسط, وكانت السبب في الاستقرار والازدهار, ولكن لماذا نرى اليوم أن أعداداً كبيرة من بعض الدول في المنطقة تعيش تحت خط الفقر, وتفتقر حتى إلى مقوّمات الحياة التي تنتجها

الزراعة وعلى رأسها القمح؟

ـ هذه المنطقة كانت النقطة التي انطلقت منها الشرارة الأولى نحو العلوم والمعرفة, إذ كانت محور تلاقي الديانات, لكن السؤال هو: هل حققت دول الشرق الأوسط بحكوماتها وشعوبها, وبمراجعها ومنابرها الدينية, هل حققت شيئاً من ذهنية قبول الآخر المختلف دينياً أو مذهبياً؟

ـ من أهم سمات المنطقة تعدّد الأعراق وتنوع الشعوب واختلاف الديانات والمذاهب, وهذه اللوحة متعددة الألوان والأشكال قد تعايشت عبر تاريخها الطويل بين علاقات سلم وجوار وأمان حيناً, وتوترات وصراعات أحياناً أخرى, فلماذا لم تتمكن حالة التنوع الطبيعية تلك من أن تخلق السلام والوئام الدائم بين شعوب المنطقة؟

ـ باكورة الكتابة انطلقت من هنا, من شرقنا, حيث كان اكتشاف الأبجدية نقطة تحوّل تاريخية حقيقية, وعلى الرغم من ذلك نجد اليوم أن الأمّية تجتاح مجتمعات بأكملها في الشرق الأوسط, أما كان بإمكان حكومات وسلطات الدول في المنطقة أن تقضي على هذه الآفة الاجتماعية؟ عن الجهل والأمية أتحدث.

ـ إذا كانت الفنون والآداب أدوات للتعبير عن الواقع ومحاكاته, فهل يتوفر للفنان والأديب والشاعر هامش من الحرية للتعبير عما هو ملحّ وضروري؟ أم أن لسان حالهم جميعاً أن السكوت من ذهب؟

ـ ألم يشفع الأنبياء والرسل جميعاً من أبناء المنطقة, لتكون هذه البقعة من العالم منارة علم ومعرفة, وهداية وسلام, واستقرار وأمان؟

ـ علماء موسوعيون بالعشرات أو بالمئات كانوا من أبناء هذه الرقعة الجغرافية, ومن مختلف الاختصاصات الضرورية من المنطق إلى الرياضيات والفلك والكيمياء والعلوم الطبيعية واللغة, ومع ذلك يبدو أن الجهل والتخلف ما يزال حاضراً فيها.

ـ كيف يمكن لأمم تتغنى بتاريخها البعيد قبل القريب أن تتجاوز أزمة إنكار تاريخ أمم أخرى تشاركها الجغرافيا والعقيدة؟

هذه الأسئلة وغيرها تدفع بشكل جامح إلى البحث والكتابة, إنها حقاً تثير الشفقة على الوضع المزري الذي تعيشه المنطقة على الرغم من كل الأشياء الإيجابية التي تم ذكرها آنفاً, فأين تكمن المشكلة؟ هل تكمن في الشعوب أم تكمن في الحكومات؟ أم أن نظرية المؤامرة حاضرة؟.

أهداف البحث

والحال هذه: أعتقد أنه من الضرورة تقديم الحالة الثقافية والفنية في مجتمع أو بلد ما وخاصة من قبل المتخصصين, على أنها ليست من محرّمات الدين, وأنها ليست كذلك من محظورات القيم الاجتماعية, وبالقدر نفسه ليست حالة أرستقراطية محصورة في طبقة اجتماعية بذاتها, وإلى جانب هذا ينبغي الاطمئنان إلى أن تطوّر الحالات الثقافية والفنية والأدبية هي أدوات إضافية نحو تقدّم المجتمعات, فهي تنمّي القيم الأخلاقية, وتعمل على فتح قريحة الفرد ومواهبه, وبالنتيجة فهي عمل إنساني خلاّق جدير بالاحترام.

منهج البحث

تعتمد هذه الدراسة البحثية على منهجين: المنهج الوصفي الذي يقوم على تقديم الحالة من حيث التوصيف والتشريح, والمنهج التحليلي من أجل الدخول في ثنايا موضوع البحث والمشاكل المتعلقة به, وتحليل الحالة الثقافية من ناحية تأثيرها في المجتمع وتأثرها بالقيم السائدة فيه, ويتم الاستناد في بعض الأحيان إلى المنهج البرهاني عند الضرورة بهدف طرح التساؤلات التي تخيّم في سماء المشكلة, والتي تطرح نفسها بإلحاح.

مجتمع وبيئة البحث

لقد تطرّقت إلى بيئة البحث بشكل سريع, فالبلدان الشرق أوسطية وخاصة العربية والإسلامية منها, وجميع الشعوب التي تعيش في هذا الحيّز الجغرافي تعاني من مشاكل جمّة في تعاطيها مع الفنون, ولا تولي ذلك الاهتمام الكافي بالحقل الثقافي, وهذا الأمر ينعكس تلقائياً على العاملين في الثقافة والفن, ولذلك تجدهم على هامش الحياة في بعض الأحيان إن لم نقل في غالبها, فتسير بالبعض منه الحال إلى هجر الفن والعزوف عن ممارسة النشاطات الثقافية والفنية والأدبية.

إن هذا البحث يتطلب تقسيمه إلى مباحث حتى يقدِم المرجوِ منه:

١ـ المعرفة أسيرة ورهينة أدواتها

٢ـ الفنون أدوات لمحاكاة الواقع والغور إلى أعماق المجتمعات

٣ـ الثقافة الإنسانية أم الحضارة الإنسانية

٤ـ كيف يمكن للفنون والثقافات أن تكون من ضرورات الحياة الإنسانية

٥ـ دور النخبة المثقفة في قراءة المجتمع ومحاكاته والغور إلى تفاصيله

٦ـ الثقافة ما بين الاستقلالية والتحولات السياسية والاقتصادية

١ـ المعرفة أسيرة ورهينة أدواتها

لأن الإنسان القديم كان محكوماً بأدوات المعرفة الضحلة والبدائية, وجدنا أن محاكاته للطبيعة ومفهوم الإله كان مبنياً على التضحية بكل شيء حتى بالنفس, كل ذلك من أجل الحصول على رضا واستحسان الآلهة, ولكن في مرحلة زمنية متقدمة إلى حدّ ما نجد أن تلك الرغبة

”إن ثقافات الشعوب هي نتاج تراكمي وليست طفرة تاريخية، فالمجتمعات القديمة التي عرفت تهجين وترويض الحيوان وأتقنت فنون الزراعة، لا بدِ أن تكون على دراية ومعرفة كافية بعلوم الفلك والأجواء والطقس، دافعها إلى ذلك هو الحاجة والضرورة إلى إنجاح العمليات الزراعية وفنون الصيد للمحافظة على الحياة والاستمرار، ففي هذه الحالة امتزجت الضرورة بالكمال، والحاجة بالرفاهية، بسبب حاجتهم إلى معرفة ما يحيط بهم لتأمين احتياجات حياتهم“

في التقرّب قد انتقلت أشخاص بشريين مثل كهنة المعابد, لتنتقل بعد ذلك مع مرور الزمن إلى شخصية الحاكم الذي ادّعى الألوهية الكاملة في مراحل من الزمن, ثم مع ازدياد الوعي المعرفي الجمعي في المجتمعات الإنسانية نجد أن الحاكم الإله يتنازل عن جزء من ربوبيته وألوهيته لصالح الشعب, فيكتفي بادّعائه أنه نصف إله, ومع التقدم المعرفي والتطور الثقافي, ونتيجة جهود رجال العلم وخاصة في مجالات مثل علوم الاجتماع والقانون والمنطق, يصل الأمر إلى اعتبار الحاكم شخصاً إنسياً طبيعياً يستمدّ سلطته من الجماهير بموجب عقد اجتماعي يحدد مسؤولياته وواجباته, وبالتالي تحوّل الحاكم من نصف إله متسلّط يستمدّ قوّته من الآلهة إلى إنسان طبيعي يستمدّ شرعيته من الشعب, فنزل من عرش الألوهية إلى خادم للشعب.

فإذاً: كانت الأدوات الثقافية والمعرفية هي الدافعة والحاضرة وراء هذه القفزات التاريخية, فلولا تطور تلك الأدوات لبقيت المستويات المعرفية والثقافية

”الربط بين البيئة والفن والأدب لا شكّ سيقودنا للسؤال عن النشأة الأولى للفنون، وعن الارتباط الوثيق بين الفن والإنسان وقدرته على الغوص إلى أعماق المجتمعات والبيئات المكانية والزمانية وظروفها الموضوعية بحسب الشعوب التي تتراقص في أفلاكها تلك الفنون، أو تنشط في ميادينها تلك الآداب، أو تنمو في ربوعها تلك الثقافات، أو من حيث الوظيفة الاجتماعية التي من المفترض أن تضطلع بها“

رهينة العبودية لآلهة من البشر يدّعون إمدادهم بالسلطة من السماء ولا من مشكّك في سلطتهم تلك.

وعلى غرار الأدوات المعرفية فإن الفنون هي الأخرى تطورت أدواتها لمحاكاة الواقع وكيفية فهمه والتعاطي معه وطرق الاستجابة لمتغيراته ومستجداته, فأصبحت الفنون في مراحل مختلفة ونتيجة لما طرأ على أدواتها العلمية والمعرفية ـ وعلى مختلف وصورها وهوياتها في الدرجة الأولى من الناحية الوظيفية ـ أدوات معرفية تعمل على استجلاء الظواهر الاجتماعية وانعكاساتها المختلفة في أبهى تجلّياتها. وبناءً على هذه الوظيفة الاجتماعية نجدها على تماس مباشر بطبيعة كل مجتمع, بل تكاد تكون المرآة العاكسة له, حتى أطلق بعضهم على هذه الحالة «نظرية الانعكاس في الفن», وليس من الغريب أن نقول إن الفنان والأديب أصبحا بمثابة مهندس اجتماعي يقرأ خارطة الحياة الاجتماعية أولاً, ثم يحاول الغور في أعماق قضايا تلك الخارطة سعياً إلى كشف الهموم والمشاكل ومن ثم البحث عن الحلول, ونتيجة لهذه الرؤية الواقعية لكل من الفن والأدب رأينا أن قضايا مثل (الفقر والجهل والتخلف والطفولة والمرأة والبطالة) أخذت شيئاً فشيئاً تتصدر المشهد الثقافي, وتبعاً لهذه النتيجة فإن المجتمعات باتت تنتج فناً يشبه بيئتها وواقعها, لتظهر في مرحلة لاحقة مقولة (الفنون بنات بيئتها) والأمر نفسه ينطبق تماماً على النتاجات الأدبية, وهذا الربط بين البيئة والفن والأدب لا شكّ سيقودنا للسؤال عن النشأة الأولى للفنون, وعن الارتباط الوثيق بين الفن والإنسان وقدرته على الغوص إلى أعماق المجتمعات والبيئات المكانية والزمانية وظروفها الموضوعية, بحسب الشعوب التي تتراقص في أفلاكها تلك الفنون, أو تنشط في ميادينها تلك الآداب, أو تنمو في ربوعها تلك الثقافات, أو ربما من حيث الوظيفة الاجتماعية التي من المفترض أن تضطلع بها, ومن الجدير هنا أن نشير إلى أنه ثمة توافق وإجماع على أن جميع المجتمعات الإنسانية لا تخلو من فنون وثقافة خاصة بها, وهذا الأمر بشكل أو بآخر ينعكس على بناء الشخصية الإنسانية التي تتباين من مكان لآخر تبعاً للبيئة الثقافية التي بلورت تلك الشخصية, وهي التي تشكّل في نهاية المطاف جزءاً مهمّاً في تشكيل الهوية الإنسانية.

إن شغف النفس الإنسانية بالفنون ما هو إلا بحث عن شيء يرضيه أو يزرع في نفسه الطمأنينة والسكينة, أو بغية الحصول على صور للأشياء تكون أجمل مما هي عليها في الحقيقة والواقع من حوله, ومن الواضح أن الكثيرين ممن يُقبلون على ممارسة الفنون على مختلف أشكالها يلوذون إلى عالم الفنون عندما تقسو الحياة في وجوههم, فيلجؤون إليها لمحاولة نسيان أو تجاهل حقيقة ما, أو لتصويرها بشكل فني وتغليفها بأبعاد جديدة وتحميلها على قالب فني قادر على نقل تلك الصورة إلى الآخرين, سواء بشكلها الحقيقي الواقعي أو بشكل رمزي وضبابي يبعث على الرضا والطمأنينة أكثر من صورتها الحقيقية المؤلمة.

لكن من المهم التأكيد على أن تطور هذه الفنون وهذه الحضارة الإنسانية لم يأتِ دفعة واحدة, ولم يكن طفرة تاريخية, بل استغرقت العملية مئات الآلاف من السنين بحسب المصادر والأبحاث التاريخية, وهذا أمر معلوم لدى الجميع, والفضل يعود في ذلك إلى تجدّد الحاجات الإنسانية وانفتاح الأفق المعرفية.

٢ـ الثقافة والفنون أدوات لمحاكاة الواقع والغور إلى أعماق المجتمعات

تنبع خصوصية الثقافة من إمكانيتها تحريكَ مسار الأفراد وتوجيههم, وإعادة صياغة الحياة المادية والفكرية في المجتمع, وبلورة التكوين الإنساني بشكل تنويري بصفتها إرثاً بشرياً متوارثاً, ومن ثم إعادة إنتاج الأفق الفكرية والمعرفية, والسعي إلى الارتقاء بالقيم الأخلاقية للفرد والمجتمع معاً, والعمل على الارتقاء الفكري والعلمي والفني والأدبي مجتمعين, بحيث تصبح جميعاً أدوات وآليات يمكن من خلالها فتح الأبواب الموصدة والمنغلقة على ذاتها في المجتمع, والانغماس في حياة الناس وسبر القضايا الفردية التي تتراكم فيما بينهم فتتحوّل إلى مسائل ومشاكل اجتماعية, لأن الفرد نواة المجتمع, ومتى ما صلُح الفرد صلح المجتمع برمّته, والمجتمع السليم هو الذي يحتوي في داخله أفراداً سليمين قويمين أسوياء.

لقد ارتبطت الثقافة من جهة اعتبارها نتاجاً فكرياً وإبداعياً وإرثاً بشرياً مشتركاً, ارتبطت بمراحل تطور المجتمعات وانتقالها عبر قفزات تاريخية معروفة من العبودية إلى الإقطاعية فالرأسمالية والاشتراكية, وهذا الأمر أضفى شيئاً من المخاطر من ناحية الاستغلال والاستثمار في الثقافة, لأنه بحسب التصنيفات الطبقية وفق مراحل التطور والانتقال التي أتينا عليها, فإن فئات ضيقة كانت تتسيّد المشهد الثقافي وتتحكم به وتلوي ذراع الثقافة والعلوم والمعارف بحسب المصالح والأهواء, ولكن على الرغم من ذلك بقيت الثقافة في جوهرها مفهوماً علمياً ومعرفياً على طريق الحركة التنويرية والإبداعية, وبقيت كذلك تشتمل على القيم الفكرية والمادية في آن واحد, وتحتضن في كينونتها الفنون والمعتقدات والعلوم والمعارف والفلسفة والقوانين والآداب والأعراف والتقاليد.

إن مصطلح الثقافة بحدّ ذاته يمكن التعامل معه من ناحيتين: إذ يمكن تناوله كحالة فردية على أن الثقافة الفردية ترتبط بالعلم والمعرفة والانفتاح, ولكن الثقافة بالنسبة للمجتمع ترتبط بمجموعة من المميّزات الاجتماعية التي ربما تكون بعيداً عن كونها معرفية أو ذات دلالات علمية, فالثقافة المجتمعية بالدرجة الأولى هي تلك التي تستطيع أن تعكس هوية المجتمع, وأن تميّزه عن غيره, وهذا يتولّد من مجموع الممارسات والأفعال الفكرية والمادية والتقاليد والأعراف والقيم والمعتقدات والديانات, وعلى ذلك فإن أفعالاً مثل التسامح والاعتذار والتعاون, هي التي تضفي على المجتمع طابعاً معيناً.

لا يمكن اعتبار الثقافة بشكل مطلق مقياساً لتقدم الأمم وتحضّر المجتمعات, لأنه من الخطأ الفصل بين النهضة الثقافية والنهضة الأخلاقية, فما قيمة التنوير الثقافي في ظل الانحلال الأخلاقي, وما قيمة النهضة الثقافية مع التقهقر الاقتصادي, ثم أين هي القيمة الثقافية في مجتمع عاجز عن الإنتاج المعرفي والإبداعي؟ إن هذه المجالات بحاجة إلى التكامل فيما بينها حتى تعطي الوجه الناصع للثقافة في أمة أو مجتمع ما, لأن مظاهر الثقافة ليست وقفاً على المصطلح, بل هي انعكاس للفلسفة والدين والنظريات الفكرية والعلوم والتراث والأدب الشعبي والفن الشعبي, ومن هنا كان على الأديب المثقف والفنان المثقف أن يكون عالماً بخفايا الحياة الاجتماعية وقادراً على الولوج إليها, وهذا يتطلب من المثقف أن يكون على تماس مباشر مع هموم الناس وقضاياهم الأساسية, وأن يكسر الحواجز بينه وبينهم, وأن يجعل منهم مادته الرئيسة في الدراسة عن همومهم والبحث عن حلول لمشاكلهم.

”إننا نفكّر بصوت مرتفع حول وجود ثورة ثقافية عبر التاريخ، فإذا علمنا أن الثورة السياسية بمفهومها المعروف لدى الجميع أنها تعني القطيعة الكاملة لوضع سياسي قائم وإحلال وضع جديد بدلاً منه، فإن الثورة الثقافية ـ إن وجدت ـ ليست على تلك الصورة، إذ لا ينبغي لها أن تقوم على القطيعة، لأنه لا يصح قطع أوصال وسيرورة الحالة الثقافية المتوارثة، فالحالة الثقافية حالة تراكمية وليست وليدة جهة معينة“

٣ـ الثقافة الإنسانية أم الحضارة الإنسانية

يمكننا اعتبار الثقافة بالنسبة للأمم والمجتمعات عنوان هويتها, فالثقافة هي روح الأمة وهوية المجتمع, ولكل هوية جوهر وخصائص متفرّدة تميّزها عن الأخرى, وتنبثق عنها القيم العليا والمُثل السامية والأصالة الإنسانية, كما يُعتبر مفهوم الثقافة في علم الاجتماع من أكثر المفاهيم الجدلية بين علماء الاجتماع, وبناءً على ما تقدّم فإن آراء الدارسين والباحثين ليست واحدة من حيث النظر إلى الثقافة والحضارة الإنسانية بشكل مطلق وشامل, ففي حين يرى البعض منهم أن الحضارة الإنسانية ليست واحدة ثابتة, بل إن هناك حضارات مختلفة باختلاف الشعوب التي أنتجتها, وأن هذه الحضارات يمكن أن تتجانس أو تتصارع فيما بينها؛ فإن فريقاً آخر يرى عكس هذه النظرية, ويقول إن الحضارة الإنسانية هي واحدة راسخة باعتبارها نتاج الإنسانية جمعاء, في حين أن الثقافات متنوعة ومختلفة وقد تشكلت عبر تاريخها وسيرورتها الحياتية والمجتمعية, ولطالما كانت المساعي الإنسانية نحو مسالك الحياة وطرق العيش والرغبة في البقاء والتطور واحدة, فإن هذا من شأنه أن يرسم قيماً إنسانية متقاربة, وبالتالي فإن الحضارة الإنسانية هي حضارة واحدة, ولكن هناك ثقافات إنسانية متنوعة.

تتنوع الثقافات بالنظر إلى البيئات الاجتماعية التي تساهم في تكوين الإنسان الفرد, ولهذا لا نجد نُسخاً متشابهة تماماً بين الناس في بيئات مختلفة, لا نجد أن ميول الأفراد هي ذاتها مع اختلاف البيئة الجغرافية مثلاً, ففي المناطق الباردة يكون الميل إلى ممارسة الهوايات مختلفاً تماماً عن ميول أبناء المناطق ذات البيئات الحارة, ففي الوقت الذي يكون التزلج على الجليد وقضاء الأوقات الطويلة تحت الثلج سائداً في مكان, نرى الخروج إلى البراري لممارسة صيد الطيور الجارحة هواية ومهنة في مكان آخر, وهذا الأمر لا يتوقف عند حدّ ممارسة الهوايات التي تدخل في كماليات الحياة كما بدأنا في البداية, ولكن يتطور الموضوع ويدخل مجال الضرورات الحياتية مثل الصناعة والزراعة والتجارة, وهذا لا شكّ أنه يؤثر على بناء العلاقات الاجتماعية, فالعلاقات في المجتمعات الزراعية والرعوية مختلفة تماماً عن تلك التي تنشأ في المجتمعات الصناعية أو التجارية الصرفة, وهذا بدوره يؤدي إلى الاختلاف في تشكيل القيم الإنسانية وبناء السلوك, وتختلف نظرة أفراد المجتمع تبعاً لما تقدّم إلى القضايا والمسائل التراثية والقيم الاجتماعية القديمة المتوارثة, فيكون تمسك أبناء البيئة الزراعية والريفية أكثر بتلك القيم والعادات والتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد, في حين أن أفراد البيئات التجارية والصناعية الصرفة ونتيجة انشغالهم بالظروف الحياتية التي تفرضها عليهم طبيعة البيئة التي يعيشون فيها ويخضعون لها, يكون على مسافة أبعد من تلك القيم المتوارثة والقديمة, والسبب في ذلك عوامل كثيرة من أهمها العلاقات المادية وضيق الوقت وبرامج العمل وغيرها من الأمور التي تؤثر في سيرورة حياتهم واستمرارها بشكل مبرمج,

وقد يصل إلى شكل آلي يغدو فيه الإنسان مجرد آلة لأداء مهامّ معينة رُسمت له من قبل من يملك رأس المال ويدير الإنسان ويوجّه المجتمع.

هذه التراتبية التي توسّعنا فيها قليلاً ستؤدي في نهاية الطريق إلى ولادة أنماط مختلفة من الفنون والثقافات, وينشأ عن ذلك علاقة جدلية بين المجتمعات والفنون والثقافات المنبثقة عنها, فهل كان المجتمع نتاج تلك الثقافة أم أن ثقافة معينة هي التي أنتجت ذلك المجتمع, ومن ثم يغدو طريق الفنون والثقافة شائكاً للغور إلى العمق المجتمعي الصافي النقي, وتصبح المحاكاة عملية أشبه بالمعقدة.

٤ـ كيف يمكن للفنون والثقافات أن تكون من ضرورات الحياة الإنسانية

عندما يتم النظر إلى الموادّ الفنية على أنها من مكمّلات الجوانب الأخلاقية, ومصاحبة للقيم الإنسانية النبيلة, ورديفاً لبناء الشخصية الإنسانية السليمة والسوية إلى جانب المواد العلمية والأدبية في المنابر التعليمية بدءاً من المراحل الأولى وحتى المرحلة الجامعية؛ حينها يمكننا الحديث عن اعتبار الفنون من الضرورات وليس الكماليات.

عندما ينظر المجتمع إلى الفنان والأديب نظرة لا تقلّ عن نظرته إلى المهندس والمحامي والطبيب؛ حينها يمكن أن تصبح الموسيقا والمسرح والشعر مسائل حياتية ضرورية.

حين يرتفع الوعي الاجتماعي إلى مستوى إدراك أن الفنون يمكنها أن تقود الإنسان في لا وعيه وتتحكم به, وأن توجّه السلوك الإنساني إلى الفطرة البدائية السليمة, حينها لا بدّ أن تأخذ الفنون مكانتها في مصافي الحياة الاجتماعية, أسوة بباقي مجالات ومناحي الحياة, ولكن في المقابل يجب ألاّ نغفل عن الدور الحقيقي والإيجابي للمثقف, فليس مقبولاً منه أن يغلق على نفسه جميع الأبواب, ثم يفتح لنفسه زاوية صغيرة لتوجيه النقد فقط, وإذا ما أنتج نتاجاً فنياً أو أدبياً, أن يكون على دراية ويقين بالقضايا الاجتماعية الضرورية والملحّة, وليس اللجوء إلى برج عاجيّ ينظر من أعلاه إلى الإنسانية وهي تحترق دون أن يتخذ موقفاً مما يرى.

هناك أمور حياتية واجتماعية لا يمكن للمرء أن يدركها وأن يستوعبها عن قرب إلا إذا أتينا بالنقيض المعاكس للفكرة بشكل فجّ ومباشر, فمثلاً الطريق مخصص لسير السيارات والأرصفة مخصصة للمشاة, ولكن الكثير من الناس يمشون في الشارع وهو المكان المخصص للسيارات ويتركون المكان المخصص لهم, ولا يبدو هذا الأمر مثيراً للانتباه, أو لنقل خارج المألوف, ولكن ماذا لو أن سيارة أخذت بالسير على الرصيف تاركة مسارها المخصص لها, ماذا ستكون ردود الفعل وقتها من كل من يرى ذلك المشهد؟ أليس الأمر هو نفسه عندما يترك الناس السير على الرصيف ويأخذون بالمشي في المسار المخصص للسيارة نفسها؟ إذاً فلماذا هذا الاستغراب وهذه الدهشة في هذه الحالة المعكوسة؟ الأمر متعلق هنا بعنصر الصدمة والمفاجأة, فإذا كانت الثقافة المجتمعية ترفض هكذا سلوك فإنه ينبغي أن تكون تلك الثقافة إحدى أهم ضرورات الحياة, لا مجرّد مسألة ترفيهية كمالية.

٥ـ دور النخبة المثقفة في قراءة المجتمع ومحاكاته والغور إلى تفاصيله

ترتبط الثقافة ارتباطاً وثيقاً بالمعرفة, وبالتالي فإن إطلاق تسمية أو صفة المثقف ترتبط هي الأخرى بالكمّ والمخزون المعرفي للأشخاص, وعلى هذا فإن جميع من يعملون في الحقل المعرفي مثل الكتّاب والفنانين والشعراء يُعتبرون من الطبقة المثقفة, ولكن يتوقف دور الطبقة المثقفة والنخبة الفنية في هذه المضمار على مستوى انخراطهم في المجتمع, ومدى قدرتهم على التفاعل مع همومه وقضاياه, وقربهم الحقيقي من تلك القضايا, واعتبار نفسه جزءاً مما حوله وفرداً في بيئة تجمعه مع بقية أفراده متواضعاً منسجماً, لا فوقياً متعالياً, وهذه

الصفة "المثقف" تكسب صاحبها احتراماً في مجتمعه, ولكن لا ينبغي أن يكون هذا الاحترام مجاناً, لأن الطبقة المثقفة الواعية عليها أن تتحمّل مسؤوليتها عن المساهمة في الثقافة العامة للمجتمع, وأن تحمل على عاتقها الهموم والقضايا الاجتماعية والمعيشية والسياسية والدينية والتعليمية للناس, وفي هذا الحقل يشير الناقد المصري "محمد مندور" إلى أن الأديب الملتزم لم يعد مقبولاً منه أن يقف على الحياد تجاه قضايا الإنسان والمجتمع, لأن المجتمع ينظر إلى المثقف كمدافع عنه وحامل لقضاياه.

«نجيب محفوظ» وانغماسه في قضايا مجتمعه مثال على هذه النخبة, فمحور كتاباته الأدبية هو بيئة المدينة المصرية التي عاش فيها, وبيئة الريف المصري الذي لامس همومه وقضاياه, فكان من الطبيعي أن تلقى نتاجاته الأدبية كل ذلك الصدى والبعد, فهو يحاكي الفرد في آلامه وأوجاعه وأحلامه وآماله, ثم ينطلق من الفرد إلى تقديم صورة أوسع عن المجتمع المصغّر الذي ينمو فيه هؤلاء الأفراد, وكيف أن تلك البيئة ساهمت في تكوين تلك الشخصيات, ثم كيف عملت الظروف الواقعية على تربيتهم نفسياً وثقافياً.

والكاتب الروسي "فيودور دوستوفيسكي» في رواية (المقامر) نجده يرمي بالمقامرة على مقصلة الفكر والأدب الاجتماعي بعد أن غدت تلك العادة آفة اجتماعية, حيث تدور أحداث هذا العمل الأدبي في أفلاك متعددة من كاتب فيلسوف, منها محاربة الفجوة الطبقية التي حدثت في بنية المجتمع الروسي آنذاك, وما نتج عن ذلك من التفكك الأسري والمجتمعي وهبوط في القيم الاجتماعية, ويتطرق أيضاً إلى نبذ الأفكار الأجنبية الغريبة التي بدأت تتسرب إلى المجتمع الروسي. يقدّم الكاتب من خلال بطل روايته وهو المدرّس الفقير مادياً, مثالاً عن الصراع النفسي الداخلي بين الشخص وذاته, وهو الإنسان المتعلم الراقي المقبول في مجتمعه والحاصل على شهادة دراسية, ولكن فقر الحال قد نال منه, فيدفعه واقعه المزري هذا إلى امتهان القمار والدخول في عالم المقامرة.

> **"من الضروري تقديم الحالة الثقافية والفنية في مجتمع أو بلد ما، وخاصة من قبل المتخصصين، على أنها ليست من محرمات الدين وليست كذلك من محظورات القيم الاجتماعية، وبالقدر نفسه ليست حالة أرستقراطية محصورة في طبقة اجتماعية بذاتها، وإلى جانب هذا ينبغي الاطمئنان إلى أن تطور الحالات الثقافية والفنية والأدبية في مجتمع ما هي في النهاية إلا أدوات إضافية نحو تقدّم المجتمعات"**

لا يمكن على الإطلاق تجاهل أو تناسي دور الثقافة والمثقفين في بناء الوعي الجمعي والقيام بالدور التنويري, ولكن في الوقت نفسه لا ينبغي تحميل المثقف أكثر مما يحتمل, لأنه في النهاية أحد أفراد المجتمع, والجهود الرامية إلى التطوير والتنوير ينبغي أن تكون جهوداً جماعية لا فردية, ثم إن المثقف هو أحد أفراد المجتمع, وهو نفسه قد يعاني ما يعانيه كل فرد في بيئته الاجتماعية, وهذا يفتح الآفاق للعمل في إطار الجمعيات والمنتديات الثقافية والتركيز على العمل الجماعي إلى جانب الجهود الفردية.

٦ـ الثقافة ما بين الاستقلالية والتحولات السياسية والاقتصادية

تعيش البشرية في حاضرها كما في ماضيها أزمة في مفهوم الاستقلالية, ففي الوقت الذي تنشط فيه الحركات السياسية والنظريات الاقتصادية والرؤى والأفكار الثقافية, فإن مسألة الارتباطات والأجندات تفرض نفسها في كل ميدان, بحيث

لا يمكن الحديث بشكل مطلق عن شيء اسمه الاستقلالية الكاملة والحيادية المطلقة, إذ لا يمكن التوصل إلى إعلام مستقل بشكل كامل, أو مثقف محايد بشكل كلي, أو أدب مستقل بنسبة تامة, لأنه من الناحية الشخصية للأديب الملتزم فإنه يرى في نفسه مسؤولاً أمام الجماهير وقضاياه المصيرية, في حين أن المثقف الثوري هو الآخر يرى في نفسه المدافع عن القيم والقضايا الجماهيرية والإنسانية بشكل عام في مواجهة أنظمة سياسية متسلطة, ونظريات اقتصادية مجحفة, لذا نراه في سعي دائم إلى مناهضة تلك الممارسات التي تتنافى مع القيم الثقافة الثورية التي ترمي إلى تحقيق العدالة وترسيخ المساواة, والأمر نفسه ينطبق تماماً على الفنان الملتزم, الذي يكرّس نتاجاته الفنية في خدمة النهوض بمصير الإنسان والدفع بقضاياه الجوهرية إلى الأمام في وجه المظالم والآلام التي تحيط به جرّاء سيطرة قوى الهيمنة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

هذا الأمر يدفعنا إلى أن نتساءل وأن نفكر بصوت مرتفع حول وجود ثورة ثقافية عبر التاريخ, فإذا علمنا أن الثورة السياسية بمفهومها المعروف لدى الجميع, تمثّل القطيعة الكاملة لوضع سياسي قائم وإحلال وضع جديد بدلاً منه, فإن الثورة الثقافية ـ إن وُجدت ـ ليست على تلك الصورة, إذ لا ينبغي لها أن تقوم على اعتماد القطيعة, لأنه لا يصحّ قطع أوصال وسيرورة الحالة الثقافية المتوارثة, فالحالة الثقافية حالة تراكمية وليست وليدة جهة معينة أو فريق محدد من الناس كما هي الحال في الثورات السياسية أو الاقتصادية, لذلك فإن الحالة الثقافية تشكل أرضية أو إصلاحاً تحتياً, ومن هنا فإن كل حالة سياسية أو اقتصادية جديدة تريد أن تُظهر نفسها إلى الوجود, لا بدّ لها من الاستناد إلى الحالة الثقافية بصفتها النواة والأرضية لولادة كل جديد, بمعنى أن الإصلاحات السياسية لا يمكن أن تتكلل بالنجاح ما لم يكن هناك تأسيس لإصلاحات ثقافية أفقية بين الفئات الاجتماعية كافة.

حين تسعى المجتمعات إلى التحرر وإلى التغيير السياسي في بنية الدولة وفي القيم والمبادئ السياسية والمنطلقات الفكرية والنظرية السائدة التي تشكّل البنية الفوقية في المجتمع, وفي محاولة سعيها إلى إطلاق الحريات العامة وتحرير المرأة وتحقيق تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية, فإنها تصطدم بأنواع مختلفة من العراقيل والمقاومة, منها:

ـ مقاومة أصحاب النفوذ والتسلط والمصالح, وهي الفئة المستفيدة من الوضع القديم السائد, لأنهم يخشون أن يجرّدهم الوضع الجديد من امتيازاتهم تلك التي يجنونها على حساب المجتمع بمختلف شرائحه, وفي الأدبيات السياسية يُطلق على هذه الفئة «مراكز مقاومة التغيير».

ـ الفئة الثانية هي التي تمثّل المقاومة الثقافية التي تنبع من المجتمع ذاته, ولكن هذه مقاومة مبطّنة بدوافع سياسية, تدفع بها الزعامات السياسية لعرقلة المشروع الثقافي الجديد الذي يرون فيه تهديداً للخارطة الثقافية التي رُسمت بأقلامهم خدمةً لمشروعهم السياسي.

”آراء الدارسين والباحثين ليست واحدة من حيث النظر إلى الثقافة والحضارة الإنسانية، ففي حين يرى البعض منهم أن الحضارة الإنسانية ليست واحدة، بل إن هناك حضارات مختلفة باختلاف الشعوب التي أنتجتها، وأن هذه الحضارات يمكن أن تتجانس أو تتصارع فيما بينها؛ فإن فريقاً آخر يرى عكس هذه النظرية، ويقول إن الحضارة الإنسانية هي واحدة راسخة باعتبارها نتاج الإنسانية جمعاء، لكن الثقافات متنوعة ومختلفة.“

في هذه الحالة تبرز فكرة إمكانية استقلالية الثقافة وحيادية المثقف أمام الواقع السياسي والاقتصادي القائم, ومدى انخراط الثقافة في مجال العمل على التغيير لصالح المجتمع.

خاتمة

من الواضح أن الثقافة تساهم بشكل فاعل في توجيه أفكار وسلوك الشعوب سلباً كان ذلك التوجيه أم إيجاباً, ومن المفروض أن يكون هذا التأثير إيجابياً من حيث المبدأ والنتائج, إلا إذا تم تحريف المقصود من الثقافة نفسها وتم إخراج المقاصد المرجوّة منها من مسارها السليم والمنطقي, وهذا يتوقف بشكل حاسم على نوع وطبيعة الثقافة السائدة في الوسط الاجتماعي, لكن الثابت هو أن الفنون والثقافة تلعب دوراً إيجابياً في التنمية البشرية والدفع بها قدماً إلى الأمام, والسير بها نحو نوافذ الإبداع ومسالك التميّز والرخاء الفكري والغنى الحضاري, بالطبع كل هذا بفضل إضفائها طابعاً مرناً ومفهوماً حضارياً وراقياً على السلوك الفردي والجماعي معاً, ومن الضروري هنا أن تلعب المؤسسات الفكرية ومراكز الأبحاث والدراسات ودور النشر دوراً ملفتاً وبنّاءً في هذا الميدان.

ليس من الغريب أن الحديث في الفنون والثقافات يطرح على الدوام تساؤلات عن قيمتها الجمالية ووظيفتها الاجتماعية, وهل بالفعل يمكن اعتبار الحواس الإنسانية الخمس صاحبة الاختصاص, بمعنى أن يكون البصر صاحب القدرة في الحكم على جمالية الفن التشكيلي, وأن يكون السمع هو الآخر من يمتلك مفاتيح الحكم على الذوق والارتقاء الموسيقي؟.

ما من شكّ كذلك في أن موضوعاً مثل هذا يتطلب طاقة روحية فوق الطاقة الحسية, وبناء على هذا يمكن القول إن جميع البشر بإمكانهم أن يتذوقوا الفنون ولكن بدرجات متفاوتة تبعاً لمستوياتهم المعرفية والفكرية, وأيضاً بالنظر إلى ميولهم ورغباتهم, وهذا ما يجعل بعض الأشخاص يمرّون على الأعمال الفنية بشكل عابر ولا يتذوّقونها, بينما هناك فئات من الناس يقرؤون في العمل الإبداعي ما لم يستطع غيرهم قراءته, ويستكشفون ما لم يقدر الآخرون رؤيته وسماعه, فالبصيرة غير متوقفة على المشاهدات الحسية فحسب.

ولا ننسى من جانب آخر أنه ثمة اختلاف كبير ما بين ممارسة العمل الفني بشكل عملي وبين الدراسات الفنية النظرية التي تستند إلى التاريخ, وكذلك الأمر بين الدراسات الاجتماعية التي تتمحور حول الدور الاجتماعي والإنساني المنوط بالثقافات والفنون, وما المطلوب من الفنان والمثقف.

المراجع

.الفنون في الشرق الأوسط: مجلة الشرق الأوسط الديمقراطي .العدد 53

.مقالة «دور الثقافة في تطوير المجتمع وتوجيهه» .ساجدة عبد الحليم

.فنون الشرق الأوسط والعالم القديم: د. نعمت إسماعيل علام

. فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية: د. نعمت إسماعيل علّام

دور الشباب في التغيير السياسي والاجتماعي والحد من العادات والتقاليد البعيدة عن المنطق العام وقضايا الانتماء والولاء والهوية الوطنية

أحمد زردشت

الشباب والسياسة

أمست ظاهرة الاهتمام بالشباب ظاهرة محلية وإقليمية وعالمية لاعتبار الشباب شركاء صناعة الحاضر وكل المستقبل ولهم دورٍ بارز ومميز في دعم مسيرة المجتمع، وتفعيل العملية التنموية الشاملة لاعتبارات بشرية وتنموية وسياسية وغيرها.

ومع أن التفكير في قضايا الشباب، ومشكلاتهم واهتماماتهم، وتوجهات ومحاولات إيجاد الحلول الملائمة على الأقل محاولات قديمة، إلا أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد تزايداً ملحوظاً بالاهتمام بهذه المسألة من قِبل العديد من المختصين كعلماء الاجتماع والنفس والتربية ورجالات الخدمة الاجتماعية وكل المهتمين بالقطاع الشبابي، إلى الحد الذي أدّى إلى ظهور ما يسمى بثقافة الشباب كثقافة فرعية متميزة، والتي تشير إلى وجود فكر وقيم واتجاهات وعادات تميزهم عن سائر الفئات الأخرى.

وسنعرج في أدناه بشيء من التفصيل عن مشاركة الشباب في الحياة السياسية

• مفهوم المشاركة السياسية

تعرّف المشاركة السياسية على أنها ((تلك المجموعة من الممارسات التي يقوم بها المواطنون، أو بها يضغطون بغية الاشتراك في صنع وتنفيذ ومراقبة وتقييم القرار السياسي اشتراكاً خالياً من الضغط الذي قد تمارسه السلطة عليهم)) وهذا يعني أن للمواطن حقاً ودوراً يمارسه في عملية صنع القرارات، ومراقبة تنفيذها، وتقويمها بعد صدورها. فهي إذن مساهمة الفرد في أحد الأنشطة السياسية التي تؤثر في عملية صنع القرار و/أو اتخاذه، والتي تشمل التعبير عن رأي في قضية عامة، والعضوية الحزبية، والانضمام لمؤسسة من مؤسسات المجتمع المدني أو التعاون معها، والترشيح في الانتخابات، وتولى أي من المناصب التنفيذية والتشريعية.

والمشاركة السياسية في أي مجتمع هي محصلة نهائية لجملة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والمعرفية والثقافية والسياسية والأخلاقية؛ تتضافر في تحديد بنية المجتمع المعني ونظامه السياسي وسماتهما وآليات اشتغالهما، وتحدد نمط العلاقات الاجتماعية والسياسية ومدى توافقها مع مبدأ المشاركة الذي بات معلماً رئيسياً من معالم المجتمعات المدنية الحديثة، المجتمعات التي أعاد العمل الصناعي وتقدم العلوم والتقانة والمعرفة الموضوعية والثقافة الحديثة بناء حياتها العامة وعلاقاتها الداخلية، على أساس العمل الخلاق، والمبادرة الحرة، والمنفعة والجدوى والإنجاز، وحكم القانون، في إطار دولة وطنية حديثة، دولة الحق والقانون والمؤسسات.

مراحل المشاركة السياسية:ـ

• الاهتمام السياسي.

ويندرج هذا الاهتمام من مجرد الاهتمام أو متابعة الاهتمام بالقضايا العامة وعلى فترات مختلفة قد تطول أو تقصر، بالإضافة إلى متابعة الأحداث السياسية. حيث يميل بعض الأفراد إلى الاشتراك في المناقشات السياسية مع أفراد عائلاتهم أو بين زملائهم في العمل، وتزداد وقت الأزمات أو في أثناء الحملات الانتخابية.

• المعرفة السياسية

والمقصود هنا هو المعرفة بالشخصيات ذات الدور السياسي في المجتمع على المستوى المحلي أو الوطني مثل أعضاء المجلس المحلي وأعضاء المجلس التشريعي بالدائرة والشخصيات المسؤولة كالوزراء.

• المشاركة الانتخابية

ويتمثل في المشاركة في الحملات الانتخابية بالدعم والمساندة المادية من خلال تمويل الحملات ومساعدة المرشحين أو بالمشاركة بالتصويت وتقديم الشكاوى والاشتراك في الأحزاب والمنظمات.

الشباب والأحزاب السياسية

تتسم العلاقة بين الشباب والأحزاب السياسية في العديد من البلدان بالتوتر. وهناك فجوة واسعة بين الأحزاب والشباب.

فالأحزاب السياسية هي الجهة الرئيسية التي تسيطر على تحديد المرشحين للانتخابات في العديد من البلدان وكذلك تحديد سن الترشيح للمجالس المحلية والبرلمانية وكذلك هم من يرشح الشخصيات للمناصب العليا. وبالتالي فهي تؤثر بقوة على جدول العمل السياسي وعلى صناعة القرارات. وتعمل أيضًا كمؤسسات وسيطة تربط بين الدولة والمجتمع المدني، وتترجم التوجهات السياسية للمواطنين إلى عمل سياسي. ومن المرجح أن يسعى الأفراد الذين لديهم طموح سياسي إلى الوصول إلى مناصب قيادية في الأحزاب السياسية. ومعظمهم يكونوا رجالاً في منتصف أعمارهم.

أسباب عزوف الشباب عن السياسة والانخراط في الاحزاب:

تذكر بعض المنظمات من واقع الدراسات الميدانية التي يشير فيها الشباب أنفسهم إلى مجموعة من العوامل التي تحد من مشاركتهم السياسية، والتي يمكن بلورتها واجمالها بالنقاط التالية.

1. غياب التمثيل السياسي للشباب لغياب الديمقراطية داخل أغلب الأحزاب.
2. غياب برامج حزبية واضحة المعالم تميّز حزباً عن آخر، تحفّز وتعطي اهتمام لشريحة الشباب.
3. ضعف أو انعدام منح الشباب الفرصة داخل الأحزاب السياسية للترشح للانتخابات التشريعية والمحلية.
4. شعور الشباب بعجزه في المشاركة والتأثير في القرارات والقوانين التي تنظم كيفية مباشرة حقوقه في المعيشة والحياة والسياسة.
5. افتقار البرامج السياسية للأحزاب إلى الاهتمام بشريحة الشباب وتحقيق تطلعاتهم.
6. وجود الأمية والفقر وخاصة بين الشباب يلعبان دورين أساسيين في إحجامهم عن المشاركة في الحياة السياسية حيث لا يتحقق الإشباع للحاجات الأساسية للشباب مثل إيجاد فرص عمل مناسبة والزواج وبناء حياته المستقلة بما يؤثر سلباً على قيام الشباب بالأعمال التطوعية بداية وانتهاءً بالمشاركة السياسية.
7. ضعف الثقافة الديمقراطية لدى الشباب ووجود فجوة بين المعرفة السياسية والمشاركة السياسية.
8. عوامل تتعلق بالثقافة الشبابية بفقدان الثقة في أهمية المشاركة السياسية

"هشاشة المؤسسات السياسية وضعف فاعليتها: فالشباب هم عصب أي مؤسسة سياسية ومكمن قوتها ومنبع التجديد فيها على صعيد الكوادر والأفكار، وكلما قلت المشاركة الفعالة والعضوية الجادة للشباب في المؤسسات السياسية، قلت حيوية هذه المؤسسات وقوتها وقدرتها على التأثير في المجتمع. وبدون مشاركة فاعلة من جانب الشباب تصبح هذه المؤسسات هزيلة وضعيفة وغير مؤثرة"

للفرد والمجتمع. وهناك شعور بعدم جدية الإصلاح السياسي ونزاهة الانتخابات وجدوى المشاركة.

9. ضعف الوعي السياسي والاجتماعي وغياب التنشئة الاجتماعية السليمة التي تحث الشباب على المشاركة الايجابية، بل وخوف معظم الأُسر من السياسة ومعارضتها لاهتمام الأبناء بالسياسة، ولأي شكل من أشكال المشاركة السياسية.

10. عدم وجود معاهد متخصصة في الديمقراطية تقوم بتثقيف الطلبة والجمهور كما في كثير من البلدان الديمقراطية.

11. افتقار القواعد الديمقراطية السليمة في تشكيل وإدارة الأحزاب والمنظمات والاتحادات الطلابية في المدارس والجامعات، مما لا يتيح للنشء الجديد والشباب فرصة التدريب السياسي والتنشئة السياسية الفعالة.

12. وجود فجوة كبيرة بين الأجيال وسيطرة جيل من كبار السن على قيادة الأحزاب والمؤسسات المهمة، وعدم إتاحة الفرصة للشباب للمشاركة الفعالة داخلها، مما أعطى شعوراً باليأس.

تداعيات ضعف المشاركة السياسية للشباب:

تؤدي محدودية المشاركة السياسية للشباب إلى أثار سلبية مستقبلية عدة على الشباب أنفسهم، وعلى المجتمع والحياة السياسية بصفة عامة، أهمها:

• شيوع الإحساس بالاغتراب بين الشباب:

من الملاحظ ازدياد ظاهرة الغربة داخل الوطن وشيوع الإحساس باللامبالاة بين الشباب، وعدم اكتراث الشباب بما يجرى حوله من تطورات طالما أنه عاجز عن التأثير فيها ولهذه دلالات خطيرة على التماسك المجتمعي وفرص التنمية الشاملة في معظم دولنا.

• التمرد والتطرف:

رغم عدم توافر بيانات عن حوادث العنف السياسي والديني في مجتمعاتنا، وتوزيعها حسب الأعمار المختلفة، إلا إنه من الثابت إن شرائح الشباب التي تعاني البطالة ويكتنفها الإحباط واليأس والاغتراب هي الفئة الأكثر ميلاً للانخراط في العنف والتمرد على الدولة.

• جنوح أعداد متزايدة من الشباب إلى سلوكيات سلبية:

منها تعاطى المخدرات، العنف، السلوكيات المنحرفة،... وغيرها من السلوكيات التي تؤثر بشكل واضح ليس فقط على مستقبل الشباب واندماجهم الطبيعي والفاعل في المجتمع بل وعلى مستقبل الدولة ككل.

• هشاشة المؤسسات السياسية وضعف فاعليتها:

فالشباب هم عصب أي مؤسسة سياسية ومكمن قوتها ومنبع التجديد فيها على صعيد الكوادر والأفكار، وكلما قلت المشاركة الفعالة والعضوية الجادة للشباب في المؤسسات السياسية، قلت حيوية هذه المؤسسات وقوتها وقدرتها على التأثير في المجتمع. وبدون مشاركة فاعلة من جانب الشباب تصبح هذه المؤسسات هزيلة وضعيفة وغير مؤثرة.

• ضعف النظام الحزبي في احتضان الشباب أحد العوامل الأساسية لضعف النظام الحزبي ومحدودية فعالية الأحزاب السياسية هو عدم تمتعها بقاعدة شبابية تكفل لها قدرة تنافسية عالية وتعمل على نشر مبادئها وجذب التأييد لها ولرموزها، وتمثل كوادر فاعلة تكفل لها الاستمرارية

في المستقبل.

أهم أدوار مشاركة الشباب:-

- المشاركة بعملية الانتخابات حيث تعتبر أصوات الشباب حاسمة، وتشكل جزء كبير لا يتجزأ من الأصوات الشاملة.
- المشاركة بقضايا الرأي العام والمناصرة كقضايا حقوق المرأة والطفل، ومناصرة الفئات المهمشة في الحصول على حقوقها.
- التطوع في مؤسسات المجتمع المحلي، يساهم في إضافة عدد الأيدي العاملة وزيادة الإنتاج والفائدة.
- القيام بالأنشطة التعاونية، كالقيام بإنتاج فيلم وثائقي يتناول موضوع معين يتعاون على إنتاجه مجموعة من الشباب كل منهم ذو تخصص معين.
- القيام بمؤتمرات علمية وورشات عمل ونقاشات من شأنها توسيع المعرفة، وتحفيز العقل، لاستقبال إنتاجات فكرية جديدة.
- التخطيط للبيئة المحلية وكيفية الحفاظ عليها، كالرسم المتقن لأماكن المنتزهات العامة، وأماكن الترفيه والرياضة والتعليم.
- المساهمة في جمع التمويلات والتبرعات للمؤسسات ذات الإمكانات المحدودة، والتي ميزانياتها محدودة فتهدد وقف أنشطتها.
- تعزيز الجانب الاجتماعي بتبادل الزيارات، كزيارة الجيران والمرضى وتبادل الأفراح والأتراح.
- تعزيز الجانب الثقافي بعمل المبادرات للتعريف بالثقافات المتنوعة، وتبادلها وابتعاث الشباب لبلدان أُخرى.
- الحفاظ على هوية الوطن وإبراز تاريخه، من خلال استدعاء البطولات الماضية وتمثيلها في الحاضر.
- المساهمة والعمل في الدفاع عن الوطن وحمايته، حيث يكون الشباب أول من يقدمون أنفسهم فداءً للوطن، ويرخصون له كل غالي ونفيس.
- نشر الوعي الصحي من خلال الأنشطة والفعاليات التي تعطي معلومات حول الأمراض الخطيرة والموسمية وأسبابها وكيفية الحماية والوقاية منها مع إرشادات ونصائح توجيهية.
- يلعب الشباب دور هام في السياسة والعملية السياسية، حيث يختارون نظام الحكم، والرئيس وكل مسؤول بأي منطقة؛ لأنّ صوتهم قوي.

"إن اندماج الشباب في مسيرة الإصلاح السياسي مهم جداً وضروري في الوقت عينه وذلك لأنه كما ذكرنا فالشباب يشكلون ثروة وطاقة بشرية لكل بلد. والإيمان بقدرة الشباب في المساهمة بالزحف نحو مستقبل زاهر اقتصادياً ومستقر سياسياً يعتبر أساساً للعدالة الاجتماعية. فالمشاركة السياسية للشباب هي عنصر من عناصر الديمقراطية لذلك يجب خلق فرص وبرامج تهتم بهم. ويتوجب على الأحزاب السياسية الأخذ بعين الاعتبار ما يمكن أن يساهم به الشباب في السياسة"

لذا فإن اندماج الشباب في مسيرة الإصلاح السياسي مهم جداً وضروري في الوقت عينه وذلك لأنه كما ذكرنا فالشباب يشكلون ثروة وطاقة بشرية لكل بلد. والإيمان بقدرة الشباب في المساهمة بالزحف نحو مستقبل زاهر اقتصادياً ومستقر سياسياً يعتبر أساساً للعدالة الاجتماعية. فالمشاركة السياسية للشباب هي عنصر من عناصر الديمقراطية لذلك يجب

”إن أهمية اللغة لا تعني تشكيل معاني الكلمات خارج إطار الواقع. تشكيل المفاهيم وتحديد المعاني يبدأ بالواقع أولاً ثم تمتلئ به الكلمات لاحقاً. وحينما يسمع أو يقرأ المتلقي هذه الكلمات يستدعي ذهنه كل الحمولات الدلالية المتعلقة بهذه الكلمة. إن الوصول إلى المشاعر وغرس المفاهيم المتعلقة بالوطن وتنميتها لا يمكن أن يكون عبر نقل المعلومات في مقررات التعليم، أو بترديد الأغاني الوطنية فقط“

خلق فرص وبرامج تهتم بهم. ويتوجب على الأحزاب السياسية الأخذ بعين الاعتبار ما يمكن أن يساهم به الشباب في السياسة.

تعزيز الحياة الاجتماعية

إن عدم تمكن الشباب من المشاركة الحقيقة في الحياة السياسية الرسمية قد يولد شعوراً لدى الشباب بالعجز والإحباط حيث يفقد الشباب ثقتهم بالسياسيين الموجودين ويتنامى الاعتقاد بأن أصواتهم لن تسمع ولن تؤخذ على محمل الجد مما يتسبب باستبعاد الشباب بشكل متزايد من المشاركة في عملية صنع القرار والمناقشات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. تنعكس الحياة السياسية بشكل مباشر على العديد من الجوانب الحياتية اليومية وبالتالي فإن مشاركة الشباب في الحياة السياسية يؤدي بطريقة ما إلى مشاركتهم في العديد من الأعمال الاجتماعية كالمشاركة في تقديم الخدمات الصحية والتعليمية والأعمال الخيرية المختلفة مما يعزز من شعورهم بالمواطنة الحقيقية.

تعزيز مشاعر الانتماء

تُساعد مشاركة الشباب الحقيقية في الحياة السياسية في تطوير علاقة الشباب بالمسؤولين الحكوميين والسياسيين القدامى الأمر الذي يساهم في تنمية مهارتهم وخبراتهم السياسية مما يساعدهم في قيادة التغيير الإيجابي في مجتمعاتهم. ويعزز هذا الأمر من فرص التنمية والنهوض بالبلد الأمر الذي يعمل على إكسابهم شعورًا أكبر بالانتماء. كما تُساعد مشاركة الشباب بالحياة السياسية على إحياء العديد من القيم الديمقراطية الهامة جداً حيث تعمل هذه القيم على تقويض الممارسات القمعية السائدة وتجنيب البلاد مخاطر عديدة في حين أن عدم مشاركة الشباب يزيد من شعور الشباب بالإحباط وزعزعة استقرار الديمقراطية وتسريع أسباب الصراع داخل الدولة.

لدى الشباب القدرة الكبيرة على التأثير في نتائج الانتخابات حيث يمثل الشباب قوة انتخابية كبيرة صامتة قادرة على إحداث الفرق في أي عملية انتخابية قادمة. لذا تتسابق العديد من الأحزاب السياسية على محاولة جذب الشباب والعمل على إشراكهم في تطوير البرامج الحزبية الخاصة بهم نظراً لقدرتهم الكبيرة في التأثير على الآخرين، وقدرتهم الفائقة في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة.

الشباب بين العادات والتقاليد وبين العصر الجديد

هناك نظرية في علم الاجتماع تقول «الإنسان كائن اجتماعي بطبيعته»، أي أنه يحب العيش في جماعات ومجتمع وسط عادات وتقاليد وموروث ثقافي. لم نسمع يوماً أن شخصا مفرداً أقام حضارة ما. ولكن جماعات من الناس هي من تشيد الحضارات ونتج عنها ثقافتها وعاداتها

الخاصة بها، منها ماهي عادات إيجابية ومنها ماهي عادات سلبية.

فما هي العادات والتقاليد؟

يقال أن أي شيء تفعله أكثر من ثلاث مرات يصبح عادة، والعادة هي الشيء المألوف الذي يفعله الإنسان بدون تفكير ولا يشعر بضيق أو تعب.

العادة تكونت من أفعال مستمرة لشي ما أو حدث ما، ويزخر مجتمعنا بالعديد من العادات والتقاليد منها ما هو غريب، ومنها ما هو طبيعي ومنها ما هو منافي للدين حتى، ومشكلتنا هي تقديس العادات والتقاليد.

العادات: هي موروث ثقافي اجتماعي يحاول المجتمع المحافظة عليها وعدم المساس بها، وهناك فرق جوهري بين العادة والفطرة؛ فالعادة هي شيء مكتسب نتيجة استمرارية ممارسة الأفعال نفسها حتى أصبحت عفوية ولا إرادية، وهناك دافع يدفعنا لممارستها، أما الفطرة هي شيء خارج عن إرادتنا شيء جُبلنا عليه مثل الغريزة الجنسية عند البشر، وغريزة ميلنا للجنس الآخر، وغريزة الأكل والشرب.

العادات والتقاليد هي نتائج أفعال متكررة حتى تصبح شيء من كيان الشخصية، ويجد بعضنا صعوبة في ترك بعض العادات وبعضها عادات مجتمعية تربينا عليها وتستمد قوتها من خوف المجتمع كله من التغيير، وينظرون لأي شخص يرفض بعض عادات المجتمع أنه غريب وغير طبيعي.

لذلك يحاول الآباء زراعة العادات والتقاليد في عقول أولادهم وكأنها جزء لا يتجزأ من هويتهم وشخصيتهم حتى يكبروا وهم متأقلمين معها لا ينفرون منها، فالمجتمع الشرقي من شدة اهتمامه بالعادات لا يرى الاختلاف والتنوع ميزة بل يراها خلاف ومشاكل.

نلاحظ في مجتمعاتنا تنوع عادات وثقافات، شيء جميل ورائع ولكن ثقافة «توريث العادات والتقاليد» مسيطرة على أفكار المجتمع، والمجتمع الذي يرفض الاختلاف والتنوع يحاول عمل نسخ متطابقة من أفراده مجتمع ضعيف وغير متماسك.

ويعيش الإنسان بين هذا وذلك لا يجرؤ على تغير شيء من عادات مجتمعة بل إن البعض يوصلها لدرجة التقديس، وبعض العادات قد تكون عائقا أمام التفكير والطموح.

فالخروج عن عادات المجتمع ليس سهلاً؛ بل يتطلب عزيمة قوية وإرادة لأن الشخص سوف يلاقي معارضة قوية من المجتمع، لأن المجتمع يميل إلى الاستقرار بما هو عليه ويخاف التغيير وعواقب التغيير. لذا على الجيل الشاب أن يتحمل هذه المسؤولية الكبيرة ذلك لما لديه من عزيمة وقوة وفهم لحالة التطور وادراكه إن الفرد، حينما يصبح عاجزا عن التصرف بفعالية، لأنه مجبر على اتباع عادة لا معنى لها، يكون أمام وضع يحتم عليه النظر في تلك القواعد والسلوكيات التي تصيبه بالإحباط والقلق، وذلك عندما تصبح حجر عثرة أمام السلوك السليم والفعال.

الانتماء الوطني عند الشباب

لا نستطيع أن نبدأ أي حديث حول حب الوطن أو المواطنة أو الشعور بالانتماء للوطن، قبل أن نتفق على تعريف محدد للوطن أولا. يقول الفيلسوف النمساوي فتغنشتاين: «إننا نسمي الأشياء ثم نستطيع الكلام عنها» علينا أن نعرف الصورة الذهنية التي تحدث في عقول أبنائنا أولا حين نتكلم معهم عن الوطن. والتصور أو الخيال المرئي من نوع ما والمرتبط بكلمة (الوطن).

تحرير المفاهيم

قال الخليل عن الوطن: « موطن الإنسان ومحله .. ويقال: أوطن فلان أرض كذا، أي: اتخذها محلاً ومسكناً يقيم بها ... والموطن: كل مكان قام به

”تستطيع الجامعات صناعة مفاهيم الولاء والانتماء الوطني وتحويل الولاء من محيط الطالب الجامعي المحدود إلى المحيط الاجتماعي الواسع. ويمكن تعزيز شعور الانتماء في التعليم الجامعي بالالتزام بمبادئ وقيم معلنة تتشارك فيها إدارة الجامعة مع الطلاب والطالبات والمجتمع المحلي وسوق العمل. إن قيام الجامعات بدورها بصورة واقعية منسجمة مع السياق العالمي. وطرح كل القضايا الوطنية بشفافية تامة يعزز الانتماء“

الإنسان لأمر». ويعرف رفاعة الطهطاوي الوطن في لغة أدبية فيقول: «عش الإنسان الذي فيه درج، ومنه خرج، ومجمع أسرته، ومقطع سرته، وهو البلد الذي نشأته تربته وغذاؤه وهواؤه، ورباه نسيمه وحلت عنه التمائم فيه».

الوطن المكان الذي يولد ويقيم فيه الإنسان مع جماعة من الناس يربطه بهم التاريخ والحدود الجغرافية والمصالح المشتركة والشعور بالانتماء إلى المكان أمر فطري؛ ولكن لا يدعم هذا الانتماء ويعززه إلا الشعور بأن هذا الكيان يحمي الإنسان. ويسهل عليه أمور حياته. ويكفل له حقوقه في مقابل ما يلزمه نحوه من واجبات. وتلك المزايا التي يتميز بها ويراها بشكل محسوس في كل مكان على أرض وطنه لا يمكن أن يمنحها له اي كيان آخر.

إن أهمية اللغة لا تعني تشكيل معاني الكلمات خارج إطار الواقع. تشكيل المفاهيم وتحديد المعاني يبدأ بالواقع أولاً ثم تمتلئ به الكلمات لاحقاً. وحينما يسمع أو يقرأ المتلقي هذه الكلمات يستدعي ذهنه كل الحمولات الدلالية المتعلقة بهذه الكلمة.

إن الوصول إلى المشاعر وغرس المفاهيم المتعلقة بالوطن وتنميتها لا يمكن أن يكون عبر نقل المعلومات في مقررات التعليم، أو بترديد الأغاني الوطنية فقط. غرس المفاهيم وتنمية المشاعر يكون بالسلوك والممارسات اليومية التي يراها الشباب كل يوم في حياتهم. في الشارع والمنزل والمدرسة والمستشفى والحديقة.

بناء الثقة

لا يمكن أن نحمي قيمنا ومبادئنا وأوطاننا إلا بالبناء والتأسيس. وبناء المفاهيم يتم بالمعرفة، والولاء يبنى بالثقة. والانتماء ينغرس وينمو بالرعاية وتعهد العناية والاستمرار بالاهتمام. فالوطن والوطنية والانتماء الوطني ينبغي ألا تكون مجرد ألفاظ أو شعارات نكررها أو نتغنى بها دون أن ترتبط دلالتها العميقة التي تتأصل بالحس في نفوس الناشئة قبل الشباب. وذلك دور التعليم.

إنّ الوطن الحقيقي له رؤية متماسكة وخطاب واضح يتمكن من بناء مفهوم متكامل المعالم لفكرة الوطن الذي يمثل رمز وحدة شعب يختلفون في أطيافهم وآرائهم، مع حفظ كل هذه الانتماءات تحت نظام واحد وعلى أرض واحدة. حين يتكون معنى الوطن في أذهاننا من هذه المكونات يستطيع الفرد أن يفهم الوطن في صورته المعاصرة ويحب نظامه السياسي مثلما يحب أرضه ويترجم ذلك الحب إلى ولاء.

انتماء وولاء

قد يختلف مفهوم الانتماء الوطني عن الولاء الوطني. فالانتماء الوطني حاجة نفسية اجتماعية أساسية عامة لدى الإنسان، تمثل المستوى الأعمق للولاء من الناحية السيكولوجية. والانتماء مفهوم أضيق في معناه من الولاء. والولاء الوطني جملة المشاعر

والأحاسيس والسلوكيات الإيجابية التي يحملها الفرد تجاه وطنه والتي تتجسد في الحب والمسؤولية والبذل والعطاء والتضحية من أجل نصرة الوطن ورفعته. والولاء في مفهومه الواسع يتضمن الانتماء فلن يحب الفرد الوطن ويعمل على نصرته والتضحية من أجله إلا إذا كان هناك ما يربطه به. أما الانتماء فلا يتضمن بالضرورة الولاء.

إنّ الشعور بالانتماء الوطني تحدده علاقة الفرد بفكرة الدولة بشكل رئيس. والهوية المدنية مصونة بالحقوق التي تسبغها الدولة، وبالواجبات التي يؤديها المواطنون. الذين هم أشخاص مستقلون ومتساوون في أوضاعهم. ولا يتعارض الانتماء الوطني مع الانتماءات المتعددة الأخرى للفرد مثل الانتماء للدين أو القبيلة أو الطائفة، بل إن الانتماء الوطني هو الذي يتكفل بحماية الانتماءات المختلفة في ظل نظام يحكم بالديمقراطية والعدل والمساواة

مفتاح التربية الوطنية

إن الانتماء الوطني يتعزّز حينما يكون النظام محكم البناء. حينما تقدم برامج تربوية وطنية تنمي في الفرد احترام هذا النظام و»مفتاح التربية الوطنية يكمن في التركيز على السلوك، ولا يصبح المواطنون صالحين بمجرد تلقيهم المعلومات فقط، بل يحتاج التلميذ إلى الانهماك الفعلي في العملية الوطنية وقد «أجرى داينسن «(Dynneson, ١٩٩٢) دراسة بعنوان "ماذا تعني المواطنة الفعالة عند الطلاب؟" وذلك في عام ١٩٨٧ في الولايات المتحدة الأمريكية. وأظهرت الدراسة أن أهم خصائص المواطنة الصالحة التي يجب التركيز عليها في تدريس التربية الوطنية هي: معرفة الأحداث الجارية، والمشاركة في شؤون المجتمع والمدرسة، وقبول المسؤولية التي يكلف بها الفرد، والاهتمام بشؤون الآخرين، والالتزام بالسلوك الحميد والأخلاق الجيدة، والتقبل للسلطة بناء على الشرعية والصلاحيات التي تخدم المجتمع،

والقدرة على مناقشة الأفكار والآراء، والقدرة على اتخاذ القرار الحكيم، ومعرفة الحكومة وأنظمتها ولوائحها، وإيجاد روح حب الوطن».

إضافة إلى ذلك تستطيع الجامعات صناعة مفاهيم الولاء والانتماء الوطني وتحويل الولاء من محيط الطالب الجامعي المحدود إلى المحيط الاجتماعي الواسع. ويمكن تعزيز شعور الانتماء في التعليم الجامعي بالالتزام بمبادئ وقيم معلنة تتشارك فيها إدارة الجامعة مع الطلاب والطالبات والمجتمع المحلي وسوق العمل. إن قيام الجامعات بدورها بصورة واقعية منسجمة مع السياق العالمي. وطرح كل القضايا الوطنية بشفافية تامة يعزز الانتماء، فتعزيز الانتماء لا يعني المثالية والتعالي عن الواقع. لا يمكن هدم المفاهيم الخاطئة أو المعوجة إلا من خلال بناء وإحلال مفاهيم وقيم قوية. فالهدم دون بناء حتى إن كان هدما لمفاهيم مغلوطة لا ينتج عنه إلا الفوضى والضياع.

دور العشيرة في الحفاظ على الإرث الاجتماعي

وليد بكر

ما هي العشيرة:

العشيرة اسم مؤنث مذكره عشير، يُجمع جمعاً سالماً على شكل «عشيرات» أو جمع تكسير «عشائر». يعود أصل كلمة العشيرة في المعاجم اللغوية إلى كلمة «العِشرة»، ويقصد بها «آل بيت الرجل»، وبالإنكليزية تدعى (CLAN) وتعني بأنها مجموعة من الناس تجمعهم قرابة ونسب فعلي أو متصور. ويقول الشيخ «سعيد العمو» في موقع "عشيرة الهنادزة": «العشيرة هي كلمة تعبّر عن العِشرة والمودة والإخاء والتراحم، وتتألف العشيرة من مجموعة أفراد تربطهم روابط كثيرة منها اللغة والدين والدم، أي مرجعهم إلى نسب جدّ واحد، والعشيرة هي أقل من القبيلة من حيث تعدادها وقوتها..

وكل مجموعة عشائر متحدة تسمى قبيلة، ولا تسمى عشيرة ما لم تكن أكثر من ثلاثة أفخاذ، يتزعم العشيرة شيخ عام العشيرة وعلى رؤساء الأفخاذ. أما القبيلة فتكون من ثلاث عشائر فما فوق يتزعمها "شيخ مشايخ القبيلة"، يقود ويتزعم العشيرة أحد أفرادها ومن صلبها تربطه رابطة الدم مع العشيرة، مشهودٌ له بالكرم والشجاعة والعدل والورع، وأفصحهم لساناً وأكبرهم سناً يسمى "شيخ العشيرة"، ومن خصائص شيخ العشيرة والعشيرة أن تتصف بالكرم والشجاعة والفروسية وحماية الدخيل والنزيل، العفو عند المقدرة، والتسامح وإكرام الضيف). تقول القصيدة في وصف رئيس العشيرة:

- اجلس مع اللي راسو شايب واللي تجاعيد الزمن في جفونه
- يعطيك من خبرة حياته وماضيه درس، كثير من البشر يجهلونه

فقد يتم تجمع أعضاء العشيرة حول العضو المؤسس والسلف الأول، وقد تكون الروابط القائمة على القرابة الرمزية، حين تتشارك العشيرة في سلف مشترك (محدد) الذي يعتبر رمزاً لوحدة العشيرة. يقول موقع "إعلام بيت لام": «الرئاسة أو المشيخة في المجتمعات العشائرية والقبلية تمثل سلطة معنوية، تهدف إلى إضفاء شعور بالترابط والانسجام تحت ظل سلطة مركزية موحدة، وهي ليست منصباً وجاهاً، بل كانت قوة معنوية تستمد منه القبيلة أسباب عزّتها وقوتها اتجاه الآخرين».

والعامل المميز هو أنّ العشيرة جزء من القبيلة، ويمكن أن توصف بـ"بيت أو سُلالة»، فالقبيلة والعشيرة مصطلحان يستخدمان في الثقافة والتقاليد المجتمعية. وعلى الرغم من تشابه الأصول بينهما، إلا أن هناك بعض الاختلافات في المفهوم والترتيب بينهما. فالقبيلة هي مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون إلى نسل واحد أو يحملون اسم عائلة مشتركة، وعادة ما تكون القبيلة أوسع في نطاقها من العشيرة، وتعتمد العلاقات داخل القبيلة على التعارف والاتصاف بالأخلاق الحسنة والصفات الطيبة والتقوى الدينية، والعشيرة تعني بالنسبة للرجل أقربائه وأسرته وقبيلته الواسعة، فهي تشمل الأجداد والأعمام والأخوال والأبناء والأخوة، ويعتبر الرجل رأس (شيخ) العشيرة، فيتم التعبير عن العشيرة من خلاله، وكان مركزه عموماً مصان ومحاط بهالة من التقديس والقدسية لدى أتباعه. فيما كان شاعر القبيلة بمثابة قناة إعلامية، يعمل على مدح الشيخ والعشيرة ويذكر مناقبهما في الجود والكرم والشجاعة والدفاع عن حياض العشيرة والقبيلة. ويمكن ترتيب ذلك المجتمع العشائري على الشكل التالي من الأكبر للأصغر: (القبيلة – البطن – العشيرة – الفخذ)، ولها فروع أخرى، فثلاثة أفخاذ وما فوق يشكلون عشيرة، وثلاث عشائر وما فوق يشكلون قبيلة، وعدة قبائل يشكلون القوم والأمة، ولكن يختلف ترتيب تلك المصطلحات من مجتمع إلى آخر.

دور العشيرة في المجتمعات:

باعتبار العشيرة كتجمع أكبر من العائلة والأسرة؛ سيكون حديثنا عن الدور الإيجابي لها في الحفاظ على القيم والمثل النبيلة وما تحويه من روابط متينة، من تكاتف وتعاضد ذاك المجتمع في وجه التفكك الذي تعانيه مجتمعاتنا، نتيجة تعشعش الفكر الرأسمالي المديني داخل كل مسامات فئات المجتمع، والآثار السلبية المترتبة فيما لو تخلت عن تلك المبادئ الأخلاقية التي تميزت بها العشيرة والقبيلة عبر تاريخها الطويل على يد الأجهزة الدولتية التسلطية المتحكمة برقاب المجتمع.

نستطيع القول إن العشيرة هي امتداد للمجتمع الطبيعي الذي عاش كتجمع سمي بـ(الكلان)، والتي طغى على حياتها الأخلاق الحسنة، وتؤمن بالأرواحية، أي كانت ترى كل ما حولها في الطبيعة بأنها تملك روحاً ولا يجوز التعدّي عليها، وحتى راح الإنسان في ظل هذا المفهوم يقدّس

الأشياء التي يستفيد منها أو يتصور أنه يستمد منها الخير والمنفعة وسميت بـ(الطوطم) مثل الحيوانات والنباتات، حتى أصبح "الطوطم" رمزاً للقوة في التجمع والوحدة والتعاضد، والذي سيتطور لاحقاً إلى العشيرة والقبيلة، مثلما نراه اليوم من أعلام ورموز مقدسة للدول والكيانات.

وجد الإنسان في العشيرة/ القبيلة ورئيسها/ شيخها بديلاً للطوطم، وعادة يكون كبيراً في السن ذو خبرة وحنكة في إدارة العشيرة، ويقوم بمساعدته كبار أبناء العشيرة، بموجب عرف (عقد) شفهي غير مكتوب. ومن واجبات الرئيس (شيخ العشيرة) أن يحل جميع مشاكل العشيرة المختلفة، ويؤمن احتياجاتها ويدافع عنها إذا تعرضت لانتهاك أو ذلت من الداخل أو من قبل عشيرة وقوة مجاورة، فيحرص على الذود عن كرامة العشيرة وحريتها.

يقول المفكر "عبدالله أوجلان " بهذا الصدد في مرافعته "المدنية الرأسمالية": «يتحدث التاريخ المدون دائماً عن المدنيات الدولتية، أما ما يتعلق بكيفية عيش المجموعات طيلة ملايين السنين ضمن الأنظمة المشاعية، وكيفية تدبير شؤونها وأعمالها، فلا يندرج تحت إطار هذا التاريخ، بيد أنه ينبغي أن يكون هذا هو التاريخ الأصلي، باعتبار أن ما يعبر عن المجتمع نفسه هو تلك الحياة المشاعية التي عاشها النوع البشري ضمن فترة طويلة زمنياً وأوساط فسيحة مكانياً، هذا هو المجتمع الأصلي».

على ضوء هذا الفهم؛ فإن العشائر والقبائل هي من أهم العناصر الاجتماعية التي تتحد من أجل الإنتاج والدفاع، وذلك نرى بأن الكلانات والعوائل شعرت بالحاجة إلى التحول إلى شكل "العشيرة" عندما باتت قاصرة عن حل قضايا الإنتاج والأمن المتصاعدة. فالعشائر هي ليست اتحادات مقتصرة على رابطة الدم فقط، بل هي عناصر ونواة المجتمع ولها ضرورتها لتأمين الإنتاج واستتباب الأمن، إضافة إلى تمثيلها التقاليد المعمرة منذ آلاف السنين. تظهر أهمية العشيرة في المجتمعات العربية أكثر في بداية نشر الدعوة

"العشيرة هي كلمة تعبر عن العِشرة والمودة والإخاء والتراحم، وتتألف العشيرة من مجموعة أفراد تربطهم روابط كثيرة منها اللغة والدين والدم، أي مرجعهم إلى نسب جدٍ واحد، والعشيرة هي أقل من القبيلة من حيث تعدادها وقوتها.. وكل مجموعة عشائر متحدة تسمى قبيلة، ولا تسمى عشيرة ما لم تكن أكثر من ثلاثة أفخاذ"

الإسلامية، وطبعاً ماعدا الأخلاق الحميدة التي كانت تدعو إليها، فإن الكل كان يراها كعون للفرد وتساعده على إصلاح ذاته وأسرته، إضافة إلى تحقيق العدل والإنصاف ونصرة المظلوم. يقول الإمام «علي» لابنه «حسن» (عليهما السلام): «أكرم عشيرتك فهم أصلك الذي إليه تصير، وجناحك الذي به تطير، ويدك التي بها تصول، هم العدة عند الشدة». لذلك نرى أنّ العشيرة تمارس دوراً مهماً ورئيسياً في ضبط سلوك أفراد المجتمع وحفظ كيانه، والإصرار على تماسك أفرادها بصورة خاصة، وباقي أفراد المجتمع بصورة عامة، وفضّ النزاعات والصراعات، ومعالجة المشاكل التي تحصل بين أفرادها أو مع العشائر الأخرى.

العشائر والقبائل هي من أهم القوى المحركة للتاريخ:

وكما ذكرنا أعلاه أنّ العشائر والقبائل، ووفق تشكيلتها وبُناها الاجتماعية تقتضي التعاون والدفاع معاً عن قيم ومثل القبيلة والعشيرة.

يقول المفكر " أوجلان" في مرافعته الثالثة "سوسيولوجيا الحرية": «للعشائر حياتها القريبة من "الكومينالية». والعشيرة هي الشكل الاجتماعي الذي يزدهر فيها المجتمع الأخلاقي السياسي بأقوى أشكاله. وبالتالي فالظهور المتواصل للعشائر كعدو لدود للمدنيات الكلاسيكية متعلقة بتلك المزايا. وكان يستحيل غزوها وإخضاعها للسيطرة. فإما أنها كانت تُفنى. أو كانت تحيا حياة حرة أبية». ويتابع المفكر "أوجلان" بهذا الصدد في وصف العشائر والقبائل: «هي من العناصر البنّاءة للحركات الوطنية. إن القبائل هي من أهم القوى المحركة للتاريخ. إذ ما كانت للبشرية أن تتجنب التحول إلى العبيد أو إلى حشد قطيعي لولا مقاومات القبائل في سبيل تقاليد الحرية أو الكومينالية والديمقراطية. إن البنى العشائرية والقبلية هي التي تضفي اللون الأصلي على المجتمعات. أما إفناء الدولة القومية لجميع الثقافات العشائرية والقبلية عبر طغيان طابع مجموعة إثنية معينة فهو إبادة ثقافية بكل معنى الكلمة. بمقدور العشائر والقبائل أداء دورها الرئيس في تكوين الأمة الوطنية بدلاً من دولة الأمة أو أمة الدولة. وذلك بوصفها عناصر بنّاءة فيهاط. ومن الممكن أن تقوم فيدرالية العشائر بتكوين قبيلتها الموحدة. والقبيلة بالأصل هي شكل من أشكال الفيدراليات الاجتماعية.

ارتأت العشيرة أن تعيش بعيدة عن الحضر (المدينة والمدنية). لأنها رأت فيها تقييداً لحريتها وقيمها التي تفتخر بها (من عادات وتقاليد ورثوها من الآباء والأجداد). واعتقدت أنها ستضمحل في المدينة على يد طبقة غريبة وسلطة احتكارية متحكمة بها. فبقي أفرادها ملازمين لقراهم. وحتى اختار أفرادها ضنك العيش في الصحاري والجبال والوديان على رفاهية المدينة. حتى أصبح ابن المدينة يُستهزئ به بأنه متخلف وغير حضاري؛ مع العلم أن العشيرة يسود فيها عرف مجتمعي (عشائري). وهي مجموعة من القيم والمثل. عادة يكون ابن المدينة محروم منها. وهي مجموعة القواعد التي تحكم سلوك أفراد العشيرة. وتسودها المعتقدات والتصرفات الأخلاقية التي تُعتبر مقبولة حسب حياة العشيرة والقبيلة. وتشمل اللغة واللهجة وحتى اللباس والشكل والسلوك العام في العلاقات الاجتماعية والتي تعزز من شيمها ووحدتها. ولكن يمكن أن يختلف العُرف الاجتماعي من عشيرة إلى أخرى ومن زمان ومكان إلى آخر. فتتأثر بالعوامل الثقافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية. لكنها تبقى مرتبطة بالأصالة.

إنّ مجتمع الشرق الوسط مازال التنظيم المجتمعي العشائري "القبلي" يعيش فيه بكثافة منذ التاريخ وحتى اليوم. لقد كانت البشرية تعيش الحياة الحرة الطبيعية وتسودها الأخلاق الفاضلة. وكان الفرد فيها يدافع عنها ويضحي من أجلها. وكذا كانت العشيرة تحمي أفرادها بكل قوة. يقول المفكر "أوجلان" في مرافعته الرابعة (الشرق الأوسط): «ما كان قائماً هو فرد ومجتمع حقيقيان. ولكن عندما أرادت بُنى المدنية السطو على العشائر واستعبادها؛ حصلت تناقضات في العلاقة والصراع بين العشيرة المناهضة للاستعباد وبين الدولة. فباتت الجبال والبوادي أوساطاً للمقاومة.. وقد جهدت العشائر إلى الخلاص من هذه القضية بتحولها إلى قبائل وبتصعيد مقاومتها. إلا أنه غالباً تتفوق تنظيم قوى نظام المدنية بتقنيتها المسلحة الكبيرة. لقد قام النظام بنعت هذه الحركات والحكم عليها بأنها "بربرية". لكن العكس هو الصحيح. إن الذي لا يرغب الانقطاع عن الحياة الإنسانية والحرية فهو نظام العشيرة "الكومونة").

إنّ الانخراط في عرف العشيرة يعتبر عادة ضرورية للتكامل والتعامل السلس داخل مجتمع العشيرة والقبيلة. ويؤدي المآل لمن يخالفها بالعقاب والتشهير وحتى التبرؤ منه والطرد والنفي. وهكذا تحافظ العشيرة على حريتها وديمقراطيتها التي تناسبها.

يختلف نظام العشيرة مع عصور العبيد والأقنان والعمال. لأنّها كانت دائمة المقاومة والعصيان. إن

أخطر تزوير للتاريخ والحقيقة من قبل مؤسسي المدينة هو استصغار دور العشيرة والنظر إليها بسلبية أحياناً. فلولا اتحاد العشائر والقبائل وعيش الحياة الديمقراطية "الكومينالية" فيها لما استطاعت مقاومة اعتداءات المدنيات العبودية، ولما تمكنت من الحفاظ على شكل المجتمع الذي نظم نفسه على أسس تاريخية وثقافية. لذا كانت العشيرة وجميع الأقليات والمكونات المجتمعية التي تشبهها قد حافظت على خصوصيتها، وكذلك الطرائق الدينية والمذهبية، وكانت في صراع دائم مع الدولة والسلطة المركزية المتشددة التي تعمل على احتوائها.

العشيرة وصراعها مع السلطة والدولة المركزية:

على الرغم من تلك المزايا الحسنة للعشيرة والقبيلة في الحفاظ على القيم والمثل والتراث الديمقراطي الحر، حيث قامت بانتفاضات عديدة وقدمت التضحيات الجسام، ولكن لم تنجح معظمها بسبب قوة النظام السائد واستخدامها للحرب الخاصة في التأثير على زعماء بعض العشائر وجعلهم تابعين لها، بل راحت تعمد على إذكاء نار التعصب داخل العشيرة ضد عشائر وإثنيات أخرى تناهض النظام القائم؛ فتصبح خطيرة وسلاحاً فعالاً بيد الدولة والسلطة القائمة، فتستميل إلى جانبها عناصر متواطئة وعميلة لها، فظهرت بعض العشائر من هذا النوع، ووصلت إلى مرحلة بدأت تعاني من التفسخ والانحلال مع الزمن نتيجة ظهور متواطئين مع النظام والسلطة القائمة من بين صفوفها وجعلتها تابعة لها، لترهن حياة ومستقبل العشيرة لقوة النظام المستبد خدمة لمصالحها في الهيمنة المركزية.

تعمل الدولة للسيطرة والتحكم على كافة فئات الشعب، فيتحول النظام الحاكم إلى أمة سلطوية ودولتية، فتعتمد على إدارات العشيرة المتواطئة والمعتمدة غالباً على المصالح العائلية الضيقة، لكي تحافظ الدولة على وجودها عبر

> **"للعشائر حياتها القريبة من "الكومينالية"، والعشيرة هي الشكل الاجتماعي الذي يزدهر فيها المجتمع الأخلاقي السياسي بأقوى أشكاله، وبالتالي فالظهور المتواصل للعشائر كعدو لدود للمدنيات الكلاسيكية متعلقة بتلك المزايا، وكان يستحيل غزوها وإخضاعها للسيطرة، فإما أنها كانت تُفنى، أو كانت تحيا حياة حرة أبية".**

بعض المؤسسات المتبقية من العصور الوسطى، والتي تقبل التواطؤ معها كـ(الإقطاعية – المشيخات – الطرائق ورئاسة العشيرة والقبيلة)، فتقوم الحكومات الدولتية على مداراة بعض شيوخ القبائل ورؤساء العشائر واستمالتهم إلى جانبها وإغرائهم بمنحهم بعض المزايا، كإضفاء ألقاباً عليهم وتعليق أوسمة على صدورهم، أو تخويفهم وإهانتهم بواسطة سلطاتها وأجهزتها الخاصة وبمعاونة القبائل المناوئة لها، وطبيعة أفراد العشيرة البسطاء وناموس العشيرة يقضي بانقيادهم لطاعة لولي الأمر أي "كبيرهم"، فكانت مهمة شيخ العشيرة يسيرة ومبسّطة في الهيمنة على جميع أفراد العشيرة وقيادتهم حسبما يشاء، فكان ابن العشيرة محدود الأفق ولا يرى أبعد من محيطه الذي يعيش فيه، ونظرته كانت أنانية وسطحية اتجاه الوطن الكبير الذي هو أكبر من العشيرة والقبيلة، ولتعزيز قوته وسطوته وهيبته على العشائر الأخرى؛ يتعاون شيخ العشيرة مع الحكومات، ويضع إمكانات العشيرة والقبيلة في

> **"التعصب للعشيرة والقبيلة ساهم في الحفاظ على وحدة الجماعة وتكاتفها وعلى القيم والمثل الطيبة والأخلاق الحميدة، لكن عندما ينفخ نظام الدولة وخاصة الدولة القومية في كير التعصب لإعادة إحياء عادات وقيم العشيرة لجعلها في خدمة نظامها القائم، يبرز عنصر الإشكالية عند إكساء التعصب وإلباسها ثوب التفاضل والتمايز بين البشر، وإنكار الآخر وإقصائه، وبالتالي تظهر فكرة القوة والغريزة والأنانية المغرضة للعشيرة والقبيلة"**

خدمة مصالح السلطة والدولة، لتقوم الأخيرة بإضفاء بعض رتوش الحداثة عليها لتبق مقبولة، وهنا تصبح العشيرة خطر على نفسها بتقيّدها بنظام مستبد، لتدور في فلكها بدل أن تكون في خدمة مجتمعها الحر.

التعصب والعصبية القبلية:

العصبية القبلية في اللغة هي شدة ارتباط المرء بجماعته، والجد في نصرتها والتعصب لمبادئها. ويُعرِّف «ابن منظور» التعصب بالقول بأنه «شعور داخلي يجعل الإنسان يتشدد، فيرى نفسه دائماً على حق، ويرى الآخرين على باطل بلا حجة أو برهان». وبعبارة أخرى التعصب يعني نصرة الإنسان لجماعته بشكل أعمى، والذود عن قبيلته أو عشيرته ظالمين كانوا أم مظلومين، ويظهر هذا الشعور عادة على صورة مواقف وممارسات متزمّتة، ينطوي عليها احتقار الآخر وعدم الاعتراف بحقوقه وإنسانيته، فالتعصب بالمجمل هو ضد التسامح وقبول الآخر والتعايش معه.

العشيرة والتعصب لها في العصر الحديث:

من مآسي العشائرية والقبلية هو المغالاة في التعصب لها، فالتعصب ظاهرة قديمة حديثة، تجتمع فيها مفاهيم متعددة مثل التمييز العنصري والديني والجنسي والطائفي وحتى التعصب الفكري والثقافي، فالتعصب في علم الاجتماع هو مرضٌ اجتماعي يولِّد الكراهية والعداوة في العلاقات الاجتماعية والشخصية، بحيث يمنح التعصب صاحبه تمييزاً واهياً عن الآخرين، ويمده بأسباب وهمية باطلة لتفويت فرصة حل مشاكله وأزماته بطريقة منطقية وسوية.

أسباب التعصب ومن يذكّيها ويستفيد منها:

ينبع التعصب من فكرة الضعف والشعور بالنقص الذاتي والدونية والبكاء على أطلال الماضي الخالي من العيب والنقص، والمغالاة في تضخيم الذات والافتخار بالذات والجماعة. إنّ المستفيد من نمو العصبية بهذا الشكل الرجعي هو من يعمل على انتعاشها، ومن يقف وراءها هم أصحاب سياسة مُحافِظة يدعون من خلالها إلى محاربة كل جديد ومتطور، ومحاربة الآخر واستحلال مكتسباته. صحيح أنّ التعصب للعشيرة والقبيلة ساهم في الحفاظ على وحدة الجماعة وتكاتفها وعلى القيم والمثل الطيبة والأخلاق الحميدة، لكن عندما ينفخ نظام الدولة وخاصة الدولة القومية في كير التعصب لإعادة إحياء عادات وقيم العشيرة لجعلها في خدمة نظامها القائم، يبرز عنصر الإشكالية عند إكساء التعصب وإلباسها ثوب التفاضل والتمايز بين البشر، وإنكار الآخر وإقصائه، وبالتالي تظهر فكرة القوة والغريزة والأنانية المغرضة للعشيرة والقبيلة. وتحت شعار "فرِّق تَسُد"، تقوم أجهزة السلطة الإيديولوجية بإثارة النعرات والعصبيات العشائرية والطائفية، وجعلها تختلف فيما

”تلعب العشيرة دوراً كبيراً في تحقيق السلم والتوافق الاجتماعي ولها أهمية بالغة في فض النزاعات بين الأفراد والجماعات وبطريقة سلسة ومفهومة للجميع، كما تساهم في نشر ثقافة السلم الاجتماعي، وذلك من خلال قانون يسمونه عادة بـ(السواني). إن هذا القانون تسير عليه وتلتزم به معظم العشائر“

بينها وحتى تتقاتل أيضاً، ليتدخل نظام الدولة – ليبرز أهمية وجوده – ليسيطر على الوضع بالعنف والقوة، وتتوسع السيطرة لتصل إلى خنق كل تطلع نحو الحرية والديمقراطية للجماعات المهمشة الأخرى.

ونتيجة استخدام نظام الدولة للسياسة الخبيثة، بتفضيل جماعة وشيطنة أخرى (وخاصة المناهضين لها)، والتحريض على العنف بينهما عن طريق (شيخ العشيرة والموالين لها)، فإنها تقوم بإذكاء روح العصبية لدى العشيرة وتتظاهر بدعمها لها، لكنها في الأساس تزرع الفتنة والتفرقة وتقسم المجتمع حتى بين العشيرة والقبيلة الواحدة، لذا نشاهد اليوم عدة زعماء وشيوخ تدعي الزعامة والأحقية، واتجاهات وموالاة متعددة لدى العشيرة الواحدة، لتصل العشيرة (المتواطئة) مع النظام القائم، إلى مرحلة تعارض (بل وتحارب) فيها المجتمعات الحديثة التي تتبنى أسساً ومبادئ تتجاوز العصبية العشائرية والطائفية وتتطور بشكل مذهل، وذلك بحجة الحفاظ على الموروث التاريخي.

إن من أهم أسباب تأخر مجتمعاتنا المختلفة وعدم تطورها إلى مصافي المجتمعات المستقرة والمتطورة هو التمسك بالجانب السلبي للعشيرة والقبيلة، من خلال نشر روح العداوة والتناحر بين المجتمعات والشعوب، ألا وهي مناصرة الطرف الأقوى، وهي نظام الدولة المستبد التي لا تريد الخير للمجتمعات، وكل ذلك يصب لصالح رئيسها وفي خدمة الدولة الدكتاتورية ومن خلفها الرأسمالية والامبريالية العالمية، التي تجعلها باباً من أبواب وحجج التدخل في المنطقة عبر مناصرة طرف ضد آخر، لتنشب الحروب والنزاعات وتخلف الويلات، وذلك نتيجة ما ابتلت به العشيرة والقبيلة من عصبية عمياء لنفسها وطائفتها، بعد أن كان لها دور إيجابي في الحفاظ على الإرث الاجتماعي وتتمسك به، وكيف تحول التعصب للعشيرة إلى سموم ممنهجة لتدمير البنى الاجتماعية.

الحلول الواجب اتباعها لمواجهة سلبيات العشيرة والعصبية:

من أولويات الطبيعة العشائرية، والتي بها أطالت بوجودها وأدامت نظامها لآلاف السنين، هو قيامها بتأمين حاجيات العشيرة الضرورية في الحياة الكريمة، وكذلك القيام بعملية الضبط الاجتماعي وتوفير الأمن والأمان داخل العشيرة، فالمجتمعات العشائرية تجعل من القانون العرفي الأداة الكبرى للضبط الاجتماعي لسلوك الأفراد الذين يخالفون الأعراف والقيم، ولأجل توطيد السلم الاجتماعي؛ على القيادات العشائرية والقبلية أن تقوم بإدارة سليمة للتعددية الدينية والمذهبية واللغوية، (إن وجدت)، وتفتح المجال والمساحة للتعبير وحرية الرأي فيما إذا كانت تتضمن القبيلة تنوعاً في مكوناتها وطوائفها، في ظل احترام متبادل، وأن يكون الجميع سواسية أمام العرف الاجتماعي دون تمييز، وإدارة الحكم

الرشيد وتوفير تكافؤ الفرص لجميع الأفراد، دون تمييز. إن توفير العدالة يحقق الأمن والطمأنينة للمجتمع بأسره، فالإنسان بطبعه يتمسك بحقوقه ويحرص على صون حرماته والمحافظة على حريته، وهذا يعكس على تعميق الانتماء والولاء لذلك المجتمع الذي صانه وحماه، وحفظ كيانه ورعاه، فيقول أحد الحكماء: «الأمن أهنأ عيش والعدل أقوى جيش».

تلعب العشيرة دوراً كبيراً في تحقيق السلم والتوافق الاجتماعي ولها أهمية بالغة في فض النزاعات بين الأفراد والجماعات وبطريقة سلسة ومفهومة للجميع، كما تساهم في نشر ثقافة السلم الاجتماعي، وذلك من خلال قانون يسمونه عادة بـ(السواني). إن هذا القانون تسير عليه وتلتزم به معظم العشائر. ولرؤساء/ شيوخ العشائر دور كبير في تحفيز عشائرهم وتوجيه قبائلهم في مناهضة السلطة المستبدة والجائرة الحاكمة أو المستعمر والمحتل الغريب، والقيام بقيادة الانتفاضات والثورات ضدهم، وأيضاً تساهم بشكل كبير في معارك التحرر والحرية والديمقراطية.

خاتمة:

كانت ومازالت العشيرة وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية متكاملة ومتماسكة، خاصة في المجتمع غير المديني، وتمارس دوراً مهماً في ضبط سلوك وأفراد المجتمع وتحفظ كيانه من الأخطار المحدقة بها.

يجب نشر ثقافة السلام والتواصل الاجتماعي والمحبة والتسامح، وصون حقوق الإنسان، وتطبيق مبدا التعايش السلمي بين أفرادها والآخرين، وضرورة الابتعاد عن الظواهر السلبية التي تحض على التعصب الأعمى والحقد والضغينة وكراهية الآخرين، وضرورة تعليم وتوجيه المجتمع لأجل التخلص من المفاهيم الجاهلية الخاطئة والقيم والعادات والتقاليد البالية في الثأر والنظرة الدونية للآخرين، وخاصة للمرأة أو اعتبارها قاصر وعورة، ويجب عقد الاجتماعات والندوات والمؤتمرات بشكل مستمر في دواوين العشائر وغيرها لأجل النقاش وتبادل المعلومات والتعرف أكثر على الآخر والتفاهم حول الهموم والمشاكل المشتركة.

على جميع العشائر والقبائل والمكونات الإثنية الأخرى القيام برفع وتيرة الفعاليات والعلاقات الأخوية السلمية بين العشائر والجماعات المختلفة، ونشر روح التقارب والتعاون لما فيه خير جميع المواطنين في الوطن.

المراجع:

1 – «بنية العصبيات» للكاتب «أحمد دالي» – مجلة الشرق الأوسط الديمقراطي – العدد /50/ أيلول – سبتمبر/2020

2 – المواقع الإلكترونية: ويكيبيديا – عرب سايكولوجي – صحيفة عمّون – طلبة نيوز – مقاربات للتنمية السياسية – عشيرة الهنادزة – قبيلة البو حمد – شبكة النبأ المعلوماتية – إعلام بني لام.

3 – عبد الله أوجلان – المرافعات / 2 – 3 – 4 / من «مانيفستو الحضارة الديمقراطية».

العلاقات الدولية وانهيار القيم الإنسانية والأخلاقية

أ. مصطفى شيخ مسلم

مقدمة

منذ فجر التاريخ حتّمت الكينونة البشرية وجود بروتكولات ناظمة لحياة المجتمعات، أي فيما بين الشعوب التي تقاسمت العيش على هذه الأرض، وكان ثمّة تبادل مستمر فيما بين تلك المجتمعات من حيث المواد الأولية والمواشي وغيرها من السلع وما إلى هنالك، ومع التطور المستمر لشكل الحياة، كانت تزداد الحاجة لوجود خارطة طريق للتعامل فيما بين الجماعات حتى قبل أي وجود لمفهوم الدولة، فالحضارات القديمة لم تتخذ شكل الدولة المعروف في يومنا هذا وعلى الرغم من ذلك كان ثمّة العديد من الاتفاقيات والمعاهدات المتعلقة بالحرب والسلم الناظمة للكثير من جوانب الحياة.

وُجدت العلاقات الدولية لتنظم حياة المجتمع الدولي وفق أسس وقوانين اتفق عليها غالبية دول العالم، بهدف تحقيق السلام والاستقرار على المستوى العالمي، عبر التعاون في كل المجالات التي تتخطى حدود دولة معينة بعينها، مثل الأنهار التي غالباً ما تكون مشتركة بين عدة دول، المعابر، التبادلات التجارية, والتحالفات العسكرية والكثير من مجالات الحياة.

1- مشكلة البحث

تُعَّد العلاقات الدولية بمثابة الدستور الناظم للتعامل الدولي فيما بين دول العالم أجمع، وهذا المفهوم يحدد شكل التوازنات فيما بين القوى المهيمنة على العالم, وتعرف أيضاً بأنَّها الفسحة الدبلوماسية للتبادل اليومي للتعاملات الدولية في إطار نظام يعرف باسم العلاقات الدولية.

تكمن مشكلة البحث في أنَّ العلاقات الدولية، هي التي ترسم بشكلٍ أو بآخر الاستقرار الدولي، وتحدد بذات الوقت مناطق الصراع الساخنة والمشتعلة بالحروب المذهبية والعرقية والطائفية، وعليه فإنَّ مفهوم العلاقات الدولية مفهوم واسع جداً.

2- أهمية البحث

إن تداول مصطلح العلاقات الدولية بكثرة لا سيما في العقد الأخير، إنَّما يؤكد على أهمية هذا المجال الناظم للعلاقات الدولية والذي يفضي بطريقةٍ ما إلى ترسيخ السلام وإشعال الحروب هنا وهناك، وفق ما ينتج عن هذه العلاقات فيما بين دول العالم وعلى وجه التحديد الدول التي تُصنَّف على اعتبارها من القوى الكبرى في العالم، من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، إذ يكون شكل العلاقات الدولية متناسباً بما تقتضيه مصالح الدول الكبرى التي تفرض مصالحها على باقي دول العالم.

وتكمن أهمية البحث في النقاط التالية:

- التطرق للمراحل التاريخية لنشوء وترسيخ العلاقات الدولية منذ القِدم إلى يومنا هذا.
- الفرق بين العلاقات الدولية في العصور القديمة وما هي عليه في الوقت الحالي.
- توصيف حالة دول العالم في ظل المعاهدات والاتفاقيات الناظمة للعلاقات والتعاملات الدولية فيما بين الدول.

3- أهداف البحث

- البحث والتمحيص في العراقيل والمشكلات والأسباب التي رافقت ظهور العلاقات الدولية قديماً وإلى وقتنا الحالي.
- تحديد القوانين التي يؤخذ بها وما يتم نبذه من جملة القوانين والمعاهدات والاتفاقيات الناظمة للعلاقات الدولية.
- تحديد الفرق بين الماضي والحاضر، من حيث فعالية العلاقات الدولية لترسيخ السلام العالمي.

4- أسئلة البحث

- ما هي العلاقات الدولية؟
- ما الأسس التي تقوم عليها؟
- إلى أي مدى تكون العلاقات الدولية سبباً كافياً للردع أو للخوض في الحروب وفي إعلان السلام؟

5- مجتمع البحث

- حضارات العالم القديم.
- دول العالم الحديث وفق الخارطة السياسية الحالية للتقسيمات الدولية.

المطلب الاول: تعريف العلاقات الدولية

إنَّ مفهوم العلاقات الدولية أو international relations إنَّما يعني بشكلٍ أو بآخر جملة

من الأطر والمفاهيم والتشريعات القانونية التي تنظم التعامل الدولي فيما بين دول العالم، وهو يشمل الروابط والعوامل المتفاعلة بين الدول المحركة للمجتمع الدولي والتي تتخطى بفعاليتها حدود دولة ما لتشمل كل دولة في العالم تحت هذا المسمَّى.

عُرِفت العلاقات الدولية بكونها تفاعل اجتماعي فيما بين الجماعات المفرزة بحسب الدول التي ينتمون لها مع غيرهم من الجماعات على صعيد سياسي، ضمن نسق تطور المجتمعات البشرية، وترسَّخت العلاقات الدولية أكثر من ذي قبل حيث تم اعتبارها علماً مستقلاً بالتزامن مع اعتراف بعض الدول الأوربية بأهمية هذا العلم وهذه العلاقة الناظمة بشكلٍ قانوني فيما بين الدول، بل وأولتها أهمية بالغة اكثر من بقية العلوم الاجتماعية الأخرى. وقد اتبع الباحثون في دراساتهم للعلاقات الدولية مناهج وأساليب متعددة.

المطلب الثاني: تطور العلاقات الدولية

نشأت العلاقات الدولية جنباً إلى جنب بالتزامن مع ظهور أولى المجتمعات البشرية المنظمة والمحكومة وفق دساتير وقوانين يتم العمل بها داخل جغرافيا تلك المجتمعات، وترسّخت أكثر بوصفها ظاهرة عامة ضمن إطار المجتمع الدولي وحداثته، وراحت تتخذ أشكالاً كثيرة تنصبّ كلها في مجال إبراز وحدة هذا المجتمع الدولي و ما يحيط به من مشاكل وعوائق, كل ذلك في آنٍ معاً، واتسع فيما بعد مفهوم العلاقات الدولية ليشمل القوى المؤثرة على الصعيد الدولي كافة، وعلى وجه التحديد بُعيدَ القضاء على الاستعمار وانتشار الوعي السياسي وتوصّل غالبية الدول لنقطة التقاء بأنَّ وحدة المصير الإنساني تتطلب بالدرجة الأولى تكاتفاً دولياً في مختلف الميادين، وقد نتج عن هذا التبدّل, اختلال في القيم والمفاهيم والمعايير التي كان يُعمل بها لسنواتٍ كثيرة من الزمن فيما بين التجمعات البشرية, على الرغم مما كان يشوبها في بعض الأحيان

"منذ فجر التاريخ حتِمت الكينونة البشرية وجود بروتكولات ناظمة لحياة المجتمعات، أي فيما بين الشعوب التي تقاسمت العيش على هذه الأرض، وكان ثمة تبادل مستمر فيما بين تلك المجتمعات من حيث المواد الأولية والمواشي وغيرها من السلع وما إلى هنالك، ومع التطور المستمر لشكل الحياة، كانت تزداد الحاجة لوجود خارطة طريق للتعامل فيما بين الجماعات حتى قبل أي وجود لمفهوم الدولة"

من إخفاقاتٍ ورواسب ناجّة بالدرجة الأولى عن التفسير الضيق والمنغلق لمفهوم العلاقات الدولية.

الفرع الاول: الأصول التاريخية

كان للعلاقات الدولية وجودٌ منذ قديم الزمان، إذ عَرَفَت الجماعات البدائية مظاهر السلم والحرب وإقامة الصلح والهدنة والاتصالات التجارية والشعائر الدينية, وترسَّخت فيما بعد هذه العلاقات اكثر فأكثر بوصفها أعرافاً وتقاليد، لتتحوّل فيما بعد لقواعد قانونية مكتوبة وملزمة لمحرّريها. وكما عرفت القبائل قديماً مَنْ يُسَمَّون بالرُّسل الذين كانوا يحظون بحَصانَاتٍ تضمن لَهُم كل مَظاهر الاحترام والتقدير وفق العادات المتبعة وقتذاك، ومن هنا يمكن الإشارة لمعاهدة قادش المبرمة عام ١٢٧٨ق.م بين فرعون مصر ـ رمسيس الثاني ـ وملك الحثيين ـ خاتوسل الثالث ـ وكانت تنص على مبدأ السلام الدائم والتحالف الدفاعي وتسوية النزاعات باللجوء إلى

التحكيم.

حيث شهدت تلك الفترة نشوء علاقات متعددة تخطت الحدود الإقليمية لتشمل كلاً من حضارات مصر القديمة في حقبة الفراعنة وكذلك الأمر في بلاد الشام, الرافدين, الصين والهند, وتطورت فيما بعد في عهد الإغريق, إذ تعاهدت المدن اليونانية فيما بينهم على عقد الاتفاقيات العلنية إضافة لتبادل البعثات الديبلوماسية والإعلان عن الحروب قبل بدئها, وكذلك الأمر سار الرومان على مبدأ احترام المعاهدات والتحالفات, وابتكروا ما عُرف حينها بقانون الشعوب وقانون الأجانب المطبّقين على سكان الأقاليم المتحالفة معهم أو الخاضعة لسيطرتهم, وأنشؤوا إدارات متخصصة للإشراف على المعاهدات وإعلان الحرب وتسيير الشؤون الخارجية وإقامة مراسم استقبال السفراء وتوفير الحصانة اللازمة لهم, وخاصة بعد انتشار المسيحية الداعية إلى السلام والمحبة والمساواة بين البشر.

لقد أسهمت الكنيسة وقتذاك في تطور العلاقات الدولية, حيث ظهر ما يسمى بنظم الصلح ومنها «سلام الرب» الهادفة إلى حماية رجال الدين في أثناء الحروب واللجوء إلى التحكيم البابوي في تسوية المنازعات بين ملوك أوربا المسيحيين. واهتمت الدولة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي بإرساء قواعد السلم بين دارَي الإسلام والحرب, إلاّ إذا طرأ ما يوجب دفع العدوان والفتنة وإعاقة نشر الدعوة الإسلامية, وأرسلت الدولتان الأموية والعباسية الرسل والبعثات وعقدت المعاهدات مع الإمبراطوريات السائدة آنذاك, كتلك التي أبرمها عبد الملك بن مروان مع البيزنطيين عام ٧٠هـ/٦٨٩م, وهارون الرشيد مع شارلمان عام١٨٤هـ/٨٠٠م. وتأثرت هذه العلاقات فيما بعد بالحروب الصليبية بعقد اتفاقات الهدنة والتحالفات المؤقتة لحين سقوط بغداد على يد المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ومع بروز عصر النهضة؛ بدأت الدول الكبرى بالظهور كفرنسا وإنكلترا وإسبانيا وغيرها, لكي تمارس سياساتها الاستعمارية في القارات الأخرى. وترسّخت أفكار الحدود والشعور القومي والتوازن الأوربي وقاعدة الحياد في العلاقات الدولية إلى أن تمّ عقد معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨م التي أنهت الحروب الدينية في أوربا, ورسَّخت ما يسمى بدبلوماسية المؤتمرات وقاعدة المساواة في السيادة بين الدول كافة.

ونتيجة للحروب الدينية التي استمرت لسنواتٍ كثيرة في أوربا بين أتباع الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية اجتمع على إثرها كبار قادة القارة في وستفاليا عام ١٦٤٨ حيث أقروا جملة مبادئ واتفقوا على أن تحكم العلاقات الدولية, آملين أن تحقق هذه المبادئ الاستقرار في العلاقات الدولية وأن يحول تطبيقها دون اندلاع الحروب الدينية من جديد, بكل ما جرّته هذه الحروب على القارة من ويلات وصراعات دامية وأحقاد مستعرة, وكان أبرز هذه المبادئ ثلاثة هي:

١ـ مبدأ الولاء القومي:

يقصد بهذا المبدأ أن يكون ولاء الأفراد والشعوب للجنسية (للقوم) وليس للكنيسة, وأن تكون علاقة الفرد بالكنيسة علاقة خاصة كعلاقته بربه, وعليه فيتعين الفصل بين الجانب العقائدي وأمور السياسة. وبالتالي يعني هذا المبدأ تأكيد فكرة العلمانية القائمة على الفصل التام بين الدين والدولة, واعتبر المؤتمرون في وستفاليا أن من شأن هذا الفصل الحيلولة دون اندلاع الحرب الدينية مجدداً.

٢ـ مبدأ السيادة:

أمّا هذا المبدأ فإنَّه يعني السلطة التامة للدولة في الانفراد التام بإصدار وتشريع قراراتِها ضمن حدود إقليمها ورفض الامتثال (الخضوع) لأية قرارات خارجية إلّا بإرادتها, وعليه فإنّ الدولة سيدة قرارها, والدولة سيدة في دارها (أي إقليمها الذي هو وعاء سيادتها), وإقليم الدولة هو النطاق الجغرافي الذي تمارس عليه سيادتها.

وبهذا الشكل تقوم العلاقات الدولية على جمع من دول تتمسك كل منها بسيادتها فتنفرد

باتخاذ قراراتها الداخلية وترفض الخضوع لأية قوة خارجية إلا بإرادتها. وعليه تترسخ فكرة أن البيئة الدولية هي بيئة تعدد مراكز القوى بتعدد الدول المُنشِئة لها، مع ضمان عدم المساس بحرية كل دولة في تحقيق مصالحها بكل السُبل (دونما إملاء أيّة قيود عليها) بما في هذه الوسائل حق اللجوء للقوة المسلحة على أن تتحمل كافة التبعات.

إن كل دولة في البيئة الدولية تسعى بكل السبل لتحقيق مصالحها بالاستناد إلى الكثير من العوامل لعل أبرزها يمكن في قوتها على الصعيد العسكري وتعدادها السكاني فضلاً عن موقعها الجغرافي، كما أن مقدرتها على تبنّي وتحقيق أهداف وطموحات تتناسب طردياً مع حجم قوتها (قوة قطبية «عظمى» أو قوة درجة ثانية «كبرى» أو قوة درجة ثالثة «صغرى»). فأهداف الدولة العظمى تتضاءل إلى جانبها بطبيعة الحال أهداف الدولة الصغرى ...وهكذا.

٣ـ مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول:

يعدّ هذا المبدأ بمثابة امتداد وتكملة لسابقه ويؤكد عليه, وهو يعني حق كل دولة في تشريع واختيار جميع أنظمتها السياسية والحياتية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية...إلخ، بحرية مطلقة دونما وجودٍ لأي شكل من أشكال التدخل من جانب أي كيان أو قوة خارجية، وقد ارتبطت العلاقات الدولية بهذا المبدأ لحقب طويلة ونصّ عليه بوضوح ميثاق الأمم المتحدة منذ نشأتها في عام ١٩٤٥.

وهكذا فقد أراد المؤتمرون في وستفاليا من خلال هذه المبادئ أن يرسخوا بيئة دولية مبنية في استقرارها على المبادئ الثلاثة، وتقوم على علاقات بين دول قومية ذات سيادة ترفض التدخل في شؤونها الداخلية، وتسعى بكل السبل لتحقيق مصلحتها القومية.

الفرع الثاني: الأحداث المعاصرة

> **عُرِفت العلاقات الدولية بكونها تفاعل اجتماعي فيما بين الجماعات المفرزة بحسب الدول التي ينتمون لها مع غيرهم من الجماعات على صعيد سياسي، ضمن نسق تطور المجتمعات البشرية، وترسخت العلاقات الدولية أكثر من ذي قبل حيث تم اعتبارها علماً مستقلاً بالتزامن مع اعتراف بعض الدول الأوربية بأهمية هذا العلم وهذه العلاقة الناظمة بشكلٍ قانوني فيما بين الدول**

بالتزامن مع نهايات القرن التاسع عشر، بدأت قِوى جديدة تطفو على ساحة العلاقات الدولية كالولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين واليابان, واتّسم ذلك العصر بتوطيد قواعد الثورة الصناعية والمبادلات التجارية وتحديث قواعد الاتصالات الدبلوماسية، ما أسهم في بسط السيطرة الاستعمارية وهيمنة الدول الكبرى على إثر ذلك، بينما أقرّ مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥ فكرة الاعتراف بالأوضاع القائمة وتكريس نظرية الأمن الجماعي حينئذٍ، وبرزت وقتها ظاهرة المؤتمرات، لتليها المنظّمات الدولية كَاللّجان النهرية والاتحادات الدولية غير الحكومية وبعض المنظمات المتخصصة كاتحاد البريد العالمي ولجنة المقاييس الدولية، وانعقدت فيما بعد مؤتمرات لاهاي لعامي ١٨٩٩ و١٩٠٧ لفضّ وتسوية النزاعات القائمة فيما بين الدول، ثم ما لبث أن نشبت الحَرب العالمية الأولى لتنهار على أثرها الإمبراطوريتان النمساوية\المجرية والعثمانية.

وانعقد مؤتمر فرساي للسلام عام ١٩١٩ على

”لقد أسهمت الكنيسة وقتذاك في تطور العلاقات الدولية، حيث ظهر ما يسمى بنظم الصلح ومنها "سلام الرب" الهادفة إلى حماية رجال الدين في أثناء الحروب واللجوء إلى التحكيم البابوي في تسوية المنازعات بين ملوك أوربا المسيحيين. واهتمت الدولة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي بإرساء قواعد السلم بين دارِي الإسلام والحرب، إلاّ إذا طرأ ما يوجب دفع العدوان والفتنة وإعاقة نشر الدعوة الإسلامية“

أساس مبدأ القوميات وحق تقرير المصير، كما ورد في تصريح الرئيس الأمريكي ويلسون عام ١٩١٨. وتلى ذلك تأسيس عصبة الأمم على قاعدة تحريم اللجوء للحرب وتأسيس العلاقات الدولية وفق ما تقتضيها قواعد العدل والإنصاف واحترام القانون الدولي، وكانت مسيرتها مليئة بالحروب، ولعلَّ أبرزها الاجتياح الياباني لمقاطعة منشوريا الصينية وغزو الحبشة من قبل القوات الإيطالية، ولم يمنع عقد ميثاق بريان ـ كيلوغ عام ١٩٢٨حول تحريم استخدام القوة في العلاقات الدولية من نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ وفي نهايتها تمّ اعتماد ميثاق هيئة الأمم المتحدة في مؤتمر سان فرانسيسكو عام ١٩٤٥ لحفظ السلم والأمن الدوليين وتوطيد التعاون الدولي في المجالات كافة.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت العلاقات الدولية تتسم بالخصائص والسمات الآتية:

ـ توسع الرقعة الجغرافية لميدان العلاقات الدولية بُعيدَ ظهور دُول فاعِلة عَلى الساحة الدولية في القارات الأربع المختلفة.

ـ تنامي دور المنظمات الدولية، وعلى وجه الخصوص الإقليمية منها كجامعة الدول العربية، والمتخصصة كمنظمة الصحة العالمية والعقائدية كمنظمة المؤتمر الإسلامي، والتي بدأت تمارس نشاطاً مؤثّراً واضحاً في مجرى العلاقات الدولية.

ـ ولادة العديد من الأحلاف العسكرية كحلف بغداد ووارسو والناتو، والمضيّ قدماً نحو سباق التسلح والتهديد باستخدام القوة وتوطيد سياسة التسلط في العلاقات الدولية.

ـ تزايد نفوذ جماعات الضغط (اللوبيات) ومراكز القوى السياسية والاقتصادية والدينية والأحزاب الكبرى والشركات متعددة الجنسيات والنقابات العمالية والمهنية ووسائل الإعلام المختلفة، وذلك في تحديد مسار العلاقات الدولية وترسيخها.

ـ بروز نظام القطب الواحد، ومحاولته الاستئثار بالسياسة الدولية، وتسييرها لتحقيق مطامعه، تزامناً مع انتهاء الحرب الباردة، وانهيار نظام القطبية الثنائية وتوازن القوى بين المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي السابق، والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما أدى إلى عرقلة أعمال مجلس الأمن الدولي وذلك نتيجة اللجوء المتكرر والمفرط لحق النقض (الفيتو).

ـ تعدّد الحروب الأهلية ذات الأبعاد الدولية كما حصل في إسبانيا عام ١٩٣٦، واليونان عام ١٩٤٧، وقبرص عام ١٩٧٤، ولبنان عام ١٩٧٥، والصومال عام ١٩٩٢، ورواندا عام ١٩٩٤.

ـ تدخّل بعض الدول الكبرى في شؤون الدول الأخرى، باستخدام وسائل الضغط النفسي والدعائي والاقتصادي والتأثير الثقافي والفكري وإثارة الرأي العام ضد الدولة المتدخَّل بها، وحتى استخدام القوة المسلحة في بعض الأحيان، كما حصل عندما تدخلت الولايات المتحدة الأميركية

في فيتنام وكوريا ونيكاراغوا وبنما وهاييتي وأفغانستان وأخيراً دولة العراق.

ـ نشوب أزمات وحروب عدة ذات آثار خطيرة على استقرار المجتمع الدولي وأمنه، كالأزمة الكورية عام ١٩٥٠، والعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وأزمة كوبا عام ١٩٦٢، ومشكلة الشرق الأوسط التي أفرزت حروب عام ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٣ وما بينها من أحداث مأساوية.

ـ ظهور حركة عدم الانحياز أو الحياد الإيجابي بعد انعقاد مؤتمرها التأسيسي في باندونغ عام ١٩٥٥.

ـ تسويق مفاهيم جديدة في العلاقات الدولية كالنظام الدولي الجديد الذي يرسّخ هيمنة الولايات المتحدة

الأمريكية، والتدخل لأسباب إنسانية كما حصل في يوغسلافيا السابقة والصومال ورواندا وهاييتي.

ـ تطبيق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة المتعلق بالأمن الجماعي على الأزمة العراقية عام ١٩٩٠ـ ١٩٩١ بما في ذلك فرض العقوبات الاقتصادية واستخدام القوة ضد القوات العراقية لإجبارها على الانسحاب من الكويت، وكذلك في يوغسلافيا السابقة.

ـ وقوع أحداث ١١ أيلول عام ٢٠٠١، والتي على أثرها أعلنت السلطات الأمريكية تغيير استراتيجيتها والبدء بحربها ضد ما وصفته حينها بالإرهاب الدولي، واحتلالها لأفغانستان منذ عام ٢٠٠٢، وللعراق منذ عام ٢٠٠٣.

ـ تحديث الأسس الكفيلة والقوانين الناظمة لمحاكمة مجرمي الحرب ومرتكبي الجرائم ضد الإنسانية والإبادات الجماعية، منذ محاكمات نورمبرغ وطوكيو في عامي ١٩٤٥و ١٩٤٦، ثم إنشاء المحاكم الجنائية الخاصة لمحاكمة مرتكبي الجرائم الدولية في يوغسلافيا السابقة ورواندا، وحتى اعتماد ميثاق روما عام ١٩٩٨ المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية.

المبحث الأول: أهمية العلاقات الدولية:

يجسّد مفهوم العلاقات الدولية طبيعة الروابط المتعددة التي يفترض أن تنظمها وتحكمها قواعد ومبادئ القانون الدولي، لكن سياسة الهيمنة والحفاظ على امتيازات الدول الكبرى ما زالت أحد أبرز الأسباب التي نتج عنها سوء العلاقات الدولية، والتي تعرضت في عقود طويلة من الزمن إلى أزمات حادة، ولّدت للبشرية جمعاء أزمات ونكبات وكوارث وحروب، كان سببها الأساسي غياب منطق العقل والحرص على السلام, لذلك فإن أي توجّه لإعادة النظر في العلاقات الدولية يستوجب في بادئ الأمر أن يؤخذ في الحسبان المتغيرات الدولية بما يحفظ سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية بأي شكلٍ كان, وترسيخ مبدأي التكافؤ ونبذ سياسة اللجوء للقوة في العلاقات الدولية.

المبحث الثاني: المجتمع الدولي

المطلب الاول: تعريف المجتمع الدولي

قانون المجتمع الدولي يتناول مجموعة من القواعد القانونية التي تراعي تركيبة المجتمع الدولي والقواعد التي تحكم وتنظم علاقات هذا المجتمع, إذ يعتبر القانون الحاكم للوحدات المكونة للجماعة الدولية, ويبين كيفية نشأة أشخاص هذه الجماعة من حيث الشروط الشكلية والموضوعية, ويبين حقوق الأفراد الاعتباريين فيها وواجبتهم .كما أنَّ القانون الدولي يسلط الضوء على القواعد التي تحكم علاقاتها مع الكيانات الأخرى, ويتميز المجتمع الدولي بالتطور المستمر وذلك ما توضحه تركيبة المجتمع الدولي التي هي في تغيير مستمر, ويوضحه تطور مضمون القواعد التي تحكم علاقات الأفراد الاعتباريين المجتمعين تحت سقف هذا القانون.

المطلب الثاني: التطور التاريخي للمجتمع الدولي

"بروز نظام القطب الواحد، ومحاولته الاستئثار بالسياسة الدولية، وتسييرها لتحقيق مطامعه، تزامناً مع انتهاء الحرب الباردة، وانهيار نظام القطبية الثنائية وتوازن القوى بين المعسكر الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتي السابق، والمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذا ما أدى إلى عرقلة أعمال مجلس الأمن الدولي وذلك نتيجة اللجوء المتكرر والمفرط لحق النقض (الفيتو)."

المجتمع الدولي في العصور القديمة

كان لاكتشاف الزراعة دور بارز في ترسيخ استقرار المجتمعات, حيث تطلّبت الزراعة الإقامة في مكان ثابت لا يتغير, كما ترتب عن ذلك فكرة التملك الجماعي والمشاعي وبرزت حينها فكرة الملكية الفردية بصورة جلية. كما تطلبت الزراعة تأطير هذه الملكية بحدود معينة على سبيل التخصخصة أو ما يعرف قانوناً بالملكية المفرزة. ومع مرور السنين ظهرت الجماعات الإنسانية. وبدأت تتمدّن (تهاجر إلى المدن) وتحدد مساحات إقليمية تخضعها لسلطة واحدة. ومثل هذه الجماعات تطور بعضها ليشكل فيما بعد ما يُعرف في يومنا هذا بالدولة.

ومن بين الحضارات التي شهدها العصر القديم:

• **حضارة بلاد ما بين النهرين:** وقد أبرمت هذه الحضارة عدة معاهدات تتعلق بحرمة الحدود مثل المعاهدة التي أبرمت ما بين حاكم دولة لاجاش وأوما في سنة ٣١٠٠ ق. م.

• **الحضارة المصرية:** نرى أنّ الفراعنة قد أبرموا عدة معاهدات مع ملوك وقادة الشعوب المجاورة. وهذه المعاهدات يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

١. معاهدات الحماية.

٢. معاهدات التحالف.

٣. معاهدات التبعية.

وهذه المعاهدات, لا تقل أهمية من حيث الدقة والتنظيم عن المعاهدات المعاصرة في يومنا هذا. وقد أبرمت معاهدة بين الفرعون رمسيس الثاني وأمير الحثيين عام ١٢٧٩ ق. م.

- ظهرت أيضاً معاملات دولية بين الصين القديمة والدول المجاورة لها. كما ظهرت في الهند بعض القوانين مثل قانون «مانو» ١٠٠٠ ق. م. والذي يتعلق بكيفية سير الحروب والقانون الدولي الإنساني والقانون الدبلوماسي. وجميعها جوانب يبحث فيها القانون الدولي المعاصر في وقتنا هذا.

المجتمع الدولي في العصور الوسطى

كان حدث سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ م بدايةً للعصر الوسيط وانتهى بسقوط الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام ١٤٥٣ م.

١ـ المجتمع الإسلامي:

ساهم الفقه الإسلامي إلى حدٍ كبير في نشر الحضارة الإسلامية وفي تعميق القانون الدولي وحماية حقوق الإنسان. لقد اعتنى الإسلام بنظام الحياة من عدة جوانب: أخلاقية. اجتماعية واقتصادية. فقد جاء ببعض المبادئ التي تتعلق بصفة مباشرة بالمجتمع الدولي كما درس الفقه الإسلامي تقسيم هذا المجتمع.

فالشريعة الإسلامية تتميز بصبغة عامة، وهي موجّهة لجميع البشر دون تمييز وتعتبر عالمية، أما القرآن الكريم فهو رسالة سلام ويؤكد على الوفاء بالعهد الذي هو مبدأ أساسي في العلاقات الدولية Pacta sun servanda ونلاحظ أن ترسيخ السلم يتوقف على مدى احترام العهود والالتزام بها.

وأكد الإسلام على أنّ الإنسانية ذات أصل واحد واختلاف اللغات والألوان لا يمنع من إقامة أراضي الشعوب المتنازعة مع المسلمين وأخيراً ـ حسب بعض الفقهاء ـ فإن بين دار الإسلام ودار الحرب داراً وسطى تسمى دار العهد, وهي الأراضي التي تعيش فيها القبائل التي لا تخضع خضوعاً تاماً للمسلمين.

٢ـالمجتمع الأوروبي:

ما إن سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد القبائل الجرمانية، ظهرت فيما بعد في منطقة أروب بعض الممالك والإمارات حيث كانت العلاقات القائمة بينهما تتميز بالحرب والاعتداءات المتكررة ودامت هذه الحال إلى مطلع القرن الثامن.

المجتمع الدولي المعاصر:

تخللت الفترة الممتدة من ١٩١٤ إلى يومنا هذا تغيرات جذرية لعلَّ أبرزها كان الثورة الاشتراكية (١٩١٧) وانفجار أول قنبلة وقيام الأمم المتحدة، وصعود الإنسان لأول مرة إلى الفضاء وحركة تحرير الشعوب المستعمرة, ولذلك أطلق على هذا العصر اسم «عصر الذرة، وعصر الفضاء وعصر الشركات المتعددة الجنسية». أما فيما يتعلق بالمجتمع الدولي، فقد لعبت هيئة الأمم المتحدة دوراً مفصلياً في ظهور الدول الجديدة أي في حركة إعادة السيادة للدول المستعمرة سابقاً من طرف الدول الأوروبية, فقد صار المجتمع الدولي مجتمعاً عالمياً ومجتمعاً منظماً.

عصبة الأمم:

نشأت عصبة الأمم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وذلك للعمل على الحدّ من التسلح والمحافظة على السلم الدولي وتشجيع حل المنازعات الدولية بالطرق السلمية, وقد أبرم عهد العصبة في ٢٨ أبريل ١٩١٩ ويتكون من ٢٦ مادة.

١/ أهداف المنظمة:

من المبادئ التي قامت عليها (المنظمة) العصبة:

١- العمل على الحد من اللجوء إلى الحرب كوسيلة لحل المنازعات الدولية.

٢- تكون العلاقات بين أعضاء العصبة علانية ودائمة على أساس العدالة والشرف.

٣- تلتزم الدول الأعضاء بقواعد القانون الدولي العام وتراعيها في تصرفاتها.

٤- تعمل الدول على تحقيق العدالة واحترام الالتزامات الناجمة عن المعاهدات الدولية.

٢/ هيكل المنظمة:

يتكون هيكل عصبة الأمم من ثلاثة فروع وهي:

- الجمعية L'assemblée التي تضم ممثلين عن كل الدول الأعضاء.

- الأمانة العامة Secrétariat Général وتقوم بوظيفة الجهاز الإداري للعصبة ويتولى الإشراف عليها أمين عام يعينه المجلس بالإجماع.

- المجلس ويضم عدداً محدوداً ويشمل عدداً من الأعضاء الدائمين, وعدداً من الأعضاء غير الدائمين تنتخبهم الجمعية لمدة محددة.

المطلب الثالث: أشخاص المجتمع الدولي

الدولـــة:

• يُنظر إلى الدولة من عدة جوانب كونها ظاهرة تاريخية وسياسية واجتماعية وقانونية.

• هناك من ينظر إليها على أساس اعتبارها ظاهرة نظامية، فيعرّفها بأنها الإنسانية المنظمة.

المنظمة:

• هناك من ينظر إليها باعتبارها ظاهرة قوة على أساس أنها تقوم على وجود حاكمين ومحكومين.

• هناك من ينظر إليها من زاوية تاريخية، ويعتبرها ظاهرة طبقية ارتبط وجودها بوجود الصراع الطبقي من أجل تملّك وسائل الإنتاج.

• هناك من ينظر إليها من زاوية اجتماعية ويعتبرها قائمة على روابط اجتماعية معينة.

• هناك من ينظر إليها من زاوية قانونية، فيعتبرها التشخيص القانوني للأمة.

المنظمات الدولية: تتألف من أشخاص المجتمع الدولي وقد مرّت بمجموعة من المراحل حتى إرساء القوانين والمطالبة بالاحترام الدولي.

تعريف المنظمة الدولية: هي اتفاق بين مجموعة من الدول بأعمال ذات أهمية مشتركة, ولها ميثاق يحدد أغراضها ومبادئها, أما إيراداتها فهي من اشتراكات الدول, وترعى المصالح المشتركة.

ظهور فكرة التنظيم الدولي: كان الهدف هو البحث عن تنظيم دولي يرسي السلام, وظهرت في القرن ١٤ م, وأول مشروع لمنظمة دولية كان للملك فيليب ١٦٦٤

في القرن ١٨ حتى القرن ١٩ م بقيت في نطاق ضيق يهدف إلى وجود هيئة أوروبية بمنطق صليبي إلى محاربة السلام.

مشروع بياردو وبوا: كان يهدف لاسترداد الأرض

"شن الجيش الإسرائيلي حربا على ً قطاع غزة منذ السابعً من أكتوبر الماضي على خلفية اختراق مسلحي حماس للداخل الإسرائيلي بعملية عسكرية، إذ راح ضحيتها من الجانب الفلسطيني وفق بعض المراقبين، ما يزيد عن عشرة آلاف ضحية، وأكثر من خمسة آلاف منهم أطفال والكثير من النساء، فضلاً عما يزيد عن عشرين ألف جريح ومصاب، الآلاف منهم بحالات خطرة وجروح وحروق عميقة، علاوة على حالات بتر الأطراف"

المقدسة أورشليم وكانت له محاولات حروب أغلبها فاشلة.

مشروع الراهب وأيام ١٦٤٨: (العقد الاجتماعي) مشروع السلام الأوربي يرى أن الحرب جريمة إنسانية.

المجلس الاتحادي والهيئة العليا: حيث ترفع النزاعات للاتحاد, وقد يلجأ إلى القوة ضد الطرف غير المذعن والتصويت بالأغلبية ب:٤\٣ وقد أخذت منه هيئة الأمم المتحدة جميع أفكاره.

مشروع الفيلسوف بينتام ١٨٣٢/١٧٧٦: (كتابة مبادئ القانون الدولي) يهدف لإقامة مشروع دولي يحقق أكبر قدر من السعادة للمجتمع وهو مشروع السلام, يضم كل الدول ويحرّم الاستعمار والاتفاقات السرية, ويهدف لإنشاء محكمة عدل دولية ومجلس اتحادي تكون مناقشاته علنية.

انهيار القيم الإنسانية

شنَّ الجيش الإسرائيلي حربًا على قطاع غزة منذ السابع من أكتوبر الماضي على خلفية اختراق مسلحي حماس للداخل الإسرائيلي بعملية عسكرية, إذ راح ضحيتها من الجانب الفلسطيني وفق بعض المراقبين, ما يزيد عن عشرة آلاف ضحية. وأكثر من خمسة آلاف منهم أطفال والكثير من النساء, فضلاً عما يزيد عن عشرين ألف جريح ومصاب. الآلاف منهم بحالات خطرة وجروح وحروق عميقة. علاوة على حالات بتر الأطراف. والعاهات الدائمة إضافة لتدمير عشرات الآلاف من المنازل والشقق السكنية التي بات أصحابها بلا مأوى ويفترشون الأرض ويلتحفون السماء, سواء في مراكز الإيواء أو في بعض الشوارع وأمام مقرات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا).

لقد انهارت معاني الإنسانية ومعاني حقوق الإنسان ومصطلحات القانون الإنساني الدولي مع هذه الجرائم التي يمارسها ويرتكبها جيش الاحتلال الإسرائيلي المستمرة بحق الشعب الفلسطيني, ولا بد للمجتمع الدولي العمل على ضمان تنفيذ بنود الاتفاقيات الدولية من خلال المؤسسات الدولية, ويجب أن يتم التحرك الفوري لوضع حد لهذا العدوان ووقف حرب الإبادة.

والأمر ذاته يتكرر في إقليم شمال وشرق سوريا حيث الإدارة الذاتية الديمقراطية, والتي تُستهدف من قبل الدولة التركية على مرأى ومسمع العالم أجمع دون أن يحرك أحد ساكناً أويحثّ تركيا على عدم استهداف المدنيين, بل على النقيض من ذلك ذهب الأمر بتركيا لأبعد من ذلك, إذ باتت كل المنشآت الحيوية بما فيها البُنى التحتية والمؤسسات الخدمية في جدول الأهداف التركية بشكلٍ جلي, حيث قامت المسيَّرات التركية باستهداف غالبية المنشآت الحيوية من محطات توليد الكهرباء للمنشآت النفطية والكثير الكثير من المؤسسات الخدمية التي تتسم بالطابع المدني الخدمي, نظراً لما تقدمه من خدماتٍ للعامَّة, كل هذا دون أن يحرك العالم ساكناً حتى على صعيد بيان إدانة, وهذا ما يؤكد بطريقة أو بأخرى انهيار القيم الإنسانية على حساب بروز التجارة السياسية و البازارات والصفقات الملازمة لها على حساب ملايين المواطنين ممن باتوا بلا كهرباء ولا محروقات والكثير من الخدمات التي دُمِّرَتْ مؤسساتها نتيجة الاستهداف التركي المتكرر لها.

المراجع

- هايل عبد المولى طشطوش، مقدمة في العلاقات الدولية، جامعة يرموك، عمان الاردن، 2010.

- مارتن غريفيثس، وتيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، الطبعة 11.

- معاهدة وستفاليا ومبادئ العلاقات الدولية.

- نعمة كاظم هاشم، العلاقات الدولية، الجزء الأول، بغداد، 1989.

- هايل عبد المولى طشطوش، مقدمة في العلاقات الدولية، جامعة يرموك، ص34.

- محمد عابد الجابري، إشكالية الديموقراطية والمجتمع المدني في الوطن العربي، مجلة المستقبل، العربي،

عدد 176.

- محمد الغيلاني، المجتمع المدني - حججه، مفارقاته ومصائره، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع،

لبنان، 2004.

- عمر سعد الله، قانون المجتمع الدولي، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.

-1 عصبة الأمم http://ar.wikipedia.org/wiki/ http:// يوم 16 ديسمبر 2013.

دراسة في مفهوم التحولات الدولية الكبرى وسياسات الدول المفترسة في العالم والشرق الأوسط

جيهان مصطفى

المقدمة
مشكلة البحث- أهداف البحث -أهمية البحث -مصطلحات البحث
الفصل الأول: مفهوم الهمينة والتحولات الكبرى في العالم
أولاً: تطور مفهوم الهيمنة والتحولات الكبرى عند أنطونيو غرامشي
ثانياً: التغيرات الدولية والنظام العالمي
ثالثاً: النظام العالمي الجديد وقوى الهيمنة العالمية
الفصل الثاني: الشكل الحداثي للهيمنة والليبرالية الجديدة
أولاً: مبدأ الإقليم والدولة والأمة كمفتاح للهيمنة
ثانياً: مؤشرات التحولات الكبرى- المأسسة و طلاق السياسة والسلطة
ثالثاً: هيمنة الليبرالية الجديدة وقادتها
خلاصة البحث
المراجع والمصادر

مقدمة

الأزمة تتمثل بدقة في حقيقة أنّ النظام القديم يموت، والنظام الجديد يتعثر ميلاده في هذه الفترة الانتقالية كثيراً جداً من الأعراض المميتة، والشرور تظهر. وهذا وقت الشياطين والأشرار.

ففي فترة خلو العرش هذه تظهر مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعراض المرضية والأزمات والتحولات العميقة في السياسة والسيطرة والاقتصاد.

تم استخدام مصطلح "أنتيريغنام" أو "فترة خلو العرش" في الأصل للإشارة إلى الفاصل الزمني الذي يفصل بين وفاة الملك واستلام خليفته للعرش.

كانت هذه هي التحولات الرئيسية التي عاشتها الأجيال الماضية أيام الرومان وتسببت في حدوث خلل وأزمات في الاستمرارية الرتيبة للحكومات والأنظمة السياسية والقوانين والبنى الاجتماعية.

لقد وضع القانون الروماني ختماً رسمياً على هذا المصطلح ومرجعها عند مرافقة فترة التحولات المذكورة آنفاً[1]

نحاول في هذه الدراسة استلهام مقاربة إيتيمولوجية لمفهوم التحولات العميقة في البنى السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأنظمة وقوى الهيمنة العالمية، وإعادة صياغته وفق فكر أنتونيو غرامشي، ووصولاً إلى تحويره الجذري وانتاجه كأداة رئيسة كما نراها في يومنا الحاضر.

مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في الأسئلة التالية:

١- ما هي التحولات الكبرى وعلى ماذا تستند وما هي مبادئها؟

٢ -ما هي الأزمات التي تنتج خلال فترات التحولات الكبرى أنتيريغنام؟

٣- ما هي الآثار المترتبة على التحولات الكبرى؟

أهداف البحث:

تظهر أهداف البحث تناسقًا مع الأهداف التالية:

١- إيضاح مفهوم التحولات الكبرى و شرح تأثيراته المختلفة على المحيط السياسي والاقتصادي والاجتماعي وعلى المجتمعات والشعوب.

٢- شرح المفهوم الجوهري الذي طرحه غرامشي وهو مصطلح "interregnum" أي التغيرات التي تصيب الأنظمة القائمة لتصعد بدلاً عنها قوى أخرى مهيمنة.

٣- شرح التأثيرات المختلفة للتحولات الكبرى على المجتمعات والدول.

٤- التعريف بمصطلحات الهيمنة والتحكم والسيطرة.

أهمية البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة التطور النظري والمفاهيمي لمفهوم التحولات الكبرى "Interregnum" واستخداماته الراهنة بوصفه أداة مهمة في مجال التحليل السياسي المعاصر، ودراسة الجوانب المتعلقة بصياغة الاستراتيجيات السياسية الدولية، وهذه الدراسة تأتي كمحاولة لضبط معنى المفهوم، وإيضاح ما ينطوي عليه من أبعاد مهمة للتحليل السياسي المعاصر.

ويعتبر اليوم كأداة للتحليل والفعل السياسي الاستراتيجي من قبل توجهات سياسية قد تكون متضاربة أو متناقضة من حيث توجهاتها

١ Giorbio Agamben, Stato di Eccezione, Bollati Boringhieri. Torino. ٢٠٠٣. In English, State of Exception

المحافظة أو التغييرية.

مصطلحات البحث:

إيتيمولوجيا:

البحث الاشتقاقي للمفهوم, ولكن إيتيمولوجيا لا تقف عند هذا الحد أي أنها ليست فقط عودة بالمفاهيم إلى أصولها التي صدرت عنها, وإنما هي عودة من أجل القلب. إذ أن الأيديولوجيات والطوباويات المتعاقبة تطمس المعالم الأولى للمفهوم وتكسبه دلالات جديدة ومعان لم تكن تتوفر فيه من قبل.

الهيمنة:

يستخدم مصطلح الهيمنة لتحديد الدولة والقوة والأطراف التي تمارس قوة الهيمنة, أو المسؤولة عن نشر أفكار الهيمنة, ومن ناحية أخرى نجد مفهوم الهيمنة يعتبر أحد المفاهيم الهامة في العلاقات الدولية.

تهتم الدول المهيمنة بضمان موافقة الدول الأخرى وفقًا للتسلسل الهرمي للسلطات داخل هيكل الهيمنة بين الدول, ويبدأ ذلك بإشراك بعض دول المنطقة أولاً حيث يتم تأكيد دعمها, ثم يجري السعي للحصول على موافقة من بعض البلدان الأكثر هامشية على الأقل.

الدول المفترسة:

المقصود بالدول المفترسة تلك الكيانات والقوى الدولية الإقليمية التي تهدف إلى تحقيق مصالحها عبر مختلف الأساليب والوسائل، حيث أنها تبني قواعدها وتشكل مؤسساتها، وترسم سياساتها وأنظمتها وقوانينها بغرض تعزيز تلك المصالح الخاصة, وتدخل ضمنها السلطات المهيمنة داخل أنظمة حكمها، مثل الأسر الحاكمة والسياسيين والجيش، و الشركات الكبرى التي تتمتع بسلطات وقوى مؤثرة وفاعلة, وحتى الفصائل والأذرع التي تعمل لصالح تلك

"إن المفهوم العام للهيمنة والتحولات الكبيرة في النظم والقوى المهيمنة في العالم وفي السياق العريض للاهتمامات الفكرية والبحثية، مرتبط بشكل كبير باسم المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي (حتى باتا كأنهما صنوان، وعلى الرغم من أن إضافة غرامشي لمفهوم الهيمنة أمر لا يمكن إغفاله، إلا أنه ينبغي الأخذ في الحسبان أن الهيمنة كأداة استراتيجية للتحليل والعمل المهتم بآليات التغيير السياسي، لها تاريخ يسبق غرامشي كما أوضحت صفحات التاريخ والمهتمون في الشأن السياسي والجيوسياسي"

القوى المفترسة.

الخطاب السلطوي الغربي:

هو دراسة الظاهرة (الاستشراقية) بوصفها نوعاً من أنواع الخطاب الذي بنته المؤسسة الثقافية والسياسية المهيمنة في الغرب, لإيجاد بعد ثقافي وأخلاقي لحركات التوسع العسكري الاستعماري في الشرق، واحتلال أجزاء واسعة في قارة أفريقيا وقارة آسيا.

توازن القوى:

تدل هذه العبارة على حال لا تتفوق فيها دولة على أخرى وهي تعبّر عن سياسة ترويج تساوي القوى القائمة على افتراض أن عدم توازنها أمر خطير.

النظام الدولي مبني على عدم رجحان كفة دولة أو تحالف دولي على كفة الدول أو التحالفات الأخرى, إن ذلك يعزى بالهيمنة والعدوان، وبالتالي

فإن التوازن فى القوى يضمن عدم الإخلال بالدول وتوازي القوى بالتراضي بين الدول المعنية.

الفصل الأول : مفهوم الهيمنة والتحولات الكبرى في العالم

أولاً: تطور مفهوم الهيمنة والتحولات الكبرى عند أنطونيو غرامشي

إنّ المفهوم العام للهيمنة والتحولات الكبيرة في النظم والقوى المهيمنة في العالم وفي السياق العريض للاهتمامات الفكرية والبحثية, مرتبط بشكل كبير باسم المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي (١٩٣٧-١٨٩١) حتى باتا كأنهما صنوان. وعلى الرغم من أن إضافة غرامشي لمفهوم الهيمنة أمر لا يمكن إغفاله. إلا أنه ينبغي الأخذ في الحسبان أن الهيمنة كأداة استراتيجية للتحليل والعمل المهتم بآليات التغيير السياسي, لها تاريخ يسبق غرامشي كما أوضحت صفحات التاريخ والمهتمون في الشأن السياسي والجيوسياسي.

كما أنّ لها تطورات جذرية بالمعنى المنهجي وليس الزمني فقط. فيما بعد غرامشي كما سيتضح في بحثنا هذا. حيث يمكن القول إن هناك مدرستين في مقاربة فكر غرامشي ككل قدّمتا استخلاصاتهما مما أنتج في الأدبيات المعنية مقاربتين حول مناط أهمية إنتاجه الفكري بطريقتين مغايرتين تماماً, مخالفتين لمفهوم الهيمنة عند غرامشي.

لقد قدّمت المدرسة الأولى غرامشي باعتباره مفكراً إيطالياً في المقام الأول, تستمد إسهاماته النظرية معانيها من الخلفية التاريخية الخاصة بإيطاليا في العصر الحديث. وما أنتجته من تحديات فكرية وسياسية.

ويمكن إجمال هذه التحديات بتضافر عوامل أهمها:

- فشل مشروع "النهضة" الإيطالي الذي بدأ في القرن السادس عشر في بناء دولة قومية.

- وجود هوّة شاسعة ومتزايدة الاتساع بين الشمال الصناعي المتطور والجنوب الزراعي المتخلف.

- العداء الممتد والمستحكم بين الفاتيكان والدولة الإيطالية المركزية في روما, مما أدى إلى إضعاف عملية دمج الجماهير الكاثوليكية في الحياة السياسية الإيطالية.

- ضعف التطور الرأسمالي وتناقضه في إيطاليا داخلياً ومع محيطه.

وفي المحصلة النهائية نظرت هذه المدرسة إلى إسهامات أنطونيو غرامشي على اعتبار أنها إسهامات أصيلة في موضوع "التطور غير المتكافئ في أطراف النظام الرأسمالي. وأنها غير ذات صلة وثيقة بأوضاع الدول الرأسمالية المتقدمة كما كان الحال في أوروبا الغربية".

بينما نظرت المدرسة الثانية وهي الأكثر شيوعاً إلى فكر غرامشي فحسب, وهذه المدرسة تبني المفاهيم المركزية لفكر غرامشي - وأهمها مفهوم الهيمنة- على خصوصية التعقيدات التي تتسم بها أوضاع المجتمع المدني والنظام السياسي في المجتمعات الصناعية المتقدمة في الغرب. معتبرة غرامشي المنظّر الأكثر أهمية للتداعيات السياسية التي تلت إعادة هيكلة النظام الرأسمالي بعد أزمة الكساد العظيم في أواخر العشرينيات.

وما أعقبها من بروز دولة الرعاية الاجتماعية في ثلاثينيات القرن الماضي. وما أنتجه ذلك من تعقيدات في العلاقة بين البنية الاقتصادية والبنى السياسية والإيديولوجية, ولكن ما يهمنا في سياق هذا البحث هو جهود غرامشي من خلال إسهاماته الجذرية في إعادة صياغة مفهوم الهيمنة.

فهذا المفهوم بات في ضوء إضافات غرامشي يحمل مضامين تتجاوز بصورة جذرية فكرة

التحالف الطبقي المرحلي.

لقد طور غرامشي مفهوم الهيمنة والقدرة في ضبط التحولات الكبيرة والعميقة في عالم السياسة والسيطرة، وجعل منه حجر الزاوية لشرح وتحليل سياسي قابل للتوظيف عند تناول أوضاع الدول المتقدمة صناعياً والدول النامية على حد سواء، و بالتالي أفسح المجال باتجاه الدفع نحو تعويم المفهوم، وفصله عن أي مرجعية بعينها سواء سياسية أو تشكيلة اجتماعية، أو اقتصادية رأسمالية.

يمكن القول بأن هذه المقاربة تبتعد عن النظر إلى الهيمنة على أنها استحواذ على موقع قيادي ضمن إطار مستقر من تراتبية القوة كما هو شأن التوظيف السائد في بعض نظريات علم الاجتماع والعلاقات الدولية، وإنما تصيغ المفهوم لتجعله مرادفاً لعملية تشكيل سلسلة من علاقات التكافؤ بين مطالب ومواقع وذوات اجتماعية مختلفة تنتج عنها صياغة هوية سياسية جماعية في سياق نزاعي يستمد ديناميكيته من وجود حدود فاصلة، وذات طبيعة متحركة. (٢)

ثانياً: التغيرات الدولية والنظام العالمي:

إنّ التغيرات التي تحدث عنها أنطونيو غرامشي والتي تصيب الأنظمة القائمة لتصعد بدلاً عنها قوى أخرى مهيمنة من خلال الفكرة التي أراد إيصالها إلى العالم, بدلاً من استخدام مصطلحات الهيمنة والاحتلال وصراع الدول فيما بينها, ولتوصيف الفترات التاريخية التي نتجت عنها تغيرات وتحولات كبرى في البنى السياسية والاقتصادية على صعيد العالم وأوروبا ومنطقة الشرق الأوسط.

يمكننا الحديث عن المراحل التالية:

"لم يكن كتابه نهاية التاريخ ذا طابع علمي يمهّد إلى تعميق البحث والدراسة الإنسانية والاجتماعية انطلاقاً من الواقع الإنساني الحضاري في العالم المعاصر، بقدر ماكان بياناً نظرياً وخطاً سياسياً الهدف منه تبرير توجه العولمة و تمرير فرض النظّام العالمي الجديد الذي تسعى القوى المهيمنة إلى فرضه على العالم أجمع،حيث اعتبر أن الرأسمالية المتوحشة هي التي أنجبت العولمة"

١. مرحلة نشوء توازنات بعد ثورات داخل البنى السياسية الأوروبية بين عامي ١٨٤٥-١٨٧٥:

وهي تعتبر تعبيراً حقيقياً عن مرحلة التحولات الكبرى وفترات الهيمنة، حيث انتشرت المذاهب الاقتصادية المتوافقة مع السيادة البريطانية على كامل الجغرافيا الأوروبية، وأخذ منحى عالمياً حيث انتشرت تدريجياً خارج بريطانيا, ودعمت القوة القسرية هذا الأمر.

لقد حافظت بريطانيا على توازن القوى الاقتصادية والسياسية في أوروبا، وبالتالي منعت أي تحد للهيمنة من قبل أي قوة ثانية، وكان لبريطانيا سيطرة مطلقة على البحار الدافئة و فرضت الطاعة على الدول المحيطية لقواعد الاقتصاد في العالم.

٢١ - أسعد صالح الشمران، الهيمنة دراسة في تحولات المفهوم،الرياض ٢٠١٨

"المبدأ يميل إلى أن يتم توضيحه بأثر رجعي في أعقاب قرار التخصيص أو مستمد من الوضع المنجز بالفعل. الدول القومية تجد نفسها تقاسم الشركة المليئة بالصراعات والمشاكسة من الأشخاص الفعليين أو الطموحين أو رعايا ذوو سيادة متظاهرين، لكنهم يتنافسون دائماً بشكل شرس مع الكيانات التي نجحت في التهرب من تطبيق المبدأ الثلاثي الملزم حتى الآن "التخصيص"، وفي كثير من الأحيان يتم تجاهله بشكل صريح أو إضعافه بشكل خفي"

٢. مرحلة التحولات الكبرى والعميقة في أوروبا بين عامي ١٨٧٥-١٩٤٥

في هذه الفترة الزمنية الطويلة ظهرت قوى منافسة لبريطانيا. لقد تحدت دول أخرى السيادة البريطانية وبالتالي تزعزع ميزان القوى في أوروبا، مما أدى إلى حربين عالميتين مدمّرتين.

حيث تفتّت الاقتصاد العالمي إلى تكتلات اقتصادية وكذلك ظهرت أحلاف سياسية وعسكرية كبيرة عالمية وكانت فترة غير مهيمنة.

٣. مرحلة التوازن الدولي وبدء النظام العالمي متعدد الأقطاب بين عامي ١٩٤٥-١٩٦٥:

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أسست القوى المنتصرة في الحرب أنظمة هيمنة جديدة متل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة, حيث أنشأت أنظمة مهيمنة كان هيكلها الأساسي مشابهاً للهيمنة البريطانية في منتصف القرن التاسع عشر. ولكن أكثر تعقيداً في الرؤية الاقتصادية وكذلك للتحالفات السياسية والمجتمعات الوطنية التي كانت الأكثر حساسية للتداعيات السياسية للأزمات الاقتصادية.

٤. مرحلة هيمنة النظام العالمي ذي المحورين والحرب الباردة بين عامي ١٩٦٥-١٩٩٠م

في هذه المرحلة ما بين نهاية الستينيات وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م، أصبح من الواضح أن النظام العالمي القائم على أساس القطبين لم يعد يعمل بشكل صحيح, فخلال السنوات غير المؤكدة التي تلت ذلك، ظهرت ثلاثة احتمالات للتحول الهيكلي للنظام العالمي:

- إعادة بناء الهيمنة مع توسيع سياسات الإدارة على غرار الخطوط التي تصورتها اللجنة الثلاثية.

- تفكك أكبر للاقتصاد العالمي حول المجالات الاقتصادية المتمركزة في القوى العظمى.

- نشوء القوى المضادة التي قام بها العالم الثالث والتي كانت بمثابة مقدمة للمطلب المشترك لنظام اقتصادي دولي جديد.

٥- مرحلة الهيمنة الأحادية بعد انتهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م وإلى يومنا:

في هذه المرحلة وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م، تحولت عمليات الهيمنة وظهرت ملامح النظام العالمي القائم على أساس السيطرة المطلقة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وعبر التحالفات الكبرى مع الشركاء الأوروبين وبريطانيا وأستراليا واليابان .

توضّح نطاق المجال الذي سادت فيه الهيمنة الأحادية المرتبطة بترسيخ قواعدها في جميع المناطق الحيوية الكبرى مع تطور وتنامي أساليب وأدوات الحروب والثورة الرقمية القائمة على

الاتصالات والمعلومات والعسكرة. (٣)

ثالثاً: النظام العالمي الجديد وقوى الهيمنة العالمية

لقد قام المفكر الأمريكي «فرانسيس فوكوياما» بتوضيح الإطار النظري الإيديولوجي والسياسي للنظام العالمي الجديد، والتي انطوى على الخلفية النظرية الفلسفية التي تستند إليها إيديولوجيا العولمة وسياستها الليبرالية في الاقتصاد, وفي ممارسة السلطة و الحكم في الحياة الاجتماعية الفكرية والثقافية عامة.

و لم يكن كتابه نهاية التاريخ ذا طابع علمي يمهّد إلى تعميق البحث والدراسة الإنسانية والاجتماعية انطلاقاً من الواقع الإنساني الحضاري في العالم المعاصر, بقدر ماكان بياناً نظرياً وخطاً سياسياً الهدف منه تبرير توجّه العولمة و تمرير فرض النظام العالمي الجديد الذي تسعى القوى المهيمنة إلى فرضه على العالم أجمع,

حيث اعتبر أن الرأسمالية المتوحشة هي التي أنجبت العولمة، وما ترتب عنها من تداعيات خطيرة على حياة الإنسان ،هذا على الرغم من التحولات الكبرى السياسية والاقتصادية التي عرفتها الساحة الدولية, ومنه توجه دول المعسكر الشرقي صوب الديمقراطيات واقتصاد السوق والتعاطي بما يرضي الغرب مع العولمة والنظام العالمي الجديد.

وفي الاتجاه المعاكس هناك رؤية سياسية و إيديولوجية ذات أبعاد فلسفية تحدد مشروعية مرتكزات المرحلة التاريخية الراهنة ومحدداتها وموجهاتها، المرحلة التي تتسم بسيطرة منتجات الحداثة الأوروبية الحديثة والمتمثلة في التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل في الرأسمالية والديمقراطية, وفيما أفرزته الحرب العالمية الأولى والثانية وفي عجز اليسار في الاستمرار.

إنّ رؤية «فرانسيس فوكوياما» على كون الديمقراطية الليبرالية هي «نهاية التاريخ» الذي يتحرك ليس بفعل العنف بل بدافع الرغبة في الرؤية «بالتيموس» ونجاح الديمقراطية الشديدة للاعتراف. هذا المحرك الأساسي لتاريخ الليبرالية حيث يتم بالتقدم العلمي والتكنولوجيا, وينبغي التأسيس للعلم والتكنولوجيا في المجتمع لبناء الديمقراطية الليبرالية في الحياة السياسية والاقتصادية, فينهض المجتمع بمشاركة الشعوب الفعلية.

إنّ تطور التاريخ البشري كصراع بين الإيديولوجيات قد انتهى إلى حد كبير مع استقرار العالم على الديموقراطية بعد الحرب الباردة، وسقوط جدار برلين سنة ١٩٨٩، وتوقعه لانتصار الليبرالية السياسية والاقتصادية(٤)

لم يأبه « فرانسيس فوكوياما» بالتحولات المتسارعة في العالم في ظل العولمة والنظام العالمي وما سببته من أزمات على المستوى الاقتصادي والمالي، ليس في العالم المتخلف فحسب بل امتد تأثيرها إلى البلدان المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في الاقتصاد العالمي, وخلال السنوات العشر الأخيرة ظهرت مآلات سياسية تقول إن أي شيء يتعارض حسب وجهة النظر المتوافقة مع الاستنتاج القائل إن الديمقراطية المتحررة والنظام الاقتصادي الذي يتحكم في السوق هما البديل الوحيد النافع للمجتمعات الحديثة.

وفي هذا السياق تمّ النظر إلى الأزمات التي عصفت باقتصاديات البلدان الآسيوية وروسيا، وتراجع الديمقراطيات وتنامي الأنظمة القمعية والديكتاتورية, وانتشار الحروب الأهلية في مناطق شتى من العالم، وانتشار اتجاهات العولمة بالمنظور الحداثي الغربي قد تجذّر وتوطّد لسببين

٣- روبرت كوكس، غرامشي الهيمنة والعلاقات الدولية، مجلة الدراسات الدولية، بغداد ١٩٨٣م

٤- فرانسيس فوكوياما، عشر سنين على نهاية التاريخ، ترجمة النصف الشنوني، دار الثقافة العربية، المجلس الوطني الكويت، ٢٠٠٢م

”تحولت السلطة بالفعل إلى العالمية؛ لكن السياسة ظلت محلية كما كانت من قبل، ووفقاً لذلك، تظل السلطات الأكثر أهمية حالياً بعيدة عن متناول السياسيين الموجودين في المؤسسات، في حين أن إطار المناورة في سياسات الدولة الداخلية مايزال قائماً على مبدأ الخمول أو الانكماش. إن حالة الهيمنة العالمية تتأثر الآن بتجمعات مخصصة من قوى متنافرة غير مقيدة بالسيطرة السياسية بسبب تزايد السلطة و قلة المؤسسات السياسية الموجودة“

أساسيين:

١- غياب نموذج تنموي بديل يعبّر عن تطلعات المجتمعات بصورة حقيقية غير تابعة لهيمنة النظام العالمي الجديد.

٢- الثورة التقنية المعلوماتية وما نتج عنها من تطور في جميع أدوات وأساليب الهيمنة. (٥)

وبعد ذلك جاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وأنتجت نظرية جديدة لصراعات عالم ما بعد الحرب الباردة.

إن من الأسباب التي جعلت الكثير من الدول تعيش ثورات أو انقلابات أو أي نوع من الاضطرابات المصاحبة لتغيير النظام السياسي، الوقوف في «منطقة رمادية» حيث السلطوية المترافقة بالديمقراطية المتوافقة مع قادة منتخبين, ولكنهم مشغولون بشراء وسائل الإعلام أو إغلاقها، والتضييق على المعارضة، والتلاعب بالانتخابات، والاستيلاء على مؤسسات الدولة إزاء قدرتها على تقديم وشخصنة شروط الحياة السياسية.

وهو ما خلق أزمات مترافقة بالقلق على الخدمات الأساسية التي تتوقعها الشعوب عادة من حكوماتهم، لأن الفشل في تطبيق وعود أي نظام سياسي هو أكبر تحدياته الوجودية قبل أي شيء آخر.

فالديمقراطية الليبرالية ليست مجرد صندوق اقتراع, بل حزمة معقدة من المؤسسات التي تقيد وتنظم السلطة بالقانون وبنظام من التوازنات والضوابط.

هذه الاضطرابات مشاهدة في الشرق الأوسط وأميركا اللاتينية وأجزاء من أوروبا الشرقية وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى والجزر الصغيرة في المحيط الهادي (الباسفيكي).

ومع ذلك، قال غرامشي: ”غرس مفهوم ”انتيرينغام “ مرحلة التحولات بمعنى جديد، يشمل نطاقاً أوسع للنظام الاجتماعي والسياسي والقانوني، مع الوصول في الوقت نفسه إلى عمق أكبر للحالة الاجتماعية والثقافية“. أو بالأحرى، في تعريف ”الوضع الثوري“ بأنه الوضع الذي لا يستطيع فيه الحكام ولم يعد بإمكانهم أن يحكموا, بينما لم يعد المحكومون يرغبون في أن يُحكموا.

فصل غرامشي هذه الفكرة ”انتيرينغام “ مرحلة التحولات من ارتباطها المعتاد بفترة انتقال السلطة بالوراثة أو بالانتخاب.

لقد أرفقها بالاستثنائية المواقف التي يفقد فيها الإطار القانوني القائم للنظام الاجتماعي قبضته وقدرته على ذلك ولم يعد يصمد، في حين أن الإطار الجديد مصنوع على مقياس ما ظهر حديثًا في الظروف المسؤولة عن جعل الإطار القديم عديم الفائدة، ولا يزال في مرحلة التصميم.

٥ - صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، نيو يورك ترجمة طلعت الشايب، ١٩٩٦م

في الواقع، تمامًا كما افترض جرامشي، «العجوز يموت». النظام القديم تأسس حتى وقت قريب على "ثالوث" مماثل. (٦)

الفصل الثاني

الشكل الحداثي للهيمنة العالمية والليبرالية الجديدة

أولاً: مبدأ الإقليم والدولة والأمة كمفتاح للهيمنة

من مبدأ أن السيادة والسلطة مرتبطة بالسياسة الإقليمية للدولة القومية، باعتبارها الوكالة التشغيلية الوحيدة لها، فهي تحتضر الآن، ولم تعد السيادة ملتصقة بأي من عناصر المبدأ والكيانات الثلاثية في أقصى الحدود. إنها مربوطة بها ولكن بشكل غير محكم وفي أجزاء أصغر بكثير من حيث الحجم والمحتويات، ومع ذلك، فإن الزواج غير القابل للكسر بين السلطة والسياسة قد انتهى إلى الانفصال مع احتمال الطلاق.

إن السيادة في أيامنا هذه، إذا جاز التعبير، أصبحت غير مثبتة وعائمة بحرية|، ولها معايير يميل التخصيص إلى التنازع عليه بشدة، في حين أن التسلسل العرفي للمبدأ يتم عكس التخصيص وتطبيقه في عدد كبير من الحالات.

المبدأ يميل إلى أن يتم توضيحه بأثر رجعي في أعقاب قرار التخصيص أو مستمد من الوضع المنجز بالفعل.

الدول القومية تجد نفسها تقاسم الشركة المليئة بالصراعات والمشاكسة من الأشخاص الفعليين أو الطموحين أو رعايا ذوو سيادة متظاهرين، لكنهم يتنافسون دائمًا بشكل شرس مع الكيانات التي نجحت في التهرب من تطبيق المبدأ الثلاثي الملزم حتى الآن "التخصيص"، وفي كثير من الأحيان يتم تجاهله بشكل صريح أو إضعافه بشكل خفي.

وتتزايد أعداد المتنافسين على السيادة باستمرار بالفعل، حتى لو لم يكن منفردًا، فمن المؤكد أن كلًا على حدة، قوة دولية قومية متوسطة، الشركات المالية والصناعية والتجارية متعددة الجنسيات مسؤولة الآن، وفقًا لـ جون جراي "لنحو ثلث الإنتاج العالمي وثلثي التجارة العالمية(٧).

لم يتوقع جون غراي أن يؤدي المستقبل إلى حالة مختلفة بشكل ملحوظ؛ وكما كان الحال في الماضي، يمكننا أن نتوقع «سلسلة من الحالات الطارئة والكوارث والأحداث وهي هفوات عرضية في السلام والحضارة.

لم تكن المجتمعات متزامنة مع عدد سكان الكوكب بحد ذاتها، وبالتالي فإن مراحل التحولات العميقة الكبرى كانت تعتبر أوقات عدم اليقين، وفي حين تثير الكثير من الأسئلة، ثلاثة منها تبدو ذات صلة بشكل خاص بمعالجتها في زمن السلطات والأنظمة، حيث لم يعد بإمكانهم أن يحكموا ولم يعد المحكومون يرغبون في أن يُحكموا؛ على مبدأ السيطرة والتحكم.

ثانياً: مؤشرات التحولات الكبرى... المأسسة وطلاق السياسة والسلطة

إن الانفصال التدريجي يميل بشكل غير مريح نحو طلاق بين السلطة والسياسة، حيث يبدو أن الاثنين لا ينفصلان كشركاء، أو الذين اعتقدوا وافترضوا الإقامة داخل الدولة القومية الإقليمية، وقد أدى هذا الانفصال إلى عدم التطابق بين مؤسسات السلطة ومؤسسات السياسة.

٦٦. Keith Tester, 'Pleasure, Reality, the Novel and Pathology', Journal of Anthropological Psychology 21(2009), no. 21

٦٧. John Gray, Gray's Anatomy: Selected Writings (London: Allen Lane, (2009), no 231.

لقد تحولت السلطة بالفعل إلى العالمية؛ لكن السياسة ظلت محلية كما كانت من قبل, ووفقاً لذلك, تظل السلطات الأكثر أهمية حالياً بعيدة عن متناول السياسيين الموجودين في المؤسسات, في حين أن إطار المناورة في سياسات الدولة الداخلية مايزال قائماً على مبدأ الخمول أو الانكماش.

إن حالة الهيمنة العالمية تتأثر الآن بتجمعات مخصصة من قوى متنافرة غير مقيدة بالسيطرة السياسية بسبب تزايد السلطة و قلة المؤسسات السياسية الموجودة.

في أوروبا الغربية باتت الحداثة الأوروبية مثلها مثل أي حداثة أخرى, وومع ذلك لا يوجد سوى خط رفيع بينها وبين فقدان الهوية الثقافية لمنع المعاشرة بين السكان الأصليين والمهاجرين الجدد, ومن أجل منع حصول تآكل التراث الثقافي, تعمل الحكومات الأوروبية على بناء قوانين تقوم على "العقد الاجتماعي الأوروبي".

فالمهاجرون على سبيل المثال, يساهمون حالياً بنسبة ١١٪ من الناتج الإجمالي الإيطالي "الناتج الوطني (GNP), مع ذلك, ليس لهم الحق في التصويت في الانتخابات الإيطالية, بالإضافة إلى ذلك, لا يمكن لأحد أن يكون متأكدًا حقًا من حجم عدد الوافدين الجدد الذين لا يحملون أي بطاقة أو أوراق أو مستندات مزورة ممن يساهمون بشكل فاعل في المنتج الوطني وبالتالي إلى رفاهية الأمة.

كيف يمكن للاتحاد الأوروبي أن يقوم بالسماح بمثل هذا الوضع, من حيث هو وضع سياسي واقتصادي واجتماعي بحيث يتم حرمان جزء كبير من السكان من حقوقهم, دون تقويض حقوقهم في المبادئ الديمقراطية.

إن الدور المنقذ للحياة الذي يلعبه المهاجرون في أوروبا التي تشهد شيخوخة سريعة, لا يجرؤ سوى عدد قليل من السياسيين ـ إن وُجد ـ على التطرق إلى الأمر, أو صعود كراهية الأجانب بدعم من السلطة, فهل يتم إعادة تدوير المشاعر بفارغ الصبر إلى رأس مال انتخابي بعد فوزهم الباهر في الانتخابات المحلية؟.

ثالثاً : هيمنة الليبرالية الجديدة وسياساتها وقادتها

يمكن الحديث عن التداعيات الكبيرة على العالم والتي كانت في نهاية فترة السبعينات من القرن العشرين, إيذاناً بفترة ٢٥ عاماً من الهيمنة النيوليبرالية التي أطلق عليها فيما بعد اسم الاعتدال الكبير, حيث أن معدلات النمو الاقتصادي لم تتعاف ولم تصل إلى المستويات المعروفة في فترة ما بعد الحرب, أو حتى السبعينيات, وتراجع العمل المنظم في الثمانينيات والتسعينيات, وصعدت العمالة المنظمة.

لقد سمح قادة الطريق الثالث المؤيدين لقطاع الأعمال في الديمقراطيات الاجتماعية, بوضع الهيمنة الطبقية, هيمنة الأفكار النيوليبرالية, وفي عالم لا توجد فيه بدائل, حظيت بدعم كبير.

والسؤال إذاً: هو ما إذا كان عالم ما بعد عام ٢٠٠٨ قادراً على التأهل لفترة خلوّ العرش, أم أننا نستطيع ذلك بكل بساطة لنشهد شكلاً جديداً من الليبرالية الجديدة.

إن صعود السياسيين المناهضين للمؤسسة في القالب وعلى عكس ما سبق ومع دورات الاحتجاج, يبدو أن هذه الموجة قد تضافرت في شكل سياسي قادر على الأخذ على أرض الواقع, ومن المحتمل أن يستولي على سلطة الدولة, أو ينجح فعلياً.

وفي الوقت نفسه يبدو أن هناك انقساماً متزايداً بين النخب الحاكمة, حيث في النيوليبرالية قد حل إجماع الاعتدال الكبير محل الخلاف والقلق المتزايد, وهناك نوعان من الاستراتيجيات المتميزة يمكن تمييزها في هذه المرحلة من سطوة وسيطرة الليبرالية الحداثية الجديدة وهي:

- شكل من أشكال التقشف المستمر لخفض الأجور و تقليص القطاع العام بشكل كبير, حتى تقترب الظروف المعيشية في العالم المتقدم من نهايتها كحالة الطبقات الوسطى الصاعدة في الصين والهند.

- الحفاظ على الحاجة إلى الحد من عدم المساواة من خلال شكل ما من أشكال إعادة التوزيع, والانتقال الذي يقوده الاستثمار إلى اقتصادات أكثر نمواً.

حتى الآن تبدو هذه الاستراتيجية الأخيرة غامضة مثل البدائل الجذرية, ولكن الاضطرابات بدأت في أزمات كبيبرة بعد التغيرات الكبيرة في الشرق الأوسط والعالم وإثر الحرب الأوكرانية الروسية والصراعات في جنوب آسيا وعلى الطرق التجارية الحيوية, وقد يستغرق الأمر سنوات عديدة حتى تتمكن من اللعب بنفسها.(٨)

لم تغب الاعتبارات السياسية الاستراتيجية بالإضافة إلى الأهمية الاقتصادية للتكتلات الاقتصادية والسياسية الناشئة التي تم تأسيسها من قبل روسيا والصين . فقد حرصت على إظهار وحدة صفها بشأن القضايا الدولية الكبرى وإثبات وزنها المتزايد في العالم, خاصة ما يجري في منطقة الشرق الأوسط.

لم تعد مصطلحات قوى الهيمنة العالمية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية التي تعدّ مركز المراكز مسيطرة في العالم, ولم تعد الموازن للتوظيفات الإنتاجية التي يموّلها, وبدت عليها علامات تدفعها إلى مقدمة المسرح المتناقض المتصاعد بين المركز والأطراف المسمى شمالاً متقدماً وجنوباً نامياً أو متخلفاً, ويلاقي المركز انطواءً على نفسه بسبب شيخوخته كما هو الحال في أوروبا الغربية نتيجة تراكمات لا يسع بحثنا للحديث عنها, تاركاً الأطراف لمصيرها,

٨ - زيجمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة بثينة إبراهيم، سعد البازعي، هيئة أبو ظبي للثقافة، ٢٠١٦م

"لم تعد مصطلحات قوى الهيمنة العالمية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية التي تعدّ مركز المراكز مسيطرة في العالم, ولم تعد الموازن للتوظيفات الإنتاجية التي يموّلها, وبدت عليها علامات تدفعها إلى مقدمة المسرح المتناقض المتصاعد بين المركز والأطراف المسمى شمالاً متقدماً وجنوباً نامياً أو متخلفاً, ويلاقي المركز انطواءً على نفسه بسبب شيخوخته كما هو الحال في أوروبا الغربية نتيجة تراكمات لا يسع بحثنا للحديث عنها"

ويبقى التساؤل هل الشمال المتطور كما يتم وصفه قادر على الاستغناء عن الجنوب والدول النامية وهل باتت من الماضي؟. اليوم نرى الكثير من الكيانات والقوى والتنظيمات مثل منظمة التجارة العالمية, وصندوق النقد الدولي, وتدخلات كبيرة من قبل حلف شمال الأطلسي, وفوق ذلك تنتكر بذاتها لجوهر البرجوازية لصالح خطاب جديد حداثي برجوازي يتم التحكم به وضبطه من قبل قوى مهيمنة.

الخلاصة

نظرية انتي نغرام هي أن فكرة فترة التحولات الجدرية الكبرى, بالطبع, في الأصل مصطلح يشير إلى فترات حدوث أزمات السلطة بعد انهيار القديم وصعود الجديد بديلاً عنه.

إذا فقدت الطبقة الحاكمة إجماعها, أي أنها لم تعد «تقود» بل فقط «المهيمنة" التي تمارس القوة القسرية وحدها, وهذا يعني بالضبط أن

الجماهير قدأصبحت منفصلة عن أيديولوجياتها التقليدية. ولم تعد كذلك يصدقون ما كانوا يؤمنون به سابقاً. وما إلى ذلك.

الأزمة تكمن بالتحديد في حقيقة أن القديم يموت والجديد لا يمكن أن يولد؛ في فترة التحولات الكبرى هذه تظهر مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأعراض المرضية.

لا يتم تعريف فترات التحولات الكبرى من خلال الافتقار إلى المشاريع الأيديولوجية. بل من خلال العديد من المشاريع المتنافسة التي تتمتع جميعها بالدعم الكافي في المجتمع لتظل قابلة للحياة.

على هذا النحو لا يوجد سياسة واحدة, والاستراتيجية الاقتصادية قادرة على تحقيق وضع الهيمنة.

وهكذا تحدث التحولات الكبرى مع قدوم أزمة النظام الاقتصادي والأيديولوجي القائم. ويبدو أن استراتيجيات حل الأزمة وإقامة هيمنة جديدة هي المنتصرة.

وعلى النقيض من المفاهيم الأخرى عند غرامشي، فإن مفهومه عن فترة التحولات الكبرى لم يحظ باعتراف كبير في أدب الدوائر العلمية. وكانت هناك محاولات قليلة جدًا لتطوير هذا المفهوم.

وأخيراً, في مقال نشر عام ٢٠١٠ حول وجهات نظر نظام بريتون وودز الجديد. استخدم إيريك هيلينر هذا المفهوم في نموذج إنشاء نظام مالي عالمي جديد عبر صعود القوى الحداثية المسيطرة عبر الليبرالية الجديدة المتمثلة في دعم الدول المهيمنة والإقليمية المفترسة.

المراجع :

المراجع العربية:

1 - أسعد صالح الشمران، الهيمنة دراسة في تحولات المفهوم، الرياض 2018

2- روبرت كوكس ، غرامشي الهيمنة والعلاقات الدولية ، مجلة الدراسات الدولية، بغداد 1983م

3-فرانسيس فوكوياما ، مقالة، عشرسنين على نهاية التاريخ، ترجمة املنصف الشنوني، دارالثقافة العربية ، المجلس الوطني الكويت ، 2002م

4- صامويل هنتنجتون ، صدام الحضارات ،إعادة صنع النظام العالمي، نيو يورك ترجمة طلعت الشايب، 1996م

5- زيجمونت باومان، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة بثينة إبراهيم، سعد البازعي، هيئة أبو ظبي للثقافة، 2016م

المراجع الأجنبية:

6- Keith Tester, 'Pleasure, Reality, the Novel and Pathology', Journal of Anthropological Psychology 21(2009), no. 21

7- John Gray, Gray's Anatomy: Selected Writings (London: Allen Lane, (2009), no 231.

8- Giorbio Agamben, Stato di Eccezione, Bollati Boringhieri Torino. In English, State of Exception 2003

الماسلوية، إعادة تشكيل هرم الاحتياجات وفق فلسفة الحداثة الغربية

الماسلوية النظرية والتطبيق الحداثي

إسماعيل خالد

المقدمة

مشكلة البحث- أهداف البحث

أهمية البحث- مصطلحات البحث

الفصل الأول: تصنيف الاحتياجات حسب أبراهام ماسلو

أولاً : الترتيب الهرمي للحاجات البشرية

ثانياً : المنافسة والصراعات، وتأثيراتها المباشرة على الأمن الاقتصادي وهرم الاحتياجات

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأمن الاقتصادي

الفصل الثاني: قوى الهيمنة العالمية ودورها في صناعة الأزمات

أولاً : سياسات التحكم والسيطرة والليبرالية الجديدة

ثانياً: الشرق الأوسط ودور قوى الهيمنة العالمية على هرم الاحتياجات

ثالثاً: الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها على الأمن الاجتماعي والغذائي لدول الشرق الأوسط

الفصل الثالث: نماذج من الأطروحات الحداثية المهيمنة المؤثرة في ترتيب هرم الاحتياجات

أولاً : نادي الأغنياء العالمي (دافوس)

ثانياً: مبادرة الحزام والطريق الصيني

ثالثاً: منظمة شنغهاي للتعاون

رابعاً: مجموعة دول البريكس ودورها في الهيمنة

خامساً: مشروع طريق التوابل الهندي

خلاصة البحث

المراجع والمصادر

المقدمة:

لقد تركزت اهتمامات المجتمعات ومنذ بدء الحياة على تأمين مقومات الحياة وحمايتها, وهناك الكثير من الأدلة الأثرية التي تركتها الأقوام والمكتشفات الأثرية للكثير من الحضارات التي تذكر من خلال رسوماتها أثرها على ما ذكرناه .

وتطورت تلك الفكرة عبر الزمن لتاخذ أبعاداً أكبر وتشمل مجالات أكثر وتدخل ضمن سياقات البحث والتنظيم, وفيما بعد ذلك ظهرت مدارس وأكاديميات وباحثون وتركزت أبحاثهم على دراسة الاحتياجات البشرية, ومن بين أبرز الشخصيات التي قامت بتحليل ودراسة الاحتياجات البشرية كان "أبراهام ماسلو".

قام أبراهام ماسلو بتحليل ودراسة احتياجات البشر عن طريق وصفها في شكل هرم, حيث يقبع في قاعدة الهرم الحاجات الفسيولوجية أو ضروريات الحياة من مأكل ومشرب وجنس وغيرها, وتصف قمته الحاجة لتحقيق الذات أو إنجاز كوامن, وتحقيق الرضا عن الوجود .

ويؤكد ماسلو على ضرورة المحافظة على إشباع الحاجات الأساسية في قاعدة الهرم قبل أن يسعى لإشباع الحاجات المتقدمة, من ذلك مثلاً أن يصار إلى إشباع الحاجة المتولدة عن الإحساس بالجوع قبل التفكير في زراعة المحاصيل الزراعية, أو إقامة المصانع, وعمليات تصنيع المنتجات التي تصنف ضمن الحاجات الاجتماعية .

وينشد الفرد كذلك أن يكون مقبولاً في وسط اجتماعي وأن يشعر بأنه معتبر وذو قيمة, ويكسب ثقة الآخرين قبل أن يسعى لتحقيق ذاته. ويسمي ماسلو الحركة باتجاه الصعود للأمام أو أعلى الهرم بالتقدم (Progress) وعلى النقيض فالحركة باتجاه أسفل الهرم أو التراجعيسميها بالتخلف (Regression).

وفي ظل المتغيرات والظروف والتداخلات والصراعات مختلفة الأوجه من قبل قوى الهيمنة العالمية, تغيّر هرم الحاجات بدرجة كبيرة جداً نظراً لتوسّع رقعة الحروب والصراعات, والانتشار الكبير للأوبئة والمشكلات البيئية التي تعاني منها الطبيعة بسبب تدخلات البشر, وتسارع وتيرة الإنتاج الصناعي السلبي لأدوات تدمير البيئة المحيطة بالإنسان, مثل المواد السامة التي تدخل في صناعة الأسلحة وكذلك المبيدات والمواد الضارة, وتغير كبير في ثقافات العالم والشعوب والمجتمعات .

لذلك كان لا بد من تسليط الضوء على هذا الموضوع لما يشكله من قضايا تهم البشرية نظراً لما يتعرض له البشر من آثار تلك التدخلات الفظّة من قبل تلك القوى المهيمنة .

مشكلة البحث:

إن ترابط وتفاعل النسق السياسي الدولي

في مستوياته المحلية والإقليمية والعالمية مع نسق العلاقات الاقتصادية والسياسية في نفس المستويات, يضع الباحثين والمعنيين أمام صعوبات عديدة في تقديم إجابات سليمة وكاملة عن المشاكل التي يبحثون عنها في موضوع إعادة ترتيب هرم الاحتياجات أو الحاجات, مثل مشكلة ماهية طبيعة ملامح العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية وقضايا محاربة الإرهاب الدولي, وكيف يتم احتواء القضايا الدولية التي تهدد الأمن الدولي, مثل الصراعات السياسية والاقتصادية بين الصين والولايات المتحدة, وبين روسيا والاتحاد الأوروبي, وأطماع الدول الإقليمية المفترسة مثل تركيا.

تتحدد مشكلة البحث في الأسئلة التالية :

١- ما الأساليب التي تعتمد عليها القوى المهيمنة لدفع المجتمعات لإعادة ترتيب هرم الاحتياجات؟

٢- ما هو دور وأساليب الحداثة الرأسمالية في تدمير القيم الاجتماعية في مجتمعات الشرق؟

٣- كيف يمكن التعزيز والمحافظة على الكفاءات الاقتصادية والإنتاجية وكذلك القيم الاجتماعية والإنسانية للحدّ من التدخلات العنيفة لقوى الحداثة الرأسمالية والهيمنة العالمية؟

٤- ما أهم مظاهر التدخلات العنيفة لقوى الهيمنة العالمية, وإعادة ترتيب هرم الاحتياجات في الشرق الأوسط؟

٥- ما حقيقة نظرية المليار الذهبي ودور المنظمات في تغيير ترتيب الأولويات والاحتياجات الإنسانية؟

أهداف البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى الأهداف الآتية:

١- الأبعاد المرتبطة بهرم الحاجات كما وصفها أبراهام ماسلو, وأهم الملامح التي يشكلها, وكذلك أبرز العوامل الداخلية والخارجية التي ساعدت على تشكيله .

> **"بمجرد أن تشبع الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمان سواء بدرجة كبيرة أو صغيرة تأتي الحاجات الاجتماعية مثل حاجات الانتماء إلى المجموعة في المقدمة كدوافع للسلوك، ولهذا يصبح لدى الفرد رغبة قوية لتكوين علاقات تفاعل مع الآخرين، وينتابه شعور مؤلم بدرجة قوية من الإحساس بالوحدة ينتج من افتقاده إلى العلاقات"**

٢- تحديد أهم العوامل التي ساعدت على انتشار وتكريس الهيمنة الحداثية للرأسمالية الغربية وثقافة التطرف والعنف وخطاب الكراهية في المجتمعات الشرقية .

٣- تحديد أهم التغيرات التي أصابت هرم الحاجات في دول و مجتمعات الشرق الأوسط .

٤- التعرف على الدور الملقى على عاتق شعوب الشرق الأوسط لمواجهة التدخلات العنيفة لقوى الحداثة الغربية في إعادة ترتيب هرم الحاجات .

أهمية البحث :

تبرز أهمية البحث فيما يلي:

التأثير المباشر على الشعوب والمجتمعات في الشرق الأوسط, والتي تتسم بالتداخلات الكبيرة التي تستهدف حياة البشر وصحتهم

واستمرارهم، حيث أن قوة أي مجتمع إنما تقاس بقوة وقدرة الإدارات على تأمين استمرارية حياة تلك الشعوب .

وكذلك يفيد البحث في الكشف عن الأهداف التي تسعى قوى الحداثة الرأسمالية الغربية والتي تسعى وبكل إمكانياتها في ترسيح سياسة تتماشى مع مخططاتهم, من أجل تغيير المنطقة ورسم احتياجات سكانها وفق ما يناسبهم.

قد يفتح هذ البحث الباب أمام المهتمين لإجراء مزيد من البحوث، حول الأدوار الجديدة للمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في التعامل مع مخططات تغيير المجتمعات .

مصطلحات البحث :

الحاجات الفسيولوجية:

وهي ضروريات الحياة وتشتمل على الحاجة للهواء والطعام والماء والتكيف، مثل هذه الحاجات يلزم إشباعها قبل أن الانتقال للسعي في إشباع الحاجة للأمن والأمان بنجاح .

حاجات الأمان:

وهي ضرورية للاستقرار في حياة الفرد، وتشمل هذه الحاجة الأمان من أخطار البيئة المادية والانفعالية، من ذلك على سبيل المثال الحماية من العنف والإصابات، فالناس دائماً تسعى لضمان استقرار البيئة المادية والانفعالية قبل التحرك لإشباع حاجات تأتي بعد هذه الحاجات في هرم الحاجات .

الحاجات الاجتماعية:

وهي حاجة الناس الملحّة للإحساس بالتبعية من خلال قبول ومرافقة ومصاحبة الآخرين له، وإقامة علاقات اجتماعية معهم، وإشباع مثل هذه الحاجات مطلب للحيلولة دون الإقصاء والاستبعاد من قبل الآخرين والبعد عن الوحدة والعزلة والاعتزال، والرغبة عند هذا المستوى من الحاجات ينبني على الحاجة أكثر من العطاء.

الحاجة للتقدير:

بمجرد ما يشبع الفرد الحاجات الأولى في سلم الحاجات يبدأ يصارع ويكافح في سبيل بلوغ مستوى من النمو الشخصي يرضى عنه، والمحفّز للبحث عن إشباع مثل هذه الحاجة هو الاحترام والإقرار والاعتراف الذي يحظى به الفرد من قبل من ينتمي إليهم من جماعات .

وحاجات الاحترام والاعتراف تمكّن الفرد من تطوير الإحساس بالثقة والإنجاز والرضا، وعادة ما يؤدي الإخفاق في إشباع هذه الحاجات بأن ينمّي الفرد لديه اعتقادات خاطئة مؤذية في حق ذاته كالشعور بالدونية (worthless) أو عدم القيمة والضعف(helpless).

الحاجات المعرفية:

وتشتمل على السعي للحصول على المعارف وفهم ما يجري حول الفرد في عالمه خاصاً وعاماً، ويمكن للفرد الحصول على ما يسدّ احتياجاته من معارف وتطوير فهمه واستيعابه لما حوله متى ما كانت البيئة والوسط المحيط به يتسم بالاتساق والاستقرار، حيث يحظى فيها بالقبول والاعتراف من قبل الجماعات الاجتماعية في تلك البيئة .

تحقيق الذات:

يمثل القمة من الهرم أو ذروته، وطبقاً لأبراهام ماسلو فإن من يوفَّق في تحقيق ذاته فقد بلغ كوامنه، وبلغ مستوى من الاستقلالية، فالفرد قابل متقبل لذاته وقد أسس لعلاقة صداقة واضحة و موثوقة، وأحرز ثقة بدوره في الحياة، وفوق هذا قد أبدى رغبة متواصلة في الاكتشاف والنمو الشخصي .

الفصل الأول: التصنيف الهرمي للحاجات حسب أبراهام ماسلو

أولاً : الترتيب الهرمي للحاجات البشرية ، وتقسم إلى :

١- الحاجات الفسيولوجية:

وتشمل الحاجة إلى الطعام، الشراب، التناسل، الحاجة للهواء النظيف، الحاجة للنوم، وغيرها. إن العديد من الحاجات الفسيولوجية تتصف بالنقص أو العجز ولكن ليس بشكل مطلق (أي لايمكن للفرد أن يشبع كل حاجاته الفسيولوجية، ومن هذا الاستثناء الحاجة للتناسل والنوم) .

٢- حاجات الأمان :

عندما يتم إشباع الحاجات الفسيولوجية للفرد بدرجة مناسبة، فإن المستوى الثاني من الترتيب الهرمي للحاجات ينبثق تدريجياً وهو ما يعرف بحاجات الأمان، وتساعدنا حاجات الأمان على تجنب الآلام الموجعة والإصابة بها.

٣- الحاجات الاجتماعية:

بمجرد أن تشبع الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمان سواء بدرجة كبيرة أو صغيرة تأتي الحاجات الاجتماعية مثل حاجات الانتماء إلى المجموعة في المقدمة كدوافع للسلوك، ولهذا يصبح لدى الفرد رغبة قوية لتكوين علاقات تفاعل مع الآخرين، وينتابه شعور مؤلم بدرجة قوية من الإحساس بالوحدة ينتج من افتقاده إلى العلاقات ([1])

٤- حاجات التقدير وتأكيد الذات :

وهي تلك الحاجات التي في إشباعها تؤكد احترام الإنسان لذاته واحترام الجماعة له، فتؤكد مكانته وتعزز هويته، وتوجه سلوكه نحو العمل والإنجاز.

٥- حاجات تحقيق الذات :

"يتم تخريب الشرق الأوسط مهد الحضارة الإنسانية بعد محاولة فصله عن جذوره الاجتماعية وتحويله إلى دول مقطوعة عن جذورها، ولذا فالدولة في الشرق الأوسط مكمن المشاكل والأزمات أكثر من المجتمع ذاته، فالدولة مريضة وعاجزة عن تجاوز المشاكل المعاشة والأزمات الموجودة، أما الأساليب المستخدمة والسياسات المتبعة فتعمق الأزمات والأمراض أكثر من معالجتها لها."

يمثل الحاجة إلى تحقيق الذات، تلك التي حين يصل إلى إشباعها الإنسان، فإنه يصبح ميزاً وسط الجماعة، فيتفوق بها على مجرد تأكيد الذات([2])

ومن هذا التصنيف الهرمي للحاجات «يتضح أن الحاجات تنتظم وفقاً لأهميتها بالنسبة للفرد، وأن مقدرته على إشباع الحاجة ذات المستوى الأرقى تتوقف على مدى نجاحه في إشباع حاجاته الأساسية، أي ذات المستوى الأدنى أو الأقل وعادة ما يكون هذا الإشباع إشباعاً جزئياً أكثر منه إشباعاً كلياً، فالإشباع الجزئي حالة سوية يتعلم معظم الأشخاص ضرورة التكيف معها، وعلى الرغم مما وُجِّه لتصنيف الحاجات لما سلو من نقد، مازال يحظى بالقبول في كثير من الدوائر العلمية لاشتماله على معظم الحاجات الإنسانية وترتيبها، وتقديره لأهمية كل منها بالنسبة لحياة الفرد، وفى مراحل نموه المختلفة.

١ محمد السيد عبد الرحمن، نظريات الشخصية، القاهرة: قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨، ص ٤٣٧

٢- حمدي علي الفرماوي ، الحاجات النفسية فى حياة الناس اليومية (قراءة جديدة ف ى هرم ماسلو)، ط ، ١ القاهرة، دار الفكر العربى، ٢٠٠٨م، ص١٣

"تعاني بلدان مثل اليمن، وسوريا، ولبنان، إيران ومصر تضرراً كبيراً في الأمن الغذائي، فعلى سبيل المثال مصر هي أكبر مستورد للقمح في العالم، فبين عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١ حصلت على ٨٥٪ من وارداتها من القمح من روسيا وأوكرانيا. وسوريا أيضاً تستورد نحو ثلثي احتياجاتها من المواد الغذائية والنفط، ويأتي معظم وارداتها من القمح من روسيا. ولبنان كذلك يستورد من أوكرانيا وروسيا أكثر من ٩٠٪ من احتياجاته من الحبوب"

ثانياً : المنافسة والصراعات وتأثيراتها المباشرة على الأمن الاقتصادي وهرم الاحتياجات

أكد العديد من الباحثين على أهمية الاقتصاد في تحقيق الأمن, حيث بحث «باري بوزان» في مدى قدرة الدول في الوصول إلى الأسواق الخارجية والمصادر المالية, وما تفرزه هذه التفاعلات من اشتداد حالة التنافس بين الدول ضمن المستوى الإقليمي للحصول على صفقات تجارية مع قوى اقتصادية كبرى.

وحسب بوزان فإنه يمكن إدراك الأمن الاقتصادي من خلال المؤشرات التالية:

١- اشتداد حالة عدم التوازن الاقتصادي بين الدول والضغوط التي يخلقها الاختلاف في الثروة والتطلعات بين الدول, خاصة بين دول الشمال الغني ودول الجنوب الفقيرة, والقوى الاقتصادية العالمية .

٢- هشاشة الاقتصاديات الوطنية, التي أصبحت مهددة في ظل عولمة الاقتصاد الدولي وهيمنة الشركات الرأسمالية الكبرى, ومدى قدرة الدول في الحفاظ على إمكانات مستقلة من الإنتاج العسكري والتسليح في إطار سوق عالمية .

٣- التخوف من حدوث الأزمات الاقتصادية العالمية يؤدي إلى إنتهاج سلوكيات حمائية وعدم استقرار بنيوي على مستوى الأنظمة المحلية والعالمية على حد سواء.

٤- التنافس الدولي الحادّ على مصادر الطاقة والغذاء, والوصول إلى الأسواق الاستهلاكية من خلال استغلال التبعية الاقتصادية لأغراض سياسية, أو حتى استحداث الأولويات للشراكة الاقتصادية نظراً لحساسية العلاقات الطاقوية الدولية التي يمثل البترول أهم عناصرها(٣)

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأمن الاقتصادي

- التقدم العلمي: وهو العامل الرئيسي لنمو الإنتاج والتطور الاقتصادي, حيث يمكّن من إيجاد حلول سليمة لمشكلات الإنتاج.

- التطور التقني: ويعد العامل الأساسي للتطور الاقتصادي, حيث تؤدي التقنيات المتطورة إلى زيادة الإنتاجية والتخلص من العيوب.

- التغيير الاجتماعي الإيجابي: يؤثر التغيير الاجتماعي الإيجابي الذي يواكب تطورات الحضارات البشرية ويراعي طبيعة الاحتياجات الإنسانية المعاصرة, دون أن يتسبب في إضعاف قيم المجتمع العقائدية بشكل إيجابي على أمن الدول, نتيجة قبول بعض الأفراد العمل ببعض المهن التي كانت تعد أقل شأناً في الماضي القريب

- امتداد إقليم الدولة: حيث يشكل عاملاً حاسماً لأمنها الاقتصادي, لأنه يقرر قدراتها

٣ - حمزاوي، ج ،التصور الأمني الأوروبي نحو بنية أمنية شاملة وهوية إستراتيجية في المتوسط. كلية الحقوق والعلوم السياسية، باتنة: جامعة الحاج لخضر

الذاتية على إحداث التطورات الاقتصادية، فكلما زاد إقليم الدولة زادت مواردها وإمكاناتها المادية والبشرية، وتصبح الدولة غنية بذاتها عن الآخرين وقادرة بمجهوداتها الذاتية على دفع قطاعاتها الاقتصادية إلى الأمام.

الفصل الثاني : الأدوار المختلفة لقوى الهيمنة الرأسمالية وصناعة الأزمات

يمكننا من خلال ما وصفه المفكر الأممي عبد الله أوجلان، أن نوجز الأدوار السلبية للهيمنة الحداثية الرأسمالية ضد المجتمعات ووسائطها على شكل بندين:

١-مهاجمة خصائص المجتمع الأخلاقية والسياسية وصهرها.

٢- تحويل الأفراد إلى عبيد عبر انقطاعهم عن المجتمعية التي انتهكتهم .

لم يستسلم المجتمع لهجمات الحضارة الدولتية بالكامل في أي زمن، كما أنه وجدت المقاومات في جميع أماكن الهجمات، وبحث المجتمع دوماً عن الفترات الزمنية التي عاش فيها بحريته، ووجّه حلم «العصر الذهبي» جميع تحركاته.

أولاً : سياسات التحكم والسيطرة والليبرالية الجديدة

لقد دخلت الرأسمالية الأوروبية بالمنافسة فى الميادين الاقتصادية فى نفس الوقت مع المحافظة على عدم الدوران فى مدار الإستراتيجية السياسية الأمريكية، فى هذا المجال استخدمت أوروبا فائض رأس المال لديها، من أجل خلق انتعاش اقتصادي واجتماعي في دولها بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأدركت أنها لا تستطيع تحقيقه دون هذا الفائض، وبالتالي ستخلق لدى الطبقة الحاكمة الأمريكية مشكلات اجتماعية، في تلك اللحظة التى ستختار فيها أوروبا إعطاء الأولوية للازدهار الاقتصادي والاجتماعي، هذا هو المعنى الذى أعطيه للخاتمة «إما أن تكون أوروبا يسارية أو لا تكون».

وحتى تتمكن أوروبا من تحقيق ذلك، عليها التخلص من وهم أنه من الواجب ومن الممكن أن يلعب الجميع لعبة الليبرالية بـ ,,استقامة". وأن الأمور ستسير بشكل أفضل في هذه الحالة، فأمريكا لا تستطيع العدول عن اختيارها الخاص بممارسة الليبرالية بشكل غير متناغم؛ لأن هذه هي وسيلتها الوحيدة لتعويض قصورها الخاص، فثمن ,,ازدهار" أمريكا هو ركود الآخرين.

لماذا يتوالى إذاً تدفق رؤوس الأموال لصالح الولايات المتحدة على الرغم من هذه البديهيات؟ بلا شك إن حافز الكثيرين هو كون أمريكا ببساطة ,,بلد الأغنياء"، والملجأ الأكثر أمناً. هذا الوضع ينطبق على بورجوازية بلدان العالم الثالث الكومبرادورية، لكن ماذا عن الأوروبيين؟ يبدو أن فيروس الليبرالية، والاعتقاد الساذج بأن أمريكا ستقبل ذات يوم ,,لعبة السوق" لهما سلطة أكيدة على الرأي العام الواسع.

من هذا المنطلق، قام صندوق النقد الدولي بإضفاء نوع من القداسة على مبدأ ,,حرية انتقال رأس المال"، وذلك ببساطة للسماح لأمريكا بشكل خاص بتغطية عجزها عن طريق ضخ الفائض المالي الناتج خارجها عن تطبيق السياسات الليبرالية الجديدة، التى لا تخضع لها أمريكا إلا بشكل انتقائي للغاية، إلا أنه بالنسبة إلى الجزء الأكبر من رأس المال المهيمن، فتفوق إيجابيات هذا النظام مساوئه المتمثلة فى الأتاوة التى يجب دفعها لواشنطن حتى تضمن استمراره.

إن الدول المعروفة ,,بالدول الفقيرة المدينة" مضطرة للدفع، لكن هناك أيضاً ,,دول قوية مدينة" لن تقوم أبداً بسداد ديونها، وهذا ما علينا يجب أن نعلم، وبالتالي فإن هذه الأتاوة الفعلية التى تفرضها واشنطن عن طريق الابتزاز السياسي تصير هشة.

تقع خيارات الولايات المتحدة الأمريكية

"لعبت دافوس دوراً كبيراً في تقريب التفاهم بين تركيا وإسرائيل في عام ٢٠٠٩ إذ كان المنتدى مناسبة للتعبير عن نوايا الدولة التركية من تقربها تجاه إسرائيل وزيادة الاستثمارات فيما بينهما. وفي ظل احتدام الصراع على النفوذ بين الأقطاب المهيمنة على الساحات السياسية والاقتصادية العالمية بين الولايات المتحدة والصين في العديد من المجالات، جاء عدد من المشاريع التي تزيد من حدة تلك الصراعات وهي خطوات نحو التصعيد"

العسكرية والسياسية الراهنة ضمن هذا المنظور, فهو يعني الاعتراف بأنه لا يوجد تحت تصرف الولايات المتحدة وسائل أخرى تمكّنها من فرض هيمنتها الاقتصادية.

هناك جملة من القضايا والسياسات الدولية المعقدة, ومحاولة دراسة الأهداف التي تأسست عليها التكتلات السياسية والاقتصادية المختلفة يخطر في بال الكثير من المتابعين لتلك القضايا, ومحاولة الوقوف عند تلك الأمور الغامضة التي تكتنف هذه السياسات, فالعالم يشهد تغيرات سريعة وغير معقولة وترى تبعات تلك السياسات وانعكاساتها العميقة على الداخل وعلى المحيط الإقليمي والدولي, ومن هذه الأمور في عالمَي السياسة والاقتصاد نرى الصراعات الكبيرة على النفوذ والولادة المتعثرة للنظام العالمي الجديد في ظل سيطرة قوى الهيمنة الكبرى المتمثلة في الولايات المتحدة وروسيا والصين، وظهور قوى دولية مفترسة تنتهج الاحتلال ودعم الفصائل المتشددة ودعم الأنشطة غير القانونية وتصدير الأزمات وافتعالها كما تفعل دولة الاحتلال التركي في منطقة الشرق الأوسط.

ثانياً: الشرق الأوسط ودور قوى الهيمنة العالمية على هرم الاحتياجات

يتم تخريب الشرق الأوسط مهد الحضارة الإنسانية بعد محاولة فصله عن جذوره الاجتماعية وتحويله إلى دول مقطوعة عن جذورها. ولذا فالدولة في الشرق الأوسط مكمن المشاكل والأزمات أكثر من المجتمع ذاته, فالدولة مريضة وعاجزة عن تجاوز المشاكل المعاشة والأزمات الموجودة, أما الأساليب المستخدمة والسياسات المتبعة فتعمق الأزمات والأمراض أكثر من معالجتها لها.

ثالثاً: الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها على الأمن الاجتماعي والغذائي لدول الشرق الأوسط

اندلاع الصراع المسلح بين روسيا وأوكرانيا وبعد ذلك ما رافقه من تصعيد خطير في مستويات الصراع، أثّر بشكل كبير على الأمن والاستقرار الإقليمي والدولي بشكل سلبي وحادّ، أول تأثيراته كانت على الملفّ النووي الإيراني، حيث أجّلت روسيا مفاوضات إحياء الاتفاق النووي الإيراني، وذلك في وقت كان الاتفاق قاب قوسين أو أدنى، لتطالب بعدئذٍ بضمانات بأن العقوبات الغربية على روسيا لن تمنعها من التجارة مع إيران بمجرد إبرام صفقة جديدة، وهو ما يصعب على واشنطن والعواصم الأوروبية منحه، لتبقى المسألة خاضعة إلى ما إذا كان يمكن لروسيا بالفعل إفشال الاتفاق أم لا, ومن ثم المخاطرة بمزيد من التصعيد لبرنامج إيران النووي، وربما اندلاع صراع إقليمي أوسع كاختبار لمدى استعداد موسكو للذهاب في تأجيج عدم الاستقرار في المنطقة.

كما أثرت سلباً على اقتصادات دول الشرق الأوسط، وخاصة تلك التي تعتمد في غذائها

على القمح الأوكراني، حيث تُعدّ روسيا وأوكرانيا من بين أكبر منتجي القمح في العالم، فيما تتربع منطقة الشرق الأوسط على قمة المستهلكين.

وتعاني بلدان مثل اليمن، وسوريا، ولبنان، إيران ومصر تضرراً كبيراً في الأمن الغذائي، فعلى سبيل المثال مصر هي أكبر مستورد للقمح في العالم, فبين عامي ٢٠٢٠ و٢٠٢١ حصلت على ٨٥٪ من وارداتها من القمح من روسيا وأوكرانيا. وسوريا أيضاً تستورد نحو ثلثي احتياجاتها من المواد الغذائية والنفط، ويأتي معظم وارداتها من القمح من روسيا. ولبنان كذلك يستورد من أوكرانيا وروسيا أكثر من ٩٠٪ من احتياجاته من الحبوب، واحتياطاته من الحبوب لا تكفي إلا لمدة شهر تقريباً. ويستورد اليمن نحو ٤٠٪ من احتياجاته من القمح من هذين البلدين المتحاربين, وعدد من يعانون من الأزمة أو - الأسوأ- من نقص حادّ في الأمن الغذائي في اليمن قفز من ١٥ مليوناً إلى أكثر من ١٦ مليوناً في ثلاثة أشهر فقط في أواخر عام ٢٠٢١. وستؤدي الحرب في أوكرانيا حتماً إلى تفاقم هذه الدينامية القائمة بالفعل في اليمن، كما يمكن أن يكون لارتفاع الأسعار أو اضطرابات سلاسل التوريد، أثرٌ مدمّر في كثير من البلدان، سواء على مستويات المعيشة، أو على مستوى الاستقرار السياسي, فغالبًا ما كان القلق الشعبي من ارتفاع أسعار الخبز حافزاً رئيسيّاً للاحتجاجات والاضطرابات الشعبية في جميع أنحاء المنطقة[٤]

الفصل الثالث: نماذج من الأطروحات الحداثية المهيمنة المؤثرة في ترتيب هرم الاحتياجات

أولاً : نادي الأغنياء العالمي (دافوس)

يُوصف من طرف منتقديه بأنه «نادٍ لرجال الأعمال الأثرياء» الذين يدّعون أن نواياهم طيبة لكنهم لا يهتمون أولاً وأخيراً إلا بالترويج لمصالحهم الخاصة, ويقومون بأعمال تجارية خاصة في دافوس.

المنتدى الاقتصادي العالمي ليس سوى مروّج للعولمة التي أدت للترفيع في معدلات الفقر ودمرت البيئة.

ونتائج المؤتمر متواضعة بل ستزيد من التناقضات الدولية وستعقد المشاكل الاقتصادية العالمية وتزداد معدلات البؤس والتضخم والركود والإفلاس والفوضى العالمية, وخاصة الأوروبية, وعجز السياسات النقدية والمالية والاستثمارية والائتمانية وغيرها لمواجهة مشاكل القارة العجوز.

ولهذا تسيطر حالة من التشاؤم على نتائج المؤتمر في ظل حدوث ركود عالمي، لأن الاقتصاد العالمي في وضع غير مستقر، ومستويات التضخم المرتفع الحالي والنمو المنخفض والديون المرتفعة والتجزئة المرتفعة, تقلل من حوافز الاستثمار اللازم لاستئناف النمو وتحسين مستويات المعيشة للسكان الأكثر ضعفاً في العالم.

ولو رجعنا إلى ظروف تأسيس منتدى دافوس، يمكن رؤية عدة أسباب ساعدت على تأسيس المنتدى, ومنها:

١- الكساد الاقتصادي الذي حل بالعالم عام١٩٧٣م.

٢- انهيار نظام بريتون وودز المالي الذي تم وضعه بعد الحرب العالمية الثانية، وانهيار غطاء الذهب للعملة الأمريكية "الدولار".

٣- تداعيات الارتفاع الكبير في أسعار النفط بعد عام١٩٧٣م.

٤- الحروب الاقتصادية بين الدول والشركات المتعددة الجنسية.

٥- انعكاسات الحروب والصراعات الدولية على نشاطات العلاقات الاقتصادية الدولية.

٦- بناء مستقبل أفضل للعلاقات الاقتصادية

٤ -تقرير منظمة الأمم المتحدة للاغذية (الفاو) ٢٠٢١م

والسياسية الدولية.

٧- تبعية السياسات الليبرالية الجديدة للبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية، والتي تستهدف بالأساس خصخصة الخدمات الأساسية وتحرير السوق وخلق مناخ يسمح بالاستثمار بما يتطلب ذلك من إصلاحات سياسية.

وبهذا الصدد يركز المنتدى الاقتصادي العالمي (منتدى دافوس) عمله على ثلاث قضايا كبرى هي:

١ـ التحكم في الثورة الصناعية الرابعة:

ثورة عالم الأنترنيت، عالم العقول الذكية، حيث يهتم المنتدى باستشراف التحولات التي سوف يعرفها الاقتصاد العالمي في السنوات القادمة على مستوى نظم الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، وكيف ستؤثر هذه التحولات على حياتنا وعلى الأجيال القادمة، وتعيد تشكيل واقعنا الاقتصادي والاجتماعي والبيئي والثقافي.

٢ـ الإشكالات المتعلقة بالمشاعات العالمية:

المشاعات العالمية من البحار والمحيطات خارج الحدود السياسية للدول مليئة بالثروات الطبيعية، ويرى المنتدى أن التحديات المشتركة التي تواجهها البشرية مثل المتغيرات المناخية، تستدعي بناء توافقات عالمية أكثر من أي وقت مضى، ويتطلب مواجهتها تحفيز نماذج جديدة من التعاون بين القطاعين الخاص والعام وإبداع حلول تكنولوجية جديدة.

٣ـ قضايا الأمن العالمي:

إذ يعمل المنتدى على تطوير استراتيجيات لفائدة قادة العالم تؤهلهم للتعاطي مع التحولات السريعة المتعلقة بالأمن، لا سيما في مجال مواجهة التطرف والإرهاب.

الآثار المختلفة للأطروحات الحداثية على العالم ومنطقة الشرق الأوسط

الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمنتدى دافوس:

لا شك أن دافوس تشكل منصة رأسمالية جاءت على وقع متغيرين أساسيين هما:

- حاجة الرأسمالية إلى مرحلة توسع جديدة عبر ما أطلق عليه العولمة.

- التأييد للنمط (الليبرالية الجديدة) الذي جاء لنشر الرأسمالية تحت معطى الصالح الاقتصادي والتكييف والخصخصة، والترويج والدخول مع الحكومات في حوارات تستفيد منها الشركات الرأسمالية في الدخول الواسع إلى اقتصاديات عالم الجنوب النامي من مداخل مختلفة، بغية تصفية الدور الاقتصادي للدولة وإطلاق القطاع الخاص فيها، الذي يسهل للشركات التعامل معه, فالتصميم الأساسي للسياسات التي اعتمدتها البلدان الرأسمالية التي قادتها الولايات المتحدة، أريد لها أن تكون صفرية لصالح نزح الفائض الاقتصادي من البلدان التي دخلت في العولمة والانفتاح الاقتصادي وتحرير معاملاتها المالية والتجارية، وهو ما ساهم في إفقار هذه البلدان, لهذا تصاعد الرفض لما آلت إليه أوضاعها الاقتصادية, لذلك فإن الهدف الذي أقيم من أجله منتدى دافوس بحسب وثائق تأسيسه، وهو تحسين وضع العالم، لم يتحقق, بل جلّ ما فعله هو خدمة الرأسمالية العالمية ومصالح الدول الغربية، وحتى البعد السياسي لهذا المنتدى جرى تحريفه لصالح مشكلات تتعلق بالوضع الإنساني المباشر(٥).

بالإضافة إلى كل ما سبق لعبت دافوس دوراً كبيراً في تقريب التفاهم بين تركيا وإسرائيل

٥ -بسام حجار، العلاقات الاقتصادية الدولية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت ،٢٠٠٣ ص ٦٦

في عام ٢٠٠٩ إذ كان المنتدى مناسبة للتعبير عن نوايا الدولة التركية من تقرّبها تجاه إسرائيل وزيادة الاستثمارات فيما بينهما.

وفي ظل احتدام الصراع على النفوذ بين الأقطاب المهيمنة على الساحات السياسية والاقتصادية العالمية بين الولايات المتحدة والصين في العديد من المجالات، جاء عدد من المشاريع التي تزيد من حدة تلك الصراعات وهي خطوات نحو التصعيد.

ثانياً: مبادرة الحزام والطريق الصيني

إن انخراط الصين المتنامي في المنطقة يجري في فترات تشهد اضطرابات جيوسياسية كبيرة ومتزايدة, إذ يشهد النظام العاملي الليبرالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تغيرات جذرية كبيرة, مما أدى إلى تقلبات في الاقتصاد العالمي والنظام الدولي.

لقد أطلقت الصين مبادرة الحزام والطريق عام ٢٠١٣م . وهي مشروع واسع النطاق يهدف إلى ربط بلدان العالم ببعضها بحلول عام ٢٠٤٩.

أطلقت الصين شراكة في مشروع الحزام والطريق مع ١٧ بلداً منها العراق والكويت والسودان, وعززت هذه الشراكة تبادل السياسات والطاقة وبرامج التبادل التكنولوجي، وإطلاق مشاريع تعاون ثنائية ومتعددة الأطراف بالإضافة إلى عقد مؤتمرات وتدريب الموظفين، وبناء القدرات.

يحتوي مشروع مبادرة الحزام والطريق على ستة ممرات رئيسية, الممر الاقتصادي بين الصين وباكستان, الممر الاقتصادي بين بنغلاديش والصين والهند وميانمار, الممر الاقتصادي بين الصين ومنغوليا وروسيا, الممر الاقتصادي بين الصين وشبة جزيرة الهند الصينية, الممر الاقتصادي بين الصين وغرب ووسط آسيا (يصل الى إيران وتركيا), الممر الاقتصادي للجسر البري لـ «أوراسيا».

> **لم تغب الاعتبارات السياسية الاستراتيجية أيضاً من المنظور الصيني، فقد حرصت على إظهار وحدة صفها بشأن القضايا الدولية الكبرى وإثبات وزنها المتزايد في العالم، خاصة ما يجري في منطقة الشرق الأوسط ومنها تفادي استخدام القوة واستخدام أساليب وأدوات أكثر دبلوماسية مع إبداء الكبير من المرونة إزاء ما يحدث من اضطرابات، وتحديداً في كل من سوريا والعراق واليمن و ليبيا ومناطق التوتر المستمر**

تقييم الآثار المترتبة على مشروع مبادرة الحزام والطريق

إن أبرز الآثار المترتبة على المشروع تتجسد في النقاط التالية:

- تغييرات في موازين التجارة العالمية.

- نتائج اقتصادية كبيرة (القيمة العالمية, اختلاف الآثار باختلاف الموقع من الممرات ودرجة الاندماج في سلاسل متطلبات مصاحبة للمشروع, تسهيل التجارة، مفاوضات تجارية، سلاسل قيمة).

إن مشروع مبادرة الحزام والطريق في المنطقة يمر ببعض الدول في الشرق الأوسط, لكن يبدو أنها لا تشرك المنطقة العربية بشكل رسمي, والممرات الستة الحالية لا تشمل البلدان العربية بالرغم من أن الدول العربية لها دور مهم في التجارة الصينية، ولا سيما أن ٤٠٪ من النفط

الذي تستورده الصين مصدره الدول العربية (٦)

ثالثاً: منظمة شنغهاي للتعاون

يمكننا القول إن الظروف الدولية الخاصة والمحيطة بكل من روسيا والصين ساهمت في نشوء منظمة شنغهاي للتعاون, فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي كان لا بدّ لروسيا الاتحادية من استرداد عافيتها والتوسع في مناطق النفوذ خاصة في قارة آسيا, ونظراً لحاجة الصين الكبيرة إلى موارد مختلفة كان لا بد من اللجوء إلى اتفاقيات تضمن لها تأمين تلك الموارد, فتم تشكيل منظمة شانغهاي للتعاون وهي منظمة إقليمية دولية سياسية واقتصادية وأمنية أوراسية.

وهذه المنظمة الدولية تضم الصين، روسيا، كازاخستان، قرغيزستان، طاجيكستان وأوزبكستان, وتأسست في مدينة شنغهاي الصينية عام ٢٠٠١م

تتجاوز مساحة الدول الأعضاء في المنظمة ثلاثة أخماس مساحة قارتي أوروبا وآسيا, أي ما يعادل ٣٠ مليون كيلو متر مربع. ويبلغ عدد سكان الدول الأعضاء فيها نحو نصف تعداد سكان العالم.

لمنظمة شانغهاي للتعاون مقران دائمان هما مقر الأمانة العامة للمنظمة في العاصمة الصينية بكين، ومقر جهاز مكافحة الإرهاب الإقليمي في العاصمة الأوزبكية طشقند.

أهمية منظمة شانغهاي للتعاون في الاقتصاد العالمي والهيمنة

تهدف منظمة شانغهاي للتعاون إلى تحقيق التعاون في المجال السياسي والأمني والاقتصادي والتجاري والثقافي وشبكات النقل والطاقة, وكذلك تبنيها العديد من الاستراتيجيات لحل مشاكل الحدود ومكافحة الإرهاب والمخدرات. فالمنظمة منذ تأسيسها تسعى إلى الحفاظ على السلم والأمن الإقليمي وإلى تعزيز السلم والأمن الدوليين. حيث حققت للدول الأعضاء إنجازات ملحوظه في استتباب الأمن والتعاون في كافة مجالات الحياة.

تتركز أهداف منظمة شنغهاي للتعاون أيضاً حول تعزيز سياسات الثقة المتبادلة وحسن الجوار بين الدول الأعضاء, ومحاربة الإرهاب وتدعيم الأمن والتعاون في المجالات السياسية والتجارية والاقتصادية والعلمية والتقنية والثقافية, وكذلك النقل والتعليم والطاقة والسياحة وحماية البيئة. وتوفير السلام والأمن والاستقرار في المنطقة, وكذلك تعد منظمة إقليمية تهتم بالشؤون السياسية والأمنية والاقتصادية والتجارية وتنفيذ القانون وحماية البيئة والثقافة والعلوم والتكنولوجيا والتعليم والطاقة والمواصلات والمال والمصارف والتأمين والقروض وغيرها من المجالات ذات الاهتمام المشترك, وتعزيز التنمية الشاملة في المنطقة. كما بدأت بإنجاز أهدافها عن طريق إجراء النشاطات في كافة المجالات.

في المرحلة الحالية لاحتياج آلياتها إلى الاستكمال في بعض الجوانب تسعى لتحقيق الأهداف الآتية:

- تعزيز الثقة المتبادلة وعلاقات الصداقة وحسن الجوار بين الدول الأعضاء.

- تطوير التعاون في كافة المجالات وحماية وتعزيز السلم والأمن.

- مكافحة الحركات الإرهابية والتطرف بشتى أشكالها, ومكافحة بيع المخدرات والأسلحة غير الشرعية وغيرها من الجرائم ، والدفاع الوطني وتفعيل القانون وحماية البيئة والثقافة والعلوم والتكنولوجيا والتعليم والطاقة

٦ - مبادرة الحزام والطريق: ماذا تحمل للمنطقة العربية ؟ الدورة الاستثنائية السادسة اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا ، كانون الأول الثاني، ديسمبر ٢٠١٩

والمواصلات والمال والمصارف والتأمين والقروض وغيرها من المجالات ذات الاهتمام المشترك.

- رفع مستوى معيشة مواطني الدول الأعضاء وتحسين ظروف الحياة من خلال الأعمال المشتركة وعلى أساس علاقات المساواة والشراكة والتعاون.

- تنسيق المواقف عند المشاركة في الاقتصاد العالمي.

- إيجاد الحلول للمشاكل القائمة بشكل مشترك وبتنسيق عال.

إن الدول الست في منظمة شنغهاي للتعاون دول مجاورة ترتبط ارتباطاً مهماً فيما بينها، حيث إن هناك العديد من القواسم المشتركة, وحققت المنظمة في مجال التعاون الأمني والاقتصادي وعلاقاتها الخارجية وفي المجالات الأخرى إنجازات مستمرة ومتطورة (٧)

رابعاً: مجموعة دول البريكس ودورها في الهيمنة

عملت كل جهدها لترسيخ شكل جديد من أشكال الهيمنة على الساحة الدولية بتشكيل مجموعة منظمات ومجموعات ساهمت في تطوير قدراتها الاقتصادية، حيث عملت على ضم دولة إفريقية إلى المجموعة باعتبارها الشريك التجاري الأول لجنوب إفريقيا, ولتكون بوابة بريكس إلى قارة إفريقيا في ظل السباق الأمريكي الصيني الروسي الكبير على النفوذ والتجارة في القارة, علاوة على أن جنوب إفريقيا تتمتع بأهمية استراتيجية كبيرة, فهي تشرف على المحيطين الأطلسي غرباً والهندي شرقاً من ناحية الجنوب عبر طريق رأس الرجاء الصالح.

لم تغب الاعتبارات السياسية الاستراتيجية أيضاً من المنظور الصيني، فقد حرصت على إظهار وحدة صفها بشأن القضايا الدولية الكبرى وإثبات وزنها المتزايد في العالم, خاصة ما يجري في منطقة الشرق الأوسط ومنها تفادي استخدام القوة واستخدام أساليب وأدوات أكثر دبلوماسية مع إبداء الكبير من المرونة إزاء ما يحدث من اضطرابات, وتحديداً في كل من سوريا والعراق واليمن و ليبيا ومناطق التوتر المستمر.

- تسعى مجموعة دول البريكس إلى المنافسة والاحتكار وإقامة نظام عالمي متعدد الأقطاب بعيداً عن الأحادية القطبية التي يعيشها العالم منذ انتهاء الحرب الباردة، حيث تنفرد الولايات المتحدة بعناصر القوة والنفوذ نتيجة التمركز الشديد للموارد والإمكانيات المتاحة على نحو يجعل منها وحدة دولية متفوقة بكل المقاييس على بقية الوحدات الأخرى التي يتألف منها النظام الدولي، والتأكيد على الحضور القوي والمؤثر على الساحة الدولية.

أهمية مجموعة دول البريكس في الاقتصاد العالمي والهيمنة وترتيب هرم ماسلو:

باعتبار أن مجموعة دول البريكس تمثل أكبر الاقتصادات العالمية خارج منطقة اليورو والاتحاد الأوروبي ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وأيضاً دافوس, فهي تشكل وتعتبر نادي الأغنياء بالنسبة للاقتصادات الناشئة.

وبالرغم من أنها مجموعة لا تتمتع بالتماسك القانوني والتاريخي والجيوسياسي والفكري والثقافي مثل الاتحاد الأوروبي, إلا إنها تملك من المؤشرات الاقتصادية ما يجعل لها دوراً ومكانة في الاقتصاد العالمي، وهي الوزن الديمغرافي المقصود به عدد السكان ،ومستوى تطور التنمية البشرية، إذ يقدر عدد سكان دول البريكس حالياً حوالي /٣/مليار نسمة وهو ما يعادل تقريبا /٤٥٪/ من سكان العالم فهي قوة بشرية هائلة.

٧- ابتسام محمد العامري ، منظمة شنغهاي للتعاون الإقليمي مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ، بغداد ، ٢٠١٣م.

"من أجل تعزيز أمن الطاقة، ودعم جهود تطوير الطاقة النظيفة، إضافة إلى تنمية الاقتصاد الرقمي عبر الربط والنقل الرقمي للبيانات من خلال كابلات الألياف البصرية وغيرها. ويطرح هذا الممر الاقتصادي الحيوي بين الهند والشرق الأوسط وأوروبا، مستقبل وفعالية مشروع مبادرة الحزام والطريق الصيني الذي يهدف إلى زيادة تجارة الصين مع آسيا الوسطى وأوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا"

ويرجع ذلك أساساً إلى التعداد السكاني الكبير جداً للصين والهند والبرازيل. (٨)

خامساً: مشروع طريق التوابل الهندي

كانت هناك معطيات جديدة بعد الإعلان عن اتفاقية الممر الاقتصادي بين الهند والشرق الأوسط وأوروبا، حيث فسرت أوساط دولية عديدة أن الهدف من مشروع طريق التوابل الهندي هو كسب الهند إلى جانب الغرب، وتطوير بديل لمبادرة الحزام والطريق الصينية.

وفي حال إذا تم تنفيذ هذا المشروع الاقتصادي الكبير، فإنه سيعمل أيضاً حسب القوى الدولية المهيمنة مثل الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، على تعزيز العلاقات التجارية بين شركائه في الشرق الأوسط مع الهند بدلاً من الصين، حيث يهدف هذا المشروع والذي تم اعتماده نهاية عاد ٢٠٢٣ والذي تم طرحه خلال قمة الدول العشرين في نيودلهي الهند، إلى إنشاء خطوط للسكك الحديدية، وربط الموانئ البحرية لتعزيز التبادل التجاري وتسهيل مرور البضائع، وكذلك تيسير عملية نقل الكهرباء المتجددة والهيدروجين النظيف عبر كابلات وخطوط أنابيب، من أجل تعزيز أمن الطاقة، ودعم جهود تطوير الطاقة النظيفة، إضافة إلى تنمية الاقتصاد الرقمي عبر الربط والنقل الرقمي للبيانات من خلال كابلات الألياف البصرية وغيرها.

ويطرح هذا الممر الاقتصادي الحيوي بين الهند والشرق الأوسط وأوروبا، مستقبل وفعالية مشروع مبادرة الحزام والطريق الصيني الذي يهدف إلى زيادة تجارة الصين مع آسيا الوسطى وأوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا.

الخاتمة

لا شك بأن قوى الهيمنة العالمية لعبت دوراً في تطوير أدوات إنتاج الدول الغربية وأساليبها في إدارة العلاقات الاقتصادية طبقاً لتغيير المعطيات الدولية المتعلقة بالنظام الدولي، فهو يسعى بشكل متواصل إلى نظرية التجديد المتواصل للرأسمالية العالمية، ويُحدث تطورات في عناصر الهيمنة بنظرية تعاون دولية عمودها الأول العامل الاقتصادي بقيادة الدول الرائدة من النواحي العلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية.

وتعد الشركات المتعددة الجنسية هي الجهة الأكثر استفادة من الاضطرابات وحالات الفوضى والحروب والأزمات.

إن جميع القضايا والهموم ذات طابع عالمي، ولكي يصلح وصف أي منتدى اقتصادي بأنه عالمي حقاً يجب أن تمتزج أجندته بالقضايا والمشكلات بأبعادها المختلفة، إذ يجب عليه:

٨- ماهر بن ابراهيم القصير، تكتل دول البريكس: نشأته .اقتصاداته . أهدافه، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠١٤ م

١- أن يهتم بمسببات ونتائج الوضع غير المتكافئ لمجموعة البلدان النامية في النظام الاقتصادي العالمي، وتخصصها في إنتاج وتصدير المواد الخام بأسعار رخيصة، وما يترتب على ذلك من استنزاف مواردها الاقتصادية الناضبة، بنفس الأهمية والدور الذي يتناول بها قضية التباطؤ في معدلات نمو الاقتصادات الرئيسية في العالم.

٢- أن يتصدى للمشكلات المترتبة على التحرير غير العادل لأسواق الدول النامية أمام سيول المنتجات الصناعية المصدرة إليها من الدول المتقدمة.

٣- أن يركز على إبراز الآثار الضارة للمضاربات المالية من قبل الصناديق الاستثمارية الدولية في أسواق المال في الدول النامية، وأن يركز على مناقشة القضايا المرتبطة بتدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر بين الدول، وأن يسلط الضوء على الآثار السلبية لسيطرة قوى الهيمنة العالمية.

٤- أن يتم الاهتمام بالبحث في القضايا المرتبطة بالتوسع الشديد في الإنفاق العسكري في أغلب بلدان العالم، مثلما يتناول بالتمحيص الأسباب الحقيقية لتفاقم ظاهرة تلوث البيئة، ومسؤولية كل من الدول المتقدمة والدول النامية عنها.

فإذا ما وضعنا نصب العين الإمكانيات الاقتصادية والعسكرية والعلمية العملاقة التي تنفرد بها الرأسمالية العالمية؛ فإن كل أنواع العمليات القانونية الديمقراطية، وكذلك الانتفاضات المنظمة، والحروب المعتمدة على الدفاع الذاتي؛ يمكن اعتبارها أساليب للرد على النظام القائم، في حال الإخلال بالتطبيق المتساوي والعادل للقوانين، وفي حال العمل بالنظام الاستبدادي لا استغناء عن التحرك وفق نظرية وممارسة عملية أخلاقيتين كمبدأ وسلوك أولي مصيري لدى إنشاء المجتمع الديمقراطي والأيكولوجي التحرري الجنسوي؛ ذلك لأن المجتمع الرأسمالي تأسس على أساس إنكار الأخلاق ودحضها.

المراجع والمصادر:

1- محمد السيد عبد الرحمن، نظريات الشخصية، القاهرة: قباء للطباعة والنشر، 1998.

2- حمدي علي الفرماوي ،الحاجات النفسية فى حياة الناس اليومية (قراءة جديدة ف ى هرم ماسلو)، ط،١ القاهرة، دار الفكر العربى، 2008م

3- حمزاوي، ج ،التصور الأمني الأوروبي نحو بنية أمنية شاملة وهوية إستراتيجية في المتوسط. كلية الحقوق والعلوم السياسية، باتنة، جامعة الحاج لخضر

4- بسام حجار، العلاقات الاقتصادية الدولية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت ،2003 م

5- مبادرة الحزام والطريق: ماذا تحمل للمنطقة العربية؟ الدورة الاستثنائية السادسة اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا

،كانون الأول الثاني، ديسمبر 2019

6- سام محمد العامري ، منظمة شنغهاي للتعاون الإقليمي مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ، بغداد ،2013م.

7- ماهر بن ابراهيم القصير، تكتل دول البريكس: نشأته . اقتصاداته . أهدافه، دار الفكر العربي، القاهرة، 2014 م

8- تقرير منظمة الأمم المتحدة للاغذية (الفاو)2021م

التكنولوجيا والتطور الصناعي أداة للنشاط وتبادل المعلومات أثناء النزاعات والاستخدامات العسكرية غير المشروعة في استهداف المنطقة وشعوبها (المسيّرات التركية نموذجاً)

رعد الحمادة

المقدمة

مشكلة البحث، أهمية البحث، أهداف البحث، أسئلة البحث

مصطلحات البحث

أولاً: تكنولوجيا المعلومات والذكاء الاصطناعي

ثانياً: الطائرات و(الطائرات بلا طيار)

ثالثاً: المسيّرات وآلية عملها (قوانين تحليق الطائرات بلا طيار)

رابعاً: المسيّرات التركية أدوات إجرام وإرهاب مستم

خامساً: نظم الرصد الرادارية

الخلاصة والتوصيات

المراجع

المقدمة

إن الأزمات الكبيرة التي تعيشها الحداثة الرأسمالية وإفلاس الدولة القومية كما وصفها المفكر والقائد عبد الله أوجلان، عادت بنتائج كارثية على شعوب الشرق الاوسط, كون الديكاتوريات المتشكلة بذهنية الدولة القومية للحداثة الرأسمالية في القرن العشرين باتت تشكل وبالاً على شعوبها والشعوب المحيطة, حيث الضغط والاضطهاد الذي عانته الشعوب وصل إلى درجة لا تحتمل, من جانب هذه الأنظمة التسلطية التي لا تحمل سوى ذهنية القتل والتدمير ونهج الصهر والإبادة وصناعة الموت والدمار والتجويع والتشريد عبر أساليب كثيرة ومنها تطوير أدوات القتل الطائرات بلا طيار .

في خضم التطور الكبير الذي يشهده العالم في عالم تكنولوجيا المعلومات والذكاء الصناعي الذي أصبح الركيزة الأساسية للتقدم وإثبات الوجود والهيمنة، وباتت من أساسيات الحروب الحديثة حيث لعبت دول كثيرة دورها في هذا المجال وشكلت جيوشاً إلكترونية مختصة للدفاع عنها, ومن ثم الانطلاق لفرض السيطرة والهيمنة على الدول والكيانات والمجالات التي تسعى للسيطرة الهيمنة عليها .

مثالاً على ذلك الانتهاكات التي تقوم بها الدولة التركية على مناطق شمال وشرق سوريا التي تستهدف سكان المنطقة وبنيتها التحتية من أجل تأجيج المزيد من الصراعات والمشاكل والحروب, وأيضاً استهداف سبل العيش والموارد التي يقتات منها سكان المنطقة، ومن الأدوات المستخدمة في هذه الهجمات الوحشية والتي تسببت في أضرار جسيمة هي المسيّرات (الطائرات بلا طيار) وهنالك أدوات كثيرة وكل منها لها خاصية تعمل من أجلها ومن خلالها, وهذه الأدوات أكثرها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتكنولوجيا المعلومات وتعتمد على الذكاء الاصطناعي والآلات المتطورة جداً.

ومن خلال هذا البحث الذي يتناول عدة مراجع كانت الغاية أن نكتسب ونتعرف على ماهية المسيّرات، وكيف تم بناؤها والعمل عليها؟ وما هي الأهداف منها؟ وما هي الغايات التي يتم التطلع إليها؟

مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ التماسك والترابط في أدق التفاصيل يعطي القوة التي لم تكن موجودة في خيوط العنكبوت, لماذا؟ لأنّها من صنع مخلوق, وحتماً سيكون فيها ثغرات وأخطاء وهنا تكمن نقطة الانطلاق.

أجسام صغيرة تطير بدون طيار وبلا تكلفة كبيرة تُحلّق في السماء بلا رادع أو وازع، تقلع وتهبط في مساحة صغيرة جداً وسط بلدة أو غابة أو على ظهر مركب في البحر أو على جسم متحرك، تتجسس وترصد وتستهدف بل وتغير مسار المعارك على الأرض، ولا يحتاج السلاح الجديد إلى جيش جرار, إنما فقط من يسيّرها من على الأرض ويتحكم بها .

في محيط دولي إقليمي في الشرق الأوسط يعجّ بالصراعات المسلحة والسياسية وحروب بالوكالة، سواء بين جيوش أو جماعات أو فصائل؛ أصبحت المسيّرات سلاحاً يثير المخاوف، والجميع يملك بشكل أو بآخر مسيّرات نظراً لصغر حجمها وقلة كلفتها.

مشكلة البحث :

تتلخص مشكلة البحث الأساسية في عدة تساؤلات, منها:

1- ما هي هذه الأدوات التكنولوجية المتطورة التي تستخدمها الدول المهيمنة من أجل القتل والدمار والتخريب الذي تلحقه المسيّرات بالمنطقة؟

2- ما تاريخ صناعة وتطوير هذه الاجسام الطائرة القاتلة؟

3- ما الآثار الناجمة عن تطوير هذه الأنواع من الأسلحة؟

4- كيف يمكن مواجهة هذه التقنيات الحديثة

المدمرة وما هي الأساليب التي يمكن استخدامها لإيقاف تأثير هذه الأسلحة؟

أهمية البحث :

تأتي أهمية البحث في دراسة التطور المتسارع في عالم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات ودوره في تطوير أنماط وأدوات التسلح، ومدى اعتماد الدول المهيمنة على تلك الأدوات في سياساتها التدميرية تجاه منطقتنا.

أهداف البحث :

إن أهم أهداف البحث تتلخص في التالي:

١- الاطلاع على آخر المستجدات في تكنولوجيا المعلومات والتطور الصناعي.

٢- التعرف على الطائرات بلا طيار وما هي الحلول المتاحة للتصدي لها.

٣- التعرف على أمثلة من هذه الأجسام الطائرة الفتاكة.

أسئلة البحث:

١- ما هي تكنولوجيا المعلومات والذكاء الصناعي؟

٢- ما هي الطائرات بلا طيار؟

٣- كيف تعمل الطائرات بلا طيار؟

٤- إلى أين وصل التطور الصناعي في مجال الطائرات بدون طيار؟

مصطلحات البحث:

تكنولوجيا المعلومات information technology هي مجال شامل يركز على تطبيق التقنيات في معالجة إدارة المعلومات, أي أننا نستطيع القول إنها مجموعة من الأدوات والمنهجيات والعمليات والمعدات التي تُستخدم

"إن الأزمات الكبيرة التي تعيشها الحداثة الرأسمالية وإفلاس الدولة القومية كما وصفها المفكر والقائد عبد الله أوجلان، عادت بنتائج كارثية على شعوب الشرق الاوسط، كون الديكاتوريات المتشكلة بذهنية الدولة القومية للحداثة الرأسمالية في القرن العشرين باتت تشكل وبالاً على شعوبها والشعوب المحيطة، حيث الضغط والاضطهاد الذي عانته الشعوب وصل إلى درجة لا تحتمل"

لجمع المعلومات وتخزينها .

الذكاء الاصطناعي **artificial intelligence لأن هذا المصطلح مهم جداً سنأخذ كل مفردة على حدة**

الذكاء : تيرمان عرف الذكاء على أنه (القدرة على القيام بعملية التفكير). كولفن (الذكاء هو وصول الفرد إلى مرحلة القدرة على عملية التغيير). شترن (إن الذكاء هو القدرة على التكيف الفعلي مع المواقف والمشاكل الحياتية الجديدة). هوارد جارنر (عرف الذكاء على أنه مستوى كفاءة الفرد الفكرية التي تتشكل من مجموعة من المهارات التي يمكن للفرد استخدامها في حل المشاكل واكتساب معارف جديدة).

الاصطناعي :هذا المصطلح يأتي من كون الشيء اصطناعياً, أي من صنع الإنسان المعتمد بدلاً عن أن يكون بشكل طبيعي و تلقائي وعفوي أو عبر عمليات لا تتضمن ولا تتطلب النشاط

البشري. عند تركيب المفردتين معاً يستنتج الذكاء الاصطناعي ويكون تعريفه : هو قدرة الآلة على محاكاة العقل البشري, أي أن الآلات تستطيع العمل والتفكير مثل الدماغ البشري .

لغات البرمجة :هي طرائق تسهل للمبرمج كتابة برنامجه على هيئة تعليمات وأوامر يفهمها الحاسوب لغرض تنفيذ العمل المطلوب, ومن المعروف أن الحاسوب يحوّل اللغة المكتوبة إلى سلسة من صفر وواحد وهذا النظام يسمى Binary Numeral System . ومن لغات البرمجة الكثيرة والشائعة الاستخدام والتي تعمل على محاكاة الآلة:

لغة البرمجة C++ : لغة "سي بلاس بلاس" هي لغة عالية المستوى وهي من لغات البرمجة المتميزة التي تستخدم في تطبيقات الذكاء الاصطناعي, وأهم ما يميز هذه اللغة ويجعلها ذات كفاءة عالية في تطبيقات الذكاء الاصطناعي هي السرعة التي تتمتع بها, فهي من أسرع لغات البرمجة على الإطلاق.

لغة جافا :هي مجموعة واسعة من قدرات التعلم الأولى والمتكاملة من حيث الوظائف والتنبؤ والتصنيف, وهذه اللغة تؤكد على الحساب الرمزي والبرمجة الوظيفية والبرمجة القائمة وعلى قواعد تمكنك من استخدام الهياكل والبيانات التعسفية .

لغة ليسب :لغة مطابقة المعايير للأغراض العامة, وهي لغة وظيفية إلى حد كبير دون دلالات ألفاظ ملزمة وبكتابة ثابتة وقوية, وقد سميت "هاسكل" على اسم عالم المنطق هاسكل كوري.

لغة بايثون :هذه اللغة من لغات البرمجة التي نالت شهرة واسعة في مجال الذكاء الصناعي وتستخدم مع هذه اللغة حزم التطبيقات.

أولاً: تكنولوجيا المعلومات والذكاء الاصطناعي:

إن تكنولوجيا المعلومات أصبحت حاجة ملحّة, وقد أصبحنا لا نستطيع التحرك بدون أدواتها وعلى سبيل المثال الهاتف المحمول, فجميع بياناتنا تكون مخزنة بداخله وحتى متابعة العمل من خلاله وهذا المثال هو الأبسط, لطالما نسمع عن أمر تقوم به بضغطة زر أو بدون الحاجة لهذه الضغطة قد يكون الأمر من خلال إيعاز صوتي أو أن يكون مبرمجاً في وقت محدد أو ظرف محدد, فيبدأ بالعمل بشكل تلقائي وبشكل منظم وفق البرامج المدخلة ضمنه, فالذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا المعلومات أصبحت تلعب دوراً أساسياً في كل شيء في حياتنا اليومية ابتداءً من برامج تعديل الصور إلى برامج البناء والتصميم, وإلى المعامل الضخمة وشركات التصنيع وبرامج الخرائط والتتبع وغيرها الكثير الكثير.

تتمتع هذه التقنيات التي شهدتها الثورات المتتالية للصناعة والتطورات العلمية الصناعية بإمكانات كبيرة للاستمرار في توصيل مليارات الأشخاص إلى الويب، وتحسين كفاءة الأعمال والمؤسسات بشكل جذري، والمساعدة في تجديد البيئة الطبيعية من خلال إدارة أفضل للأصول.

لقد مثّل "إيلون ماسك" الرئيس التنفيذي لشركة تسلا Tesla و"سام ألتمان" المدير التنفيذي لشركة "أوبن إيه آي" حول احتمالية أن يكتسب الذكاء الاصطناعي "الوعي" في لحظة ما، لا سيما مع الجهود الكبيرة المبذولة من قبل كبرى شركات التكنولوجيا في العالم مثل "غوغل" و"مايكروسوفت" (Microsoft) و"أنفيديا" (Nvidia) لابتكار وتدريب "روبوتات ونماذج وبرامج لغوية متطورة تعتمد على الذكاء الاصطناعي.

إن أبرز ملامح الثورة الصناعية الخامسة تتجسد في تفوق الصناعات العسكرية بشكل بارز وحادّ.

حيث تؤكد الدراسات وجود صراع متصاعد فيما بين الدول الغربية وروسيا والصين، في حين أكدت الدراسات أن الذكاء الاصطناعي هو المستقبل، وأن من يتفوق في هذا المجال فسيحكم العالم.

فامتلاك القدرة على التعامل مع إحدى لغات البرمجة و أهمها في هذا المجال هي لغة بايثون Python والتي يجب إتقانها بشكل احترافي لكي يمكن البدء في مجال الذكاء الاصطناعي

إن برامج الذكاء الاصطناعي ليست حكراً على لغة واحدة من اللّغات, فتتم كتابة هذه البرامج باستخدام جميع اللغات تقريباً ومنها: C++, Java, Lisp , Python وعلى الرغم من أن استخدام لغة بايثون في مجال الذكاء الاصطناعي أمر حديث؛ إلا أنها تعتبر من أفضل وأسرع اللغات في التعامل مع برامج هذا المجال.

نستخلص أهمية تكنولوجيا المعلومات والذكاء الاصطناعي من خلال حادثتين تم تداولهما إعلامياً.

إنّ خطاب فلاديمير بوتين لمجموعة من الطلاب الروس من جميع أنحاء البلاد في أول يوم لهم في المدرسة عام ٢٠١٧ وقال حينها: "إن الذكاء الاصطناعي هو مستقبل ليس فقط لروسيا ولكن للبشرية جمعاء ومن يصبح الرائد في هذا المجال سوف يحكم العالم «.

وقد كان تصريح عام ٢٠١٧ في جريدة جلوبال تايمز الصينية :"إن مجلس الدولة الصينية وضع خططاً طموحة لتصبح الصين الدولة الأولى والرائدة عالمياً في مجال الذكاء الاصطناعي, وإن تقدم الذكاء الاصطناعي يمكن أن يضع نهاية للعنصر البشري، أي أنه ينطلق من نفسه ويعيد تصميم نفسه بمعدل مزايد ومستمر."

إنّ الذكاء الاصطناعي الذي يضم كل الخوارزميات والطرق النظرية منها والتطبيقية التي تعنى بأتمتة عملية أخذ القرارات مكان الإنسان سواء كان ذلك بطريقة كاملة أو جزئية بمعية الإنسان، مع القدرة على التأقلم أو الاقتباس أو التنبؤ، عادة

"إن الذكاء الاصطناعي الذي يضم كل الخوارزميات والطرق النظرية منها والتطبيقية التي تعنى بأتمتة عملية أخذ القرارات مكان الإنسان سواء كان ذلك بطريقة كاملة أو جزئية بمعية الإنسان، مع القدرة على التأقلم أو الاقتباس أو التنبؤ، عادة يكون البرنامج ذكياً إذا قام تلقائياً بسلوك غير مبرمج مسبقاً حيث يستطيع من نفسه أخذ قرارات جديدة للتكيف مع حالته وحالة محيطه عبر الزمن."

يكون البرنامج ذكياً إذا قام تلقائياً بسلوك غير مبرمج مسبقاً حيث يستطيع من نفسه أخذ قرارات جديدة للتكيف مع حالته وحالة محيطه عبر الزمن، إنّ خصائص الذكاء الاصطناعي من التصرفات التلقائية والتطور الذاتي والتعلم الآلي التلقائي توحي بفكرة حرية الآلة المطلقة في أخذ القرارات في المستقبل القريب, ومنه التخوفات المتصاعدة حالياً على الساحتين الإعلامية والأكاديمية، لكن الواقع التقني والعوائق الأخلاقية والتكنولوجية وإشكالية أخلاقية البرامج المعلوماتية والآلات الذكية, ليست بجديدة وهي مطروحة منذ البداية وتستمر في مرافقة التطور التكنولوجي, بل أنها خلقت فرعاً جديداً في علم المعلوماتية والحقوق يتخصص في هذا المجال.

ثانياً: الطائرات والطائرات بلا طيار:

بداية من حمامة أرشيتاس اليوناني عام ٤٠٠ ق.م إلى الورقية الصينية بين ٤٠٠ ق.م - ٣٠٠ق.م، ومن

> **ولا شك أن الاستخدام الأكثر شيوعاً لهذه الطائرات يكون للأغراض العسكرية والتي عرفت باسم RPV'S ذات الأنظمة اللاسلكية والتي يمكن برمجة مهمتها ابتداءً من الإقلاع إلى أداء المهمة وعودتها، ومن المعلوم بعد أن هذا الانفتاح على علم الذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا المعلومات لعب دوراً مهماً جداً في هذا المجال والفضاء الواسع، فهي الآن تستطيع مجابهة الجيوش والفتك بها.**

أرخميدس إلى عباس بن فرناس ومن ثم الراهب الانكليزي روجر بيكون, وبعد إثباتات جيوفاني نقف عند الحدث الجلل للفرنسيَين ماركيز دي وجان ف بيلاتر الذي سجل فيه أول طيران للإنسان من خلال آلة مخترعة, وحتى البداية كانت لمسافة ٨ كيلومتر وهذا الأمر كان محفّزاً لانطلاق مسيرة السفن الهوائية, وبدأ هنا التحدي والذي تحقق على يد جورج كايلي البريطاني وطائرته الشراعية إلى الشراعية بمحرك ومراوح على يد وليم س هنسون البريطاني وصديقه جون سترنجلفيللو.

عام ١٨٤٨م ومع تجارب كلمنت الفرنسي إلى هيرام ماكسيم الأمريكي ومنهما إلى أوهايو والأخوين رايت, وتوالت الأحداث والجميع بدأ يعمل بجد وينافس على التقدم والتطوير في مجال الطائرات حتى عام ١٩٢٤ ففي ذلك الزمن استطاعت طائرتان أمريكيتان الطيران لأول في رحلة حول العالم وبمدة قدرها ستة أشهر وبمسافة ٤٢,٣٩٨كم.

ومن ثم استطاعت كونكورد التي انطلقت من الخطوط الجوية الفرنسية وكانت رحلتها حول العالم وفي زمن قدره ٣٢ ساعة و ٤٩ دقيقة و ٣ ثوان, وهذه الرحلة كانت عام ١٩٩٢ ولم تتوقف الابتكارات والتطورات إلى يومنا هذا, فالجميع يعمل من أجل إثبات الوجود وتصدّر الشاشة وتقديم الأفضل وبأحدث الأساليب التكنولوجية, إلى أن وصلت الطائرات لمرحلة تطير بها بشكل موجّه وبدون طيار, أما هذه فتبرمج مسبقاً لطريق تسلكه أو توجَّه عن بعد مع احتوائها على كاميرات, وتستطيع أيضاً أن تحمل حمولة كالقذائف لأداء مهامها .

ولا شك أن الاستخدام الأكثر شيوعاً لهذه الطائرات يكون للأغراض العسكرية والتي عرفت باسم RPV'S ذات الأنظمة اللاسلكية والتي يمكن برمجة مهمتها ابتداءً من الإقلاع إلى أداء المهمة وعودتها, ومن المعلوم بعد أن هذا الانفتاح على علم الذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا المعلومات لعب دوراً مهماً جداً في هذا المجال والفضاء الواسع, فهي الآن تستطيع مجابهة الجيوش والفتك بها.

بات من المعلوم أن التكنولوجيا دخلت في كل المجالات من أبسط الأمور إلى قطع غيار الطائرات مروراً بالطب والجراحة, بما فيها الأطراف الصناعية وتكنولوجيا المستقبل, ووفقاً للعلماء قد تسمح بصناعة طائرات يمكنها أن تصلح نفسها, أو تتجزأ إلى أجزاء صغيرة , أو تسقط الصواريخ بواسطة الطاقة المباشرة, أو إنقاذ مدنيين أو جنود في ظروف صعبة.

ويزعم العلماء في مؤسسة BAE البريطانية المتخصصة بالصناعات الجوية والدفاعية, أن الطباعة ثلاثية الأبعاد قد تصبح متطورة جداً بحلول العام ٢٠٤٠ , بحيث أنها قد تسمح بتصنيع طائرات استطلاع بلا طيار صغيرة الحجم, بحيث تكون محمولة على طائرات أخرى, ويمكن لهذه الطائرات أن تستخدم في مجموعة متنوعة من الاستخدامات, كالاستطلاع طويل الأمد أو المستمر أو إنقاذ المدنيين والجنود من

مواقف صعبة يتعرضون لها بشكل فردي. وكان الباحثون الذين يعملون على تقنيات الطائرات المستقبلية ، يدرسون أيضاً فكرة يمكن تطبيقها بواسطة الطابعات ثلاثية الأبعاد بالغة التطور, وباستخدام تقنية "التجميع الروبوتي." كما درسوا فكرة الطائرات التي يمكنها أن تذيب نفسها تلقائياً في حال وقعت بأيدي أطراف معادية باستخدام دائرات كهربائية قابلة للتحلل.

وهناك إمكانية تصنيع قطع غيار يمكن أن تعيد إصلاح نفسها في غضون دقيقة حتى أثناء تحليقها, وفقاً لما نقلته صحيفة "غارديان" البريطانية. كما تدرس ابتكار نوع من الطائرات القابلة للتفكك إلى عدد من الطائرات الأصغر حجماً ومن ثم التجميع مرة أخرى على غرار الشخصيات الخيالية في فيلم الخيال العالمي "المتحولون" أو "ترانسفورمرز." ويمكن تزويدها بسلاح يعمل بالطاقة العاملة بسرعة الضوء ، بحيث يمكنها إسقاط الصواريخ والطائرات المعادية. ويقول مدير قسم دراسات المستقبل والهندسة المستقبلية في الشركة نيك كولوسيمو: "بالطبع لا نعرف بالضبط نوع التقنية التي ستستخدم عام ٢٠٤٠ ، لكن من الرائع أن يتبين للناس بعض المفاهيم القابلة للتطبيق بواسطة التقنيات الحالية, وإلى أين ستقودنا." وطرحت الشركة أربعة أفكار مستقبلية للطائرات بلا طيار المطبوعة بطابعات ثلاثية الأبعاد بوصفها أفكاراً تكنولوجية مستقبلية تعتقد أنها قابلة للتحقيق والاستخدام في الطائرات المدنية والعسكرية عام ٢٠٤٠ ، أو حتى قبل ذلك.

ثالثاً: المسيّرات وآلية عملها (قوانين تحليق الطائرات بلا طيار):

هنالك عدة قواعد عالمية للطائرات بدون طيار وهي عدم التحليق فوق المناطق المأهولة بالسكان, وعدم التحليق ليلاً مع احترام مسافات التحليق وحدّها الاقصى ١٥٠ متراً.

وللمسيّرات ثلاثة أنواع وهي mini و midi و maxi أو High flyer

وتتألف الطائرات بلا طيار من عدة مكوّنات أولها المحركات, ولها عدة أنواع, محركات نفاثة ومحركات رحوية ومحركات مكبسية ومحركات كهربائية, وأيضاً البطاريات التي تعمل على تغذية الأجهزة والقطع التي تعمل بالطاقة الكهربائية, وللبطاريات عدة أنواع ومن أشهرها الليثوم ذات الكفاءة العالية مع مراعات معايير وزن البطارية داخل الطائرة ومن اهم المكونات الجسم الخارجي للطائرة أي الهيكل الخارج وأهمية هذا المكون ليست فقط مرعات الوزن ولكن المواد التي يصنع منها الجسم الخارجي فإذا تم استخدام الفايبر جلاس وطلاء من نوع مخصص فإن الرادارات لن تتمكن من اكتشاف الطائرة .

وكلما زادت الدقة في اختيار القطع ودقة تبادل المعلومات, ازدادت صعوبة اكتشافها, ومن مزايا الجسم الخارجي أنه سهل التركيب في أغلب المسيّرات, مثلاً على ذلك: سكاوت الإسرائيلية يستغرق تجميعها ١٠ دقائق أو أقل من ذلك, وأيضاً هنالك المعدات الملاحية ووحدات التحكم والسيطرة على المسيّرة, وهذا الأمر ليس بالسهل إنما يحتاج إلى دقة وكفاءة عالية .

فالمسيّرة تحتاج لعدة أدوات ومستشعرات تقوم بتصحيح الارتفاع ومستوى الطائرة, وهذه الأدوات تلعب دوراً مهماً جداً في عملية استقرار وضعية الطيران, ويمكن أيضاً أن تصحح مسارها من مستقبلات الملاحة المرتبطة بالأقمار الصناعية دون الحاجة لتدخل المحطة الأرضية.

ومن أشهر أنظمة الملاحة نظام أوميغا, وهنالك العديد من الأنظمة الملاحية المتطورة والطائرات الأكثر تقدماً تعمل على عدة أنظمة ملاحة مختلفة لكي تتمكن الطائرة من تحقيق أفضل أداء لها, وكل هذا يكمن في صندوق وزنه ١١٤ غرام بوزن الهاتف المحمول, وهو قادر على أن يكون خط بيانات مرسل ومستقبل, ولدينا ايضاً من

"صحيح أن الطائرات بلا طيار تصيب الهدف بشكل دقيق وتتبع الهدف حتى في الليل وباستخدام الرؤية بالأشعة تحت الحمراء، لكن يمكن أن يتخفى الأشخاص من الإصابات بطرق وقائية، ففي النهار تلعب الغابات الكثيفة دوراً مهماً وعاملاً قوياً للتخفي، وأيضاً ظلال البنايات والأشجار، ومثل هذه الأمور تستخدم ليلاً مع التركيز على عدم استخدام الأنوار والمصابيح"

الجوانب المهمة جانب الحمولة, وهي تعتمد على حجم الطائرة وقوّتها.

فالطائرات المسيرة التي تحمل القذائف من المفترض أن تكون كبيرة الحجم وقادرة على حمل الأوزان الثقيلة, وهنالك أيضاً حمولات تسمى بالحمولات الاستخباراتية, وهذه الحمولة غالباً تكون أجهزة للتصوير كالكاميرات التلفزيونية أو مستشعرات رادارية إلكترومغناطيسية, وكل جهاز يعمل بوظائف وخصائص محددة ويمكن جمع النظامين بنفس الطائرة, ويمكن إضافة أنظمة أخرى مثل نظام الإشارات سينغت والذي يعمل على الإعاقة والتشويش وتحديد الأهداف, ومن المعدّات التي تضاف في الحمولات الاستخباراتية حمولة تدعى masint وهذه من خصائصها التتبّع والقياس.

ويمكن القول إنها تستطيع قياس وتحديد مدى الصواريخ والعناصر الطائرة, وإذا تمت إضافة حمولة ديناميكية فهذه الطائرة تصبح مجهّزة للهجوم والمواجهة كما في طائرات UCAVs

ويجب التنويه لأمر مهم جداً أن أحد أهم أجزاء هذه الطائرة كونها مسيّرة؛ يجب أن يكون خارجها ومعزل عنها, فإما أن تكون قاعدة أرضية بعيدة عنها أو أن تكون جوية كنظام الطيران الآلي, وتلعب هذه الأنظمة دوراً فاعلاً جداً, فحتى لو تم قطع الاتصال بين المحطة والطائرة فإنها سوف تعود بشكل ذاتي, فهي مبرمجة بثلاث طرق رئيسية, برمجة مسبقة وتحكم عن بعد وتحكم ذاتي, أي التفكير الذاتي للطائرة, وكل هذه الأمور يتم متابعتها وبرمجتها وتسييرها على أيادي مبرمجين مختصين ومدرَّبين جيداً.

المسيّرات في أكثر الأحيان تستهدف الأهداف من خلال شخص مخبر أو أقراص Gps فعندما يعطي المخبر موقع الهدف أو يقوم بوضع الشريحة المخصصة ويعطي مركز الاستخبارات التابع له رقم هذه الشريحة وعند بحثهم عن رقم الشريحة, يظهر لهم موقعها فتذهب المسيرة إلى الهدف المطلوب, وعند الوصول إلى الهدف تعمل كاميرات الطائرة بقياس المسافة الدقيقة للهدف فيما إذا كانت المسافة كافية من أجل إطلاق الصاروخ, وفي مقدمة الصاروخ مثبتة عدسة من أجل التتبع لإصابة الهدف بشكل دقيق, وغالباً يكون المخبر قريباً من الهدف ليعطي تقريراً عن إصابة الهدف .

صحيح أن الطائرات بلا طيار تصيب الهدف بشكل دقيق وتتبع الهدف حتى في الليل وباستخدام الرؤية بالأشعة تحت الحمراء, لكن يمكن أن يتخفى الأشخاص من الإصابات بطرق وقائية, ففي النهار تلعب الغابات الكثيفة دوراً مهماً وعاملاً قوياً للتخفي, وأيضاً ظلال البنايات والأشجار, ومثل هذه الأمور تستخدم ليلاً مع التركيز على عدم استخدام الأنوار والمصابيح, وتلعب بطانيات الطوارئ دوراً فاعلاً جداً, فالبطانيات المصنوعة من المايلر يمكنها صدّ الأشعة تحت الحمراء, وعندما تكون درجة الحرارة بين ٣٦ و ٤٠ مئوية لا يمكن لكاميرات الأشعة تمييز الجسم من محيطه, والطقس السيئ له دور فاعل في إضعاف إداء المسيّرات, ففي الرياح الشديدة والدخان والعواصف لا يمكن العمل.

ومن أهم نقاط الحماية والوقاية عدم استخدام الشبكة اللاسلكية ولا استعمال الهاتف المحمول, ومن الأفضل نثر الزجاج والمرايا على الأسطح لإرباك الطائرات, ويمكن استخدام دمى في حجم الإنسان لمغالطة أنظمة التعرّف .

يمكن تمييز بعض الأنواع من الطائرات بلا طيار (ميراج) كما يلي :

النسرCondor : يستخدم النظام للاستطلاع الفوري باستخدام آلات تصوير حرارية، وتلفزيونية، ويمكن للنظام توجيه نيران المدفعية، كما يمكن أن يستخدم كذلك لتصحيح نيران المدفعية، وتصحيح نيران القطع البحرية عند قيامها بقصف أهداف ساحلية.

الغراب Raven: ويستخدم هذا النظام في حالة الاستطلاع على أن تعمل الطائرة ذاتياً بالبرمجة المسبقة اعتماداً على النظام الملاحي المحمول جواً والذي يعمل مع المحطات الأرضية لنظام الملاحة أوميغا، مع عمل التصحيح اللازم من محطة التوجيه الأرضية.

ويمكن أن تطلق الطائرة من البرّ أو من البحر, ويمكن استعادتها في نقطة محددة طبقاً للبرنامج الذي عُذّيت الطائرة بها قبل الطيران.

الببغاء Parrot: تُستخدم في أعمال الاستطلاع والإعاقة الإلكترونية وكمحطة إعادة إذاعة، ولا تحتاج الطائرة في هذه الحالة للاتصال بالمحطة الأرضية.

البجعة Pelican : تستخدم في حالة معاونة السفن البحرية, إذ تحمّل الطائرة بمستشعرات تلفزيونية وحرارية FLIR، وتكون مهمتها اكتشاف الأهداف في ما وراء خط الأفق باستخدام الرادار المحمول جواً، ثم تحديد تلك الأهداف باستخدام المستشعر المناسب، وذلك أثناء قصف الأهداف بالقذائف الصاروخية.

الطائرة بلا طيار الإيطالية MIRACH: عملت الشركة الإيطالية METEOR على إنتاج سلسلة من الطائرت بلا طيار MIRACH-٢٦ وأدخلتها الخدمة لدى الجيش الإيطالي، ويبلغ وزنها عند الإقلاع ٢١٠ كغ، وحمولتها الصافية للمعدات ٥٠ كغ، وسرعتها القصوى ٢٠٠ كم/ ساعة، وتصمد في الجو لأكثر من ٨ ساعات.

وتستخدم هذه الطائرة نظام الملاحة لتحديد الموقع عالمياً عبر الأقمار الاصطناعية . وهي تحمل آلة تصوير تلفزيونية للرؤية نهاراً وليلاً والدفع النفاث للاستطلاع في المدى الأبعد.

الطائرات التي أنتجها الاتحاد السوفيتي سابقا: ارتبط تطور الطائرات بلا طيار في الاتحاد السوفيتي سابقاَ بنجاح الغرب في هذا المجال، على الرغم من أن الروس قد فكروا في جمع المعلومات بوساطة هذه الطائرات قبل الغرب في بداية الخمسينيات, إذ كانت أولى الطائرات المسيرة بلا طيار قد أخِذت من الطائرات الموجودة آنذاك٢٥ YAK-YAK, ٢٦-RD Mandrake للاستطلاع من الارتفاعات العالية مع إضافة بعض وسائل الاستطلاع الإلكتروني.

وقد خدمت طائرة الماندريك هذه كطائرة استطلاع بلا طيار رئيسية في حالات التقدم والانفتاح في الخارج بما في ذلك مصر, وذلك بين منتصف الستينيات وحتى منتصف السبعينيات.

اللاعب الثالث هو إيران، التي اعتمدت على موارد محلية في تصنيع الطائرات المسيرة لأنها أقل كلفة للبلاد التي تقبع تحت العقوبات الاقتصادية, وكذلك بدأت إيران في تطوير برامج للطائرات المسيّرة منذ ثمانينيات القرن الماضي خلال الحرب ضد العراق (١٩٨٠-١٩٨٨).

وكانت برامج إيران التي كانت تطمح لإنتاج الطائرات المسيرة وتصديرها إلى الفصائل والدول وحلفائها وأيضاً عدد منها إلى روسيا، قبل أن تقوم الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية بفرض عقوبات على العشرات من الكيانات وأربعة أفراد متمركزين في إيران وماليزيا والصين وإندونيسيا.

حسب معطيات بحثية رسمية أمريكية، وذلك لقيامهم بتسهيل بيع إيران مكونات إلكترونية أمريكية المنشأ، لطائرات مسيرة أحادية الاتجاه تنتجها منظمة تابعة لقوات الحرس الثوري الإيراني.

كما اتهمت الولايات المتحدة إيران بالضلوع في تزويد الحوثيين بمسيّرات استهدفوا بها سفناً في البحر الأحمر.

يرجح أن القوات الأمريكية اختارت ـ في البداية ـ الاعتماد بشكل واسع على الخبرات التي تعمل عليها الشركات الإسرائيلية المتخصصة في تصنيع المسيّرات لجيلها المتقدم من الطائرات ذات الطرازات المختلفة، وقد طورت بعد ذلك تصميمات أخرى.

لقد عرضت في البداية عام ١٩٦٧ نماذج الطائرة عين سكاي Sky Eye وشملت أنواعاً متعددة من طائرات (R٤E)، التي دخلت الخدمة لدى سلاح الجو التايلاندي في ١٩٨٣ ، وتم استخدامها في مصر ، ويبلغ الوزن الأقصى للطائرة عند إطلاقها ٣٤٥ كجم ، وحمولتها الصافية القصوى ٦٥ كجم، وتستمر في الطيران لأكثر من ١٠ ساعات.

مشروع ARGUS: يهدف هذا المشروع إلى استخدام الطائرات من غير طيار في تقييم الآثار الفورية الناجمة عن القصف الجوي للطائرات الحربية, حيث أجرت القوات العسكرية الأمريكية بدايات هذه التجارب عام ١٩٩٣م، فاستخدمت في التقييم طائرتين معدّلتين من نوع BMQ-٣٤ حيث جهزت كل منهما بعدد ٣ آلات تصوير تلفزيونية ، وزودت بالأشعة تحت الحمراء، وأطلقت الطائرتان من الجو من طائرة من نوع DC-١٣٠

مشروع هانتر Hunter: هو برنامج أمريكي مفعّل للطائرة هانتر Hunte لطائرات تتصف بقصر المدى ودقة الهدف, وبدأت هذا المشروع بداية عام ١٩٩٢م، إنّ الطائرة Hunter هي طائرة بلا طيار ذات محركين, ويبلغ وزنها عند الإطلاق ، ٧٧٠ كجم، وحمولتها الصافية ١١٢ كجم، وسرعتها القصوى ٢٠٥ كم/ ساعة، وقدرتها القصوى على البقاء في الجو هي ١٠ ساعات .

قام الجيش الأمريكي بتجهيز ٨١ طائرة Hunter في ٢٠٠١، بنظم حديثة لكشف حقول الألغام, أي النظام المحمول جواً لكشف حقول الألغام عن بعد التي تستطيع كشف الألغام السطحية والمطمورة .

مشروع تير TIER: لقد بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بإنتاج سلسلة طائرات برنامج TIER وعرفت بالطائرة٧٥٠-GRANT من إنتاج (CIA) والتي استخدمتها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (GENERAL ATOMICS) من موقع للإطلاق في ألبانيا، في مهامّ فوق "البوسنة" مدتها ٢٤ ساعة، وهذه الطائرة بلا طيار يبلغ وزنها ٥١٣ كجم، وهي مزوّدة بآلة تصوير حراري، وقد بيعت منها عدة نماذج إلى الدولة التركية التي استخدمتها في الكثير من المناطق .

رابعاً : المسيّرات التركية أدوات إجرام وإرهاب مستمر:

المسيّرات التركية التي تسببت بأضرار جسيمة في مناطق شمال وشرق سوريا وتسببت في قتل العديد من الناس الأبرياء وتدمير للبنية التحتية ومحاربة السكان في سبل عيشهم, حتى أنها أصبحت تستهدف المشافي, وهذه الأمور جميعها تعد جرائم حرب وانتهاكات للأعراف والقوانين الدولية .

وفقاً لدراسات بحثية وبيانات رسمية لدولة الاحتلال التركي، فقد وقّعت شركة "بايكار" المنتجة للمسيرات في عام ٢٠٢٢ عقود تصدير مع ٢٧ دولة، بإجمالي عائدات بلغت ١,١٨ مليار دولار، وأبرز المشترين أوكرانيا وبولندا وأذربيجان والمغرب والكويت والإمارات وإثيوبيا وتركمانستان وقرغيزستان ورومانيا وألبانيا.

ولم تتوقف الآلة العسكرية التركية عن إنتاج الطائرات بلا طيار أو مسيّرات الموت التي تم

إرسالها إلى مناطق عديدة في سوريا والعراق واليمن وليبيا وأرمينيا وأوكرانيا, ولعبت دوراً في الحرب الروسية الأوكرانية.

تشير تقديرات معهد الدراسات السياسية الدولية (ISPI) إلى أن القوى الكبيرة والفاعلة في الشرق الأوسط "دولة الاحتلال التركي وإيران" وغيرها (باستثناء إسرائيل) أنفقت ما لا يقل عن ١,٥ مليار دولار على الطائرات العسكرية بدون طيار على مدى السنوات الخمس الماضية.

يمكننا القول إن التدخل التركي في الشأن السوري أخذ بعداً أكثر تحولاً عندما تم استخدام المسيّرات كوسائل هجوم واضحة, بدأ حينما استخدمت دولة الاحتلال التركي أعداداً كبيرة من المسيّرات منعت به قوات الحكومة السورية في عام ٢٠٢٠ من تدمير قوات معارضة تتبع لها, فقد أوقفت طائرات مسيرة تركية من طراز بيرقدار الكثير من المركبات المدرعة.

ومن هذه الأدوات الإجرامية:

الطائرة المسيرة بيرقدار أقنجي : التي لديها القدرة على جمع المعلومات عن طريق تسجيل البيانات التي تتلقاها من أجهزة الاستشعار والكاميرات التي تحملها على متنها, بالإضافة إلى ستة حواسيب مزوّدة بالذكاء الاصطناعي وتقنيات متطورة جداً مثل رادار AESA وكاميرات EO\IR وأنظمة المراسلة عبر الأقمار الصناعية وبحمولة تساوي ١٣٥٠ كيلوجرام, وهي أيضاً لا تعتمد على المستشعرات الخارجية ولا على أنظمة تحديد الموقع GPS بل تعتمد على الذكاء الاصطناعي, وتعمل حتى في الظروف السيئة مع رادار للطقس وآخر للأرصاد الجوية, وتستطيع التحليق لمدة ٢٤ ساعة متواصلة بمحركين بقوة ٧٠٠ حصان.

الطائرة المسيرة «عذاب»: ولهذه الطائرة استخدامات متعددة لما تتمتع بها من تقنية وخصائص فنية متطورة, وتسمى بالمسيّرة الانتحارية وتم تطويرها من قبل شركة «روبيت للتكنولوجيا» لقد اجتازت هذه الطائرة اختبارات الطيران الطويلة وقدرتها على الحمولات العالية بنجاح.

> **"إن عملية التدخل في الشؤون الداخلية للدول هي لعبة سياسية اعتمدتها الدول المفترسة في تنفيذ مآربها وتحقيق ما ينسجم وإستراتيجيتها، وليس خفياً على أحد ما قامت به هذه الدول من تدخل واضح في شؤون العالم بصورة عامة، ودول العالم في منطقة الشرق الأوسط بشكل خاص، حتى أن التغيرات التي حدثت وتحدث خلال تلك المرحلة كان يخطط لها في دهاليز عواصم الدول العظمى"**

لقد تم تطوير نوعين من هذه الطائرة وأظهرت فعالية بسبب الخصائص التقنية والتشغيلية, فهي قادرة على حمل أنواع مختلفة من الذخيرة بما فيها الرؤوس الحربية المتوفرة لدى القوات المسلحة الأمريكية والغربية, وهذا منحها إمكانية دمجها ضمن السلاح الجوي للدول الأخرى.

لقد تم تصميم الطائرة بنسخ جديدة بطول جناحين يبلغ ١٥٠ و٢٠٠ سنتيمر, ويمكن لطراز ٢٠٠ أن تحمل حمولة تصل إلى ١٥ كيلوغراماً, ووزنها عند الإقلاع ٥٠ كيلوغراماً, كما يزن طراز ١٥٠ نحو ٧ كيلوغرامات ويمكنه حمل ٣ كيلوغرامات من الذخيرة .

خامساً: نظم الرصد الرادارية :

لقد عرف المبدأ العام للرادار منذ زمن بعيد, منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إلا أن التطور التكنولوجي قد أدى إلى ابتكار أنظمة بالغة التعقيد وبمواصفات عالية في الدقة والأداء, حيث يعرف الرادار بأنه نظام إلكتروني يقوم بكشف الأجسام العاكسة للإشعاعات الكهرطيسية, وتحديد معاملاتها بشكل عام مثل: المدى, السمت, الارتفاع, السرعة, الاتجاه.. (كلمة رادار) RADAR مختصرة عن التعريف التالي للمهمة باللغة الإنكليزية: Radio Detection And Ranging. بشكل عام تتميز الأمواج الكهرطيسية بترددتها المستخدمة في النظم الرادارية بعدم تأثرها بالليل والنهار, أو بالظروف الجوية مثل: المطر أو الدخان أو الضباب أو الغبار ...الخ, مما يمكّنها من الكشف ضمن ظروف محيطية قد لا تستطيع وسائل الكشف الأخرى مثل النظم البصرية أو الحرارية العمل ضمنها. وبما أن الحديث يتم عن كشف الأجسام عن طريق الأمواج المنعكسة فإن أول وأبسط تصنيف للرادارات يتبادر للذهن, هو تصنيفها إلى رادارات فعالة وأخرى غير فعالة.

الرادارات الفعالة: في هذه الحالة تنعكس الأمواج المرسلة من المرسل الراداري عن الجسم المكتشف طائرة مثلاً كإشارة صدى, دون أن يقوم الجسم المرسل إليه إشارات الرادار بأي نوع من الإرسال, وبناءً على الأمواج المنعكسة يقوم الرادار باستخلاص المعلومات الأساسية عن هذا الجسم.

الرادارات الفعالة مع الأجسام الفعالة: وفيها تنعكس الأمواج المرسلة من الرادار عن الجسم كإشارات صدى مع إشارة إضافية مرسلة من قبل الجسم نفسه؛ طائرة ترسل إشارات تعارف. تبرز هذه الأنظمة في أنظمة السطع والإنذار, حيث تستقبل هذه الأنظمة إشارات أهداف رادارات أخرى, أو طائرات, وتقوم بتحليلها وتحديد مواصفاتها.

المبدأ الأساس للرادار: عند إرسال الإشارات الراديوية إلى الجسم العاكس بطاقة معينة, فإن جزءاً بسيطاً من الطاقة ينعكس ويعود بالاتجاه المعاكس إلى النظام الراداري, وهذه الطاقة المنعكسة تدعى الصدى «ECHO"، يحتاج النظام الراداري لجملة إحداثيات لتحديد موضع الأجسام المكتشفة, تحدد عادة زاوية الرادار باتجاه عقارب الساعة ابتداءً من الشمال الحقيقي, ويشار للمستوى الأفقي Horizontal plane بالمستوى الموازي لسطح الأرض, والزوايا بالمستوى الأعلى تقاس بمستوى تخيّلي متعامد مع المستوى الأفقي يدعى المستوى الشاقولي Vertical plane .

أمّا النظام الراداري فهو مركز جملة الإحداثيات, إن الخط المباشر "خط الرؤيا" من الرادار للهدف يدعى بالمدى Range, بينما تدعى الزاوية بين المستوى الأفقي والمدى بزاوية الارتفاع في المستوى الشاقولي Elevation angle, أما الزاوية التي تقاس باتجاه عقارب الساعة عن الشمال الحقيقي تعرف بزاوية الاتجاه الأفقي Azimuth or True Bearing.

الخلاصة والتوصيات:

إن أهم ما يمكن فهمه في بحثنا المتواضع هذا أنه كيف تمكنت الطائرات المسيرة من تغيير الحروب والجغرافيا السياسية في الشرق الأوسط, وكيف سيكون الوضع في العقود القادمة.

رأينا كيف شهد العقد الماضي تطورات خطيرة في استخدام الطائرات المسيّرة, وكانت تستخدم بداية في عمليات اغتيال قبل أن تنتقل إلى الاستهدافات الكيميائية في سوريا ٢٠١٨ وفي ليبيا ٢٠١٩ وفي أوكرانيا ٢٠٢١, وكذلك في ناغورو كاراباخ أثناء الصراع الأرميني الأذربيجاني, وحتى السفن في باب المندب, والاستخدام المكثّف في غزّة, لقد غيرت المسيّرات من الاستراتيجيات العسكرية في المنطقة, لكنها في المستقبل ستكون أكثر ضراوة في التغيير.

كل ما يمكن قوله إننا اليوم توصّلنا إلى حقيقة وهي القدرة التدميرية الكبيرة لهذه المسيّرات. لقد وصلنا الآن إلى نقطة انتشار الطائرات بدون طيار بشكل غير منضبط في جميع أنحاء الشرق الأوسط, فاليوم يمكن لأي دولة أو جهة غير حكومية أن تحصل على تقنيات الطائرات بدون طيار كسلاح.

وأن هذه القدرة ستزيد المدى والدقة والقوة التفجيرية والتعقيد خلال العقد المقبل. لذا فمن المرجح أن يكون مستقبل الجغرافيا السياسية والصراع في المنطقة مليئًا بالسماء المتنازع عليها. حيث يمكن للجهات الفاعلة الأضعف والأصغر حجماً أن تشن هجمات فتاكة بعيدة المدى من الجو ضدّ أهداف مدنية وعسكرية.

إن أهم ما يمكن طرحه أن هذه المسيّرات اليوم تشكل حالة رعب حقيقة لشعوب المنطقة, وهي بعيدة عن الردع الأخلاقي ولا تخضع لمعايير وشروط الاشتباكات العسكرية, ولا للقوانين الحربية والعسكرية.

يمكننا القول في نهاية هذا البحث: إنّ جميع الأطروحات البالية التي تريد قوى الهيمنة العالمية والليبرالية الجديدة حقنها في عقول شعوبنا في منطقة الشرق الأوسط . ولأن المفكر والقائد «عبد الله اوجلان» والحركة التحررية التي رفضتا التحول إلى آلة للسياسات المفروضة. ويدعو إلى الحلول التي تحقق الأخوة. والديمقراطية والمساواة لشعوب المنطقة. نرى أن القوى المهيمنة والرجعية الموالية لها تعمل ما في وسعهما من أجل تصفية أو تضييق الخناق على الحركة الديمقراطية والتحول السياسي والقيادات الاستراتيجية الجديدة في الشرق الأوسط .

إنّ عملية التدخل في الشؤون الداخلية للدول هي لعبة سياسية اعتمدتها الدول المفترسة في تنفيذ مآربها وتحقيق ما ينسجم واستراتيجيتها. وليس خفيّاً على أحد ما قامت به هذه الدول من تدخّل واضح في شؤون العالم بصورة عامة, ودول العالم في منطقة الشرق الأوسط بشكل خاص, حتى أن التغيرات التي حدثت وتحدث خلال تلك المرحلة كان يُخطط لها في دهاليز عواصم الدول العظمى. وسوريا وباعتبارها تمثّل حلقة مهمة في هذا الصراع. فتاريخها المعاصر يوضح تلك الصورة, حيث شهدت البلاد سلسلة من التدخلات العنيفة التي بدأت بتدخل فصائل مدعومة من تركيا عام ٢٠١٢ ومن ثم الاحتلال المباشر بداية عام ٢٠١٦ ومن ثم استخدام أدوات أكثر إجرامية ومنها الطائرات المسيّرة وأساليب الحرب الخاصة, وبصورة منظمة أخفت وراءها بشكل أو بآخر دورها في زعزعة استقرار هذا البلد.

الهوامش والمصادر :

-1 الذكاء الاصطناعي، عمر سليم، مجلة BIMARABIA مصر 2023م

-2 الذكاء الاصطناعي في الشرق الأوسط، هديل كرنيب، بيروت، مؤسسة النهار 2021م

-3 الطائرات المسيرة التركية، مروان سمور ،عمان الأردن، 2021م

-4 الطائرات والطائرات بلا طيار ، طارق الراوي ،بغداد 2015م

-5 هندسة النظم الرادارية وتطبيقاتها، علي محمد طه ،دمشق 2020م

6.أنظمة الاتصال التكتيكية، أيمن عزيز حمد، دمشق 2023م

دور الإعلام الرقمي في تشكيل مفهوم الديمقراطيّة والمشاركة المجتمعيّة

ممدوح الحسن

المحتويات

المقدمة

مشكلة البحث

أهمية البحث-أهداف البحث

أسئلة البحث-مصطلحات البحث

أولاً: الإعلام الرقمي والديمقراطية

- تعريف الإعلام الرقمي وأهميته وتطوره.

- تعريف الديمقراطية وأنواعها.

- تعريف المشاركة المجتمعية وأشكالها.

ثانياً: وسائل الإعلام الرقمية والديمقراطية

- نظرة عامة على كيفية تأثير الوسائل الرقمية على مفهوم الديمقراطية

- تأثير وسائل الإعلام الرقمية على المشاركة السياسية والمشاركة المدنية

- دور وسائل الإعلام الرقمية في تعزيز الشفافية والمساءلة في العمليات الديمقراطية

ثالثاً: وسائل الإعلام الرقمية والمشاركة المجتمعية

- استكشاف كيفية تشكيل الوسائط الرقمية لمشاركة المجتمع

- أمثلة على المجتمعات المحلية على الإنترنت وأثرها على القضايا الاجتماعية

- مناقشة دور وسائل الإعلام الرقمية في تعبئة المجتمعات المحلية للعمل الاجتماعي والسياسية

الخلاصة والاستنتاجات- المصادر والمراجع

المقدمة

تشكل وسائل الإعلام الرقميّة اليوم جزءًا حيويًا من حياتنا اليوميّة، وتلعب دوراً حاسماً في تشكيل مفهوم الديمقراطية والمشاركة المجتمعية، حيث أحدثت وسائل الإعلام الرقمية ثورة في طريقة تعامل الناس مع بعضهم البعض، والمؤسسات السياسية، والقضايا العامة؛ فقد يسّرت نشر المعلومات، ووسّعت نطاق النقاش السياسي، ومكّنت الأفراد من المشاركة في العمليات الديمقراطية على نطاق أوسع، حيث تقدّم مصادر متنوعة للمعلومات وتسهم في تكوين آراء الناس وفهمهم للأحداث المحيطة بهم، بحيث تأثرت النظريات السياسية بشكل كبير جرّاء ثورة الاتصال وتطور وسائل الإعلام الرقمية، وفتحت شبكة الإنترنت أفقًا جديدًا للجماهير للمشاركة في إنتاج وتوزيع المحتوى بحرية، مما أدى إلى زيادة ديمقراطية المجتمعات.

ومع وجود مجموعة واسعة من الأدوات الرقمية تحت تصرفنا، أصبح لدى الأفراد الآن القدرة على التواصل ومشاركة الأفكار والتعبئة بطرق غير مسبوقة، وتعزيز ديمقراطية أكثر شمولاً وتشاركية.

لقد أصبحت الوسائل الرقمية مصدرًا رئيسيًا للمعلومات والتواصل بين الأفراد، مما يساهم في توسيع نطاق المشاركة الديمقراطية وتقوية الروابط الاجتماعية. في هذا المقال سنستكشف دور وسائل الإعلام الرقمية في تشكيل مفهوم الديمقراطية وزيادة مشاركة المجتمع، وسنركز على بعض الجوانب الرئيسية المتعلقة بالموضوع.

مشكلة البحث

يواجه المجتمع تحديات في تعزيز ثقافة الديمقراطية والمشاركة المجتمعية، وللإعلام الرقميّ دور هام في تحقيق ذلك، وهناك حاجة في الفترة الحالية لفهمٍ أعمق لكيفية تأثير وسائل الإعلام الرقميّة على هذين الجانبين (الديمقراطية، والمشاركة المجتمعية)، تجيب المقالة عن أهمية الإعلام الرقمي في تكوين أسس الديمقراطية والمشاركة المجتمعيّة.

أهمية البحث

تبرز أهمية البحث في فهم كيف يمكن للإعلام الرقمي تعزيز قيم الديمقراطية وتشجيع المشاركة المجتمعية، وبالتالي تقديم توصيات قائمة على الأدلة لتعزيز هذا الدور.

أهداف البحث

- دراسة تأثير وسائل الإعلام الرقمية على وعي الناس بمفهوم الديمقراطية.

- تحليل كيف يمكن أن تدعم وسائل الإعلام الرقمية المشاركة المجتمعية.

أسئلة البحث

١. كيف يؤثر الإعلام الرقمي على فهم الناس

لمفهوم الديمقراطية؟

٢. ما هو دور وسائل الإعلام الرقمية في تعزيز المشاركة المجتمعية؟

مصطلحات البحث

الإعلام الرقمي, الديمقراطية, المشاركة المجتمعية, الوعي الرقمي, التواصل الاجتماعي

أولاً / الإعلام الرقمي والديمقراطية

الإعلام هو نقل المعلومات والأخبار وتوزيعها, أمّا الإعلام الرقمي فيشير إلى استخدام الحواسيب في إنتاج وتخزين ونقل المعلومات, ويتميّز بارتباطه بشبكة الإنترنت والحواسيب والأجهزة النقالة. يدمج الإعلام الرقمي وسائل الإعلام التقليدية مع الميزات الرقمية والتفاعلية.

يشكّل الإعلام الرقمي جزءًا أساسيًا من حياة الناس حول العالم, ويستمر في التطور مع تقدم التكنولوجيا وزيادة استخدام الإنترنت, ومن مسميات الإعلام الرقمي «الإعلام التفاعلي», و»إعلام الوسائط المتعددة», و»الإعلام الشبكي الحي», و»الإعلام السيبراني», و»الإعلام الشعبي».

يشمل الإعلام الرقمي استخدام التكنولوجيا الرقمية في إنتاج ونقل وتوزيع المعلومات بشكل رقمي, بدلاً من الوسائط التقليدية مثل الورق والتلفزيون والراديو.

يتّسم الإعلام الرقمي بالتفاعلية والسرعة والوصول الواسع, مما يجعله أداة قوية لتبادل المعلومات والتواصل. يشمل الإعلام الرقمي العديد من الوسائط مثل المواقع الإلكترونية, ووسائل التواصل الاجتماعي, والبريد الإلكتروني, والتطبيقات الرقمية.

إنّ أحد أهم ميزات الإعلام الرقمي هو التفاعلية, حيث يمكن للجمهور المشاركة والمشاركة المباشرة مع المحتوى, على سبيل المثال, يمكن

"الإعلام هو نقل وتوزيع المعلومات والأخبار, أما الإعلام الرقمي فيشير إلى استخدام الحواسيب في إنتاج وتخزين ونقل المعلومات, ويتميز بارتباطه بشبكة الإنترنت والحواسيب والأجهزة النقالة. يدمج الإعلام الرقمي وسائل الإعلام التقليدية مع الميزات الرقمية والتفاعلية. يشكل الإعلام الرقمي جزءاً أساسياً من حياة الناس حول العالم, ويستمر في التطور مع تقدم التكنولوجيا وزيادة استخدام الإنترنت"

للمستخدمين التعليق على المقالات, والمشاركة في النقاشات عبر وسائل التواصل الاجتماعي, وحتى إنشاء محتوى خاص بهم.

تظهر أهمية الإعلام الرقمي في عدة جوانب:

١- قبل كل شيء, يوفر الإعلام الرقمي وسائل للتواصل الفعّال والفوري, حيث يمكن للأفراد التفاعل مع الأخبار والمعلومات بسرعة وسهولة, ويسهم ذلك في تعزيز التواصل الاجتماعي وتوسيع دائرة المعرفة.

٢- يوفر الإعلام الرقمي منصة للتنوع والتعدد في المحتوى, يمكن للمستخدمين الوصول إلى مصادر متعددة ومتنوعة من المعلومات, سواء كانت أخبارًا, أبحاثًا, محتوىً تعليمياً, أو ترفيهياً, مما يلبي اهتمامات متنوعة للأفراد.

٣- يساهم الإعلام الرقمي في تحسين مستوى

الوعي والتثقيف، حيث يمكن للأفراد الوصول إلى معلومات تثقيفية وتعليمية بسهولة.

يمكن القول: إنّ الإعلام الرقمي له دور كبير في تحسين جودة الحياة وتطوير المجتمعات, فهو يشكل وسيلة فعّالة لنقل المعرفة وتبادل الآراء، ويعكس التطور التكنولوجي السريع الذي يشهده عصرنا الحديث.

حيث للإعلام الرقمي أدوار فعّالة هي:

- نقل الأخبار بشكل أسرع وأكثر فعالية.

- توسيع مجالات الحوار والنقاش العام.

- تعزيز مشاركة المواطنين في العملية الديمقراطية.

تعريف الديمقراطية

الديمقراطية: Democracy مصطلح يوناني يتألف من "ديموس"، الذي يعني الشعب، و"كراتوس"، الذي يعني الحكم، تعبر كلمة الديمقراطية عن فكرة حكم الشعب أو الأغلبية.

تُعرّف الديمقراطية كنظام حكم يمنح السلطة العليا للشعب، سواء بشكل مباشر أو عبر انتخاب ممثلين.

تتمثل قواعد الديمقراطية في رفض ترك السلطة مركزية في فرد واحد أو مجموعة محددة، فهي مقاومة للحكم الدكتاتوري.

في عصرنا الحالي، أصبحت الديمقراطية النظام المُفضل للحكم في معظم المجتمعات، وتعبر عن حكم الشعب وتسمح للأفراد بالتعبير عن آرائهم في شؤون الحكم وتوزيع الموارد، وقد وصف الرئيس أبراهام لينكون الديمقراطية بأنها "حكم الشعب، من قبل الشعب، ومن أجل الشعب".

تتمثل قيم الديمقراطية في تأكيد قيمة الفرد وكرامته، مع تشجيع المشاركة الجماعية في إدارة الشؤون الاجتماعية.

تظهر الديمقراطية بأشكال مختلفة، سواء كانت سياسية، حيث يكون الشعب مصدر السلطة وتحفظ حقوق جميع المواطنين بحرية ومساواة، أو كإدارة ديمقراطية، حيث تعتمد على القيادة الجماعيّة والمشاركة في اتخاذ القرارات.

تاريخ تطور الديمقراطية

شهدت الديمقراطية مع مرور الزمن تطوّراً وانتشاراً أكبر، حيث كانت الحكومات الاستبدادية والأقليات هي النماذج السائدة في الحكم.

وإذا تتبعنا الديمقراطية زمنياً نجد أنه:

- في القرن الخامس قبل الميلاد، شهدت أثينا أول تطبيق رسمي للديمقراطية، وتميزت بالديمقراطية المباشرة والمشاركة المباشرة في اتخاذ القرارات.

- الديمقراطية الأثينيّة كانت تستبعد فئات معينة من المشاركة مثل النساء والعبيد.

- في إنجلترا عام ١٢١٥م، ظهرت «ماجنا كارتا» كوثيقة تحمي حقوق الشعب وتفرض المساءلة القانونية على الحاكم.

- في القرنين السابع عشر والثامن عشر، انتشرت الديمقراطية بشكل أوسع.

تطبيق الديمقراطيّة

حاليا انتشرت الديمقراطية بأشكالها المختلفة في جميع أنحاء العالم، ومع ذلك يصعُب وجود نظامين للديمقراطية متماثلين تماماً، كما يصعُب إيجاد نموذج ديمقراطيّ واحد؛ حيث ظهرت أشكال مختلفة للديمقراطية، مثل: الديمقراطية الفيدرالية، والديمقراطية الرئاسية، وتلك التي تعتمد على نسبة التّصويت، أو على تصويت الأغلبية.

أنواع الديمقراطية

١- الديمقراطية المباشرة Direct

Democracy

يكون فيها الشعب مصدر السلطة ويمارس السلطة في آن واحد، ولا وجود للحكام في الديمقراطية المباشرة، وسبق أن طبّق هذا النوع من الديمقراطية المباشرة في المدن اليونانية القديمة وبشكل خاص في أثينا، وفي بعض الكانتونات"المقاطعات " الصغيرة في سويسرا.

٢- الديمقراطية غير المباشرة

ولها تسميات أخرى "الديمقراطية النيابية او التمثيلية Parliamentary Democrocy فيها الشعب يختار من ينوب عنه لكي يمارس السلطة، فالشعب يبقى مصدراً للسلطة غير أنه لا يمارس السلطة بنفسه بل يفوض السلطة إلى حاكم يختارونه من بينهم، وهذا هو النوع الشائع في الوقت الحاضر، حيث يختار الشعب ممثلين أو نواباً لمدة معينة من السنين.

٣- الديمقراطية شبه المباشرة Semi Direct Democracy

الديمقراطية شبه المباشرة هي تلك الديمقراطية التي يباشر وفق مظاهرها الشعب سلطته بالاشتراك مع ممثليه في البرلمان من خلال احتفاظه ببعض حقوقه كحقه في اقتراح قانون أو الاعتراض عليه وحقه في إقالة النائب أو حلّ البرلمان أو عزل رئيس الدولة ، إضافة الى تأثيره على الحكام من خلال تطبيقات الاستفتاء الشعبي.

وهذا النوع من الديمقراطية يُعدّ تطويراً للنظام النيابي بما يجعل الشعب هو الذي يقيد حكامه وليس العكس، كما أنها تعد نظاماً وسطاً بين الديمقراطية المباشرة والديمقراطية غير المباشرة (النيابية).

في الديمقراطية شبه المباشرة العلاقة تبقى قائمة بين جمهور الناخبين وبين الشخص الذي انتخبوه، ويستطيع الناخبون إزالة النائب وإجراء انتخاب آخر للنيابة عنهم، وهذا النوع مطبق في

"الديمقراطية شبه المباشرة هي تلك الديمقراطية التي يباشر وفق مظاهرها الشعب سلطته بالاشتراك مع ممثليه في البرلمان من خلال احتفاظه ببعض حقوقه كحقه في اقتراح قانون أو الاعتراض عليه وحقه في إقالة النائب أو حلّ البرلمان أو عزل رئيس الدولة ، إضافة الى تأثيره على الحكام من خلال تطبيقات الاستفتاء الشعبي.وهذا النوع من الديمقراطية يُعدّ تطويراً للنظام النيابي بما يجعل الشعب هو الذي يقيد حكامه وليس العكس."

سويسرا وبعض الولايات الأميركية.

ويمكن إيجاز تلك الحقوق التي يحتفظ الشعب بها لنفسه ، ويمارس من خلالها السلطة:

- الاستفتاء الشعبي
- الاقتراح الشعبي
- الاعتراض الشعبي
- الحل الشعبي
- حق الناخبين في إقالة نائبهم
- حق عزل رئيس الجمهورية

٤- الديمقراطية الشعبية Popular Democracy

تطلق هذه التسمية على نظام الحكم في الدول الخاضعة للنفوذ الشيوعي كالنظام القائم في الاتحاد السوفيتي سابقاً، ودول المعسكر

”يقصد بالقانون في هذا المجال القواعد القانونية جميعها، أياً كان مصدرها (الدستور – القانون الذي تسنه السلطة التشريعية- اللوائح الإدارية)، سواء كانت مكتوبة أم عرفية. فالقاعدة القانونية متى وجدت، خضع لها الجميع، لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم، كبير وصغير، غني وفقير، وطني وأجنبي. كما تستوي في ذلك السلطات الثلاث، فالمجلس المنتخب لا يجوز له أن يخالف الدستور، والسلطة التنفيذية عليها أن تحترم الدستور وقوانين الدولة“

الاشتراكي السابقة. وتعد الديمقراطيات الغربية هذا النظام غير ديمقراطي لأن أساليبه لا تتفق والمقاييس الأساسية التي تقرّها الديمقراطيات. فالتعبير عن إرادة الشعب يجرى على أساس نظام معقد مفروض من داخل أعلى قيادة حزبية أو جهة حكومية واحدة بحيث تقيد حرية الاختيار لدى المواطن وحرية تأييده أو رفضه لحزب دون آخر.

٥- الديمقراطية الوسيطة Mediatory Demcracy

النظام الذي من شأن تعدد الأحزاب السياسية فيه أن يمنع المواطنين من اختيار رئيس الحكومة عن طريق الانتخابات البرلمانية. يعتمد هذا الاختيار على الاتصالات التي تتم بين كبار رجال السياسة.

مقومات النظام الديمقراطي وخصائصه

هي الأركان الأساسية التي لا يجوز من دونها الحديث عن نظام ديمقراطي في أي دولة كانت.

١- وجود دستور

تعد هذه من أهم الخصائص التي يتمتع بها النظام الديمقراطي, كون أن الدستور يضع القواعد الأساسية لنظام الحكم في الدولة, وكيفية تشكيل السلطات العامة الثلاثة التشريعية والتنفيذية والقضائية والعلاقات في ما بينها, وبصورة خاصة ما بين السلطتين التشريعية والتنفيذية, والمقومات الأساسية للمجتمع, وحقوق الأفراد وضماناتها.

وتعد القواعد التي يقررها الدستور أسمى القواعد القانونية, ولا يجوز تعديلها إلا بإجراءات مشددة غير تلك التي يتم بها تعديل القوانين العادية التي تسنها السلطة التشريعية. والأغلب أن يكون هذا الدستور مكتوباً, وفي أحيان نادرة يكون في شق كبير منه عرفياً, أي قواعد عرفية غير مكتوبة استقر العمل بها (مثل المملكة المتحدة). ويجب أن يقوم تنظيم السلطات العامة على أساس الفصل بين السلطات.

٢- سيادة القانون

ويقصد بالقانون في هذا المجال القواعد القانونية جميعها, أياً كان مصدرها (الدستور – القانون الذي تسنه السلطة التشريعية- اللوائح الإدارية), سواء كانت مكتوبة أم عرفية. فالقاعدة القانونية متى وجدت, خضع لها الجميع, لا فرق في ذلك بين حاكم ومحكوم, كبير وصغير, غني وفقير, وطني وأجنبي. كما تستوي في ذلك السلطات الثلاث, فالمجلس المنتخب لا يجوز له أن يخالف الدستور ,والسلطة التنفيذية عليها أن تحترم الدستور وقوانين الدولة.

٣- حرية التعبير وإبداء الرأي

إن حرية أي مجتمع تقاس عادة بمدى حرية صحافته ووسائل إعلامه وقدرة أفراده على التعبير عن آرائهم وأفكارهم ونشرها بحرية وبدون قيود, حيث إن من حق كل فرد في المجتمع

أن يتمتع بحرية التعبير وإبداء الرأي والحصول على المعلومة ونشر الأفكار بحرية وبدون أي قيد, كذلك حرية الاجتماعات العامة ولا يستثنى من ذلك سوى ما يمسّ المصالح العليا للبلاد على أن يكون الحَكم في ذلك هو القضاء وحده.

٤ـ حرية تكوين الأحزاب السياسية

الحزب تنظيم رسمي هدفه الظفر بالسلطة، وذلك على خلاف جماعة المصلحة وجماعة الضغط التي تستهدف التأثير في القرار السياسي من دون أن تستهدف الوصول إلى السلطة وتحمّل مسؤولية مباشرة الحكم, وعلى ذلك فإن نظام الحزب الواحد يتنافى مع الديمقراطية، وكذلك الحزب المسيطر (أي تعدد الأحزاب مع احتكار أحدها للسلطة فترة طويلة من الزمن)، والحزب القائد (أي وجود تحالف حزبي تكون القيادة فيه لحزب معين). وقد يظهر الحزب الواحد (أو الحزب المسيطر) نتيجة إجبار قانوني (بأن يذكر الدستور حزباً معيناً ويحرّم ظهور أحزاب أخرى) أو نتيجة كبح المعارضة وقمعها.

٥ـ استقلال السلطة القضائية

وذلك بعدم قابلية رجال القضاء للعزل بقرار إداري، وعدم التدخل في شؤون القضاء، وكفالة تنفيذ الأحكام القضائية النهائية وعدم حجب القضاء عن النظر في أي منازعة، لاسيما في ذلك المنازعات التي تثور بين الجهات الإدارية والمواطنين.

سمات النظام الديمقراطي

يتميز النظام الديمقراطي بالعديد من الخصائص:

١- ينتخب الشعب ممثليه عن طريق انتخابات عامة

٢- تمارس الأغلبية المنتخبة الحكم، هذه الأغلبية الصادرة عن فئات الشعب المختلفة هي جماعة سياسية بالتعريف وليست عرقية أو إثنية أو دينية.

٣- تصان حقوق المعارضة عبر مؤسسات وقوانين.

٤- تصان الحريات العامة للمجتمع، منها حرية التعبير وحرية العقيدة وحرية الاجتماع وحرية الصحافة.

٥- وجود دولة القانون التي تحترم وتضمن حقوق المواطنين والمساواة بينهم.

٦- الحدّ من اعتباطية سلطة الحاكم عن طريق مؤسسات ورقابة دائمة وآليات للدفاع عن المواطنين.

٧- ضمان عدم الجمع بين السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية، وترسيخ مبدأ التكامل الوظيفي بينها وتمييز المسؤوليات وتوزيعها باستقلالية تامة.

٨- ترسيخ مبدأ الدستورية، أي أن السلطات تستمد مشروعيتها من مرجعية قانونية عليا والمواطنون يحترمون الدستور ويرجعون إلى القضاء لحل الخلافات.

ثانياً : وسائل الإعلام الرقمية والعمليات الديمقراطية

أحد المجالات التي أحدثت فيها الوسائط الرقمية تأثيرًا كبيرًا هو مجال الانتخابات والحملات السياسية، توفر المنصات الرقمية للسياسيين أداة قوية للوصول إلى الناخبين والتعامل معهم على نطاق واسع، كما اتسع استخدام المنصات الإلكترونية لمشاركة المواطنين ومشاركتهم، مما سمح للأفراد بالمساهمة في العملية السياسية من خلال الالتماسات عبر الإنترنت وقاعات البلديات الافتراضية والمنصات التفاعلية التي تتيح التفاعل المباشر مع المسؤولين المنتخبين، علاوة على ذلك، تلعب الوسائل الرقمية دورًا في زيادة إقبال الناخبين والوعي السياسي من خلال توفير معلومات يسهل الوصول إليها عن المرشحين والقضايا وتسجيل الناخبين.

"أحد المجالات التي أحدثت فيها الوسائط الرقمية تأثيرا كبيرا هو مجال الانتخابات والحملات السياسية، توفر المنصات الرقمية للسياسيين أداة قوية للوصول إلى الناخبين والتعامل معهم على نطاق واسع، كما اتسع استخدام المنصات الإلكترونية لمشاركة المواطنين ومشاركتهم، مما سمح للأفراد بالمساهمة في العملية السياسية من خلال الالتماسات عبر الإنترنت وقاعات البلديات الافتراضية والمنصات التفاعلية التي تتيح التفاعل المباشر مع المسؤولين المنتخبين، علاوة على ذلك"

يمكن تلخيص تأثير وسائل الإعلام الرقمية في تطوير نظريات الديمقراطية، كما يلي:

١- نقل المعلومات والشفافية:

- توفير معلومات وأخبار بشكل فوري وعالمي يعزز الشفافية ويتيح للمواطنين فهم القضايا واتخاذ قرارات مستنيرة.

٢- توسيع مفهوم المشاركة:

- إمكانية مشاركة الأفراد في إنتاج المحتوى والتعبير عن آرائهم تعزز فهمًا أعمق لآراء الجماهير وتعزز دور المشاركة في الحياة السياسية.

٣. المجتمع الافتراضي كمجتمع حقيقي:

- يسمح الفضاء الافتراضي للمواطنين بتبادل الخبرات والآراء ومناقشة القضايا بحرية، مما يقوي العلاقات ويعزز التفاعل الاجتماعي.

٤. تأثير الحكومات والسلطات:

- يقلل التحكم الحكومي في عمليات الإنتاج الإعلامي وتوزيع المعلومات، مما يزيد من حرية التعبير ويقلل من الرقابة السلطوية.

٥. تحول المشاركة إلى قوة سياسية:

- يمكن للإنترنت أن يكون مجالًا للتظاهر والاحتجاج الرقمي، مما يعزز دور المشاركة في تغيير الحكومات واتخاذ القرارات.

٦. تأثير ثورات الربيع العربي:

- أظهرت ثورات الربيع العربي كيف يمكن لوسائل الإعلام الرقمية أن تكون أداة للتغيير الاجتماعي والسياسي.

٧. قوة المجتمع وديمقراطيته:

- تعتمد قوة المجتمع ودرجة ديمقراطيته على مشاركة المواطنين في المجال العام الافتراضي والواقعي.

القرن الحالي، يُتوقع أن يستمر تأثير وسائل الإعلام الرقمية في تحول الديمقراطية، وصنع القرار وتشكيل المجتمع.

تطوير الوسائل الرقمية والديمقراطية

لفهم دور الوسائط الرقمية في تشكيل الديمقراطية ومشاركة المجتمع، من الضروري النظر في تطورها التاريخي, فعلى مرّ السنين أصبحت الوسائل الرقمية والديمقراطية متشابكة بشكل متزايد مع التطورات في التكنولوجيا التي تعطي فرصًا أكبر لمشاركة المواطنين. فمنصات التواصل الاجتماعي لعبت دورًا حيويًا في تعزيز مشاركة المجتمع من خلال تزويد الأفراد بمنصة للتعبير عن آرائهم وحشد الدعم لقضايا مختلفة. بالإضافة إلى ذلك، أثرت الوسائط الرقمية بشكل كبير على الخطاب السياسي، حيث سهّلت تكوين الرأي العام وحدّت هياكل السلطة التقليدية.

الإعلام الرقمي عامة له تأثير عميق على مفهوم الديمقراطية، مثل القدرة على نشر المعلومات بسرعة وعلى نطاق واسع من خلال المنصات الرقمية, وبالتالي تغيير طريقة تعامل الناس مع العمليات السياسية.

يمكن للمواطنين الآن المشاركة بنشاط في الشؤون السياسية والمدنية من خلال التعبير عن آرائهم، والمشاركة في النشاط عبر الإنترنت، ومحاسبة المسؤولين المنتخبين. تعزز الشفافية وإمكانية الوصول التي توفرها الوسائل الرقمية العمليات الديمقراطية من خلال تعزيز مجال عام أكثر شمولاً واستنارة.

وإذا حاولنا أن نحدد تأثير الديمقراطية على الإعلام الرقميّ فسنجد الكثير من الإيجابيات التي من الممكن دراستها بعمق، نكتفي في هذا المقام بسردها دون الخوض في تفاصيلها، وهي:

١. تطوير مجال إعلامي جديد:

- ثورة الاتصال أدت إلى تشكيل مجال إعلامي جديد يعتمد على تفاعل المواطنين في إنتاج وتوزيع المحتوى الإعلامي.

٢. قوة الدولة تتألق بمشاركة المواطنين:

- قدرة الدولة ومكانتها في العالم ترتبط بقدرة مواطنيها على المشاركة الفعّالة في مجال الإعلام والاتصال.

٣. تعزيز القدرات الإعلامية للمواطنين:

- الدولة يمكن أن تعزز قدرات مواطنيها عبر تأهيلهم للتفاعل في بيئة اتصالية جديدة، وتشجيعهم على إنتاج وتوزيع المحتوى بحرية.

٤. تحول الصحافة والإعلام التقليدي:

- يتطلب تطوير مفهوم الصحافة العامة إمكانيات مشاركة الجمهور وتحفيز المواطنين على مناقشة القضايا العامة.

٥. دمقرطة وسائل الإعلام:

- وسائل الإعلام التقليدية يجب أن تتبنى مفهومًا ديمقراطيًا أكبر، وتشجيع المشاركة الجماهيرية في إنتاج وتوزيع المحتوى.

٦. تحديث وظائف التلفزيون:

- المستقبل للقنوات التلفزيونية يتطلب فتح المجال للمشاركة الجماهيرية في إنتاج المحتوى، مما يسهم في تحقيق التوازن في التغطية الإعلامية.

٧. تفعيل الدور الإعلامي للمواطنين:

- المواطنون يمكن أن يصبحوا مصادر تقديم معلومات جديدة ورواية مختلفة، مما يعزز التنوع في المحتوى الإعلامي.

٨. تغيير دور الصحفيين:

- الصحفيون يجب أن يطوروا علاقاتهم بالمجتمع ويشجعوا المواطنين على التفاعل والمشاركة في مناقشة القضايا العامة.

٩. تفعيل القدرات الإعلامية والتعليمية والثقافية:

- الدول يجب أن تستثمر في تأهيل مواطنيها لتعزيز قدراتهم في مجالات الإعلام والاتصال والتعليم والثقافة.

١٠. تحول المجتمع الإعلامي:

- ثورة الاتصال فرضت تحوّلًا على وسائل الإعلام، مما يتطلب إعادة تعريف الصحافة وتطوير وظائفها لتحقيق التوازن والديمقراطية.

هذه النقاط تعكس أهمية التفاعل بين المواطنين ووسائل الإعلام في بناء مجتمع يعتمد على الشفافية والديمقراطية.

المشاركة الفعالة والديمقراطية الرقمية:

تعتبر وسائل الإعلام الرقمية مفتاحًا مهمًا في تحقيق المشاركة الفعالة والديمقراطية, فمن خلال استخدام الوسائل المتعددة مثل الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، يمكن للأفراد أن يشاركوا أفكارهم وآراءهم بسهولة وبشكل فوري. يمكن للمواطنين تبادل الأفكار والمعلومات والتعبير عن وجهات نظرهم من خلال التعليقات والمشاركات عبر الإنترنت، مما يمكنهم من المساهمة في صنع القرار وتشكيل السياسة العامة

.تحقيق التواصل الاجتماعي وتعزيز الروابط الاجتماعية:

تعتبر وسائل الإعلام الرقمية أداة قوية لتعزيز التواصل الاجتماعي وتقوية الروابط بين الأفراد في المجتمع, فمن خلال منصات التواصل الاجتماعي، يمكن للأفراد التفاعل مع بعضهم البعض وتكوين شبكات اجتماعية قوية. يمكن للناس الاتصال بأشخاص آخرين ذوي اهتمامات مشتركة وتبادل الخبرات والمعرفة. يمكن للمجتمعات الرقمية أن تشكل منصة للنقاشات الهادفة وتعزيز الوعي بالقضايا الاجتماعية والسياسية.

توفير المعلومات والوعي السياسي:

تعد وسائل الإعلام الرقمية مصدرًا مهمًا للمعلومات والوعي السياسي, فمن خلال الأخبار المتاحة عبر الإنترنت والمواقع الإخبارية ومنصات التواصل الاجتماعي، يمكن للأفراد الحصول على معلومات موثوقة ومتنوعة حول القضايا السياسية المختلفة. يمكن للأفراد متابعة آخر التطورات السياسية والمشاركة في مناقشات عامة حول هذه القضايا. توفير المعلومات السياسية للناس يعزز الوعي السياسي ويتيح لهم التفكير بشكل أكثر نقداً وتحليلاً.

المشاركة المجتمعية:

المشاركة المجتمعية تعتبر ركيزة أساسية في تحقيق الأهداف التنموية للمجتمعات، حيث يُقاس نجاح الخطط التنموية بمدى إشراك المجتمع المحلي في اتخاذ القرارات.

يعتبر فشل الخطط التنموية في تحقيق أهدافها نتيجة لعدم مشاركة أفراد المجتمع في وضع الخطط والبرامج، مما يؤدي إلى عدم تلبية تلك المشاريع لاحتياجاتهم وأولوياتهم.

فالمشاركة المجتمعية في التنمية عملية تشارك فيها جماهير الناس أو ممثلوهم في وضع الأهداف العامة للدولة والمجتمع، والمشاركة أيضًا في انطلاق التنمية من القاعدة باتجاه رأس الهرم، حيث يشارك الأفراد في تحديد وتنفيذ الخطط التنموية وتقييمها، فهي وسيلة لتحقيق التوازن والتفاعل المتبادل بين جميع أطراف المجتمع.

ورغم الفوائد الكثيرة للمشاركة، إلا أنه يجب تجنب سوء استخدامها في المجتمعات غير المتجانسة، وضمان تعاطي خطط التنمية مع الأولويات القومية والاختلافات الإقليمية والمحلية.

في سياق المشاركة المجتمعية في التخطيط، يجب أن يشترك أفراد المجتمع بكل شرائحهم في مختلف مراحل دورة المشروع، بدءًا من التشخيص وتحديد المشكلات وصولًا إلى إعداد مخطط يعكس احتياجات المجتمع ويكون قابلًا للتنفيذ. هذا يشمل المشاركة في تحديد الأولويات وترتيب الاحتياجات التنموية.

بشكل عام، يجب أن تتيح المشاركة المجتمعية للأفراد فرصة المساهمة في اتخاذ القرارات وتنفيذ البرامج والاستفادة من الخدمات التي تقدمها منظمات التنمية. تعدّ المشاركة في التنمية جزءًا أساسيًا من الجهود الرامية لتحسين مستويات معيشة السكان وتعزيز وحدة المجتمع والوعي بالقيم التي تسعى المجتمعات إلى تحقيقها.

أساليب المشاركة المجتمعية تتنوع بحسب أشكال المساهمة التي يقوم بها الأفراد، وتحدد الأعمال التي يشاركون فيها. يمكن تقسيم

المشاركة إلى مشاركة مباشرة وغير مباشرة.

المشاركة المباشرة:

تشمل عدة أساليب، منها:

١. استشارة الأهالي والمجموعات المستهدفة: من خلال اجتماعات، مقابلات، ومؤتمرات عامة لجمع آرائهم.

٢. اللامركزية الإدارية: إنشاء هيئات تخطيط على المستوى المحلي لتمكين المشاركة المجتمعية.

٣. برامج تنمية المجتمع المحلي: تشجيع برامج تعتمد على النفس، ودعم الهيئات التطوعية وموظفي الإرشاد.

٤. وسائل الإعلام: استخدام وسائل الإعلام المختلفة لتوعية وتفاعل المجتمع.

٥. الاستبيانات والدراسات: إجراء استبيانات واستفتاءات للحصول على آراء الجماهير حول قضايا معينة.

المشاركة غير المباشرة:

تتم عبر أفراد معينين بتكليف من جهات معينة، مثل لجان الأحياء في البلدية أو المجالس البلدية.

المشاركة المجتمعية تعتمد على الفعاليات المجتمعية والجمعيات الأهلية المعروفة بوسطاء التغيير. هؤلاء يُعتبرون ممثلين للمجتمع ويسهمون في إحداث التغيير. التخطيط بالمشاركة يشدد على ضرورة أن تكون عملية التغيير ذاتية، ودور فريق التخطيط يُنظر إليه كمساعد.

أنواع المشاركة المجتمعية:

تتنوع المشاركة في مستوياتها وأشكالها:

١. **المشاركة الشكلية:** عدم مشاركة الأفراد في اتخاذ القرارات، ممثلة في اجتماعات الحي لعرض تخطيط المنطقة أو مشاريع محددة.

> **يجب أن تتيح المشاركة المجتمعية للأفراد فرصة المساهمة في اتخاذ القرارات وتنفيذ البرامج والاستفادة من الخدمات التي تقدمها منظمات التنمية. تعدِ المشاركة في التنمية جزءًا أساسيًا من الجهود الرامية لتحسين مستويات معيشة السكان وتعزيز وحدة المجتمع والوعي بالقيم التي تسعى المجتمعات إلى تحقيقها. أساليب المشاركة المجتمعية تتنوع بحسب أشكال المساهمة التي يقوم بها الأفراد، وتحدد الأعمال التي يشاركون فيها. يمكن تقسيم المشاركة إلى مشاركة مباشرة وغير مباشرة.**

٢. **المشاركة في جمع المعلومات:** تقديم المعلومات من خلال الإجابة على استبيانات للحصول على آراء الناس.

٣. **المشاركة بالتشاور:** استشارة الجماهير حول القضايا المهمة والاستماع إلى اقتراحاتهم.

٤. **المشاركة بالموارد المحلية:** تقديم موارد مادية كالإسمنت أو اليد العاملة لمشاريع معينة.

إذاً: المشاركة المجتمعية هي جزء أساسي من التنمية المستدامة، ويجب أن تعتمد على تعزيز التفاعل الفعّال والشمولية لضمان تحقيق الأهداف المرجوّة منها.

المشاركة ببعض الموارد المحلية تتم عندما يشارك الأفراد من خلال توفير مواد مثل الإسمنت، أو اليد العاملة، أو المال. وفي هذه الحالة، تنتهي المشاركة بانقضاء الحوافز. المشاركة الوظيفية تتم عندما يشارك السكان من خلال تشكيل مجموعات لدعم مشروع ما، ولكنهم لا يشملون في مراحل

التخطيط وإدارة المشروع. كما حدث في حملات تنظيف الشوارع في المدن عامة التي تدعو إليها جمعيات ومنظمات. فيساهم الناس في تنظيف المدن بدون مشاركتهم في التخطيط.

المشاركة التفاعلية تتم عندما يشارك الناس في التشخيص والتحليل، مما يؤدي إلى تخطيط العمل، وبالتالي يحصلون على نصيب كبير في توجيه الاستثمارات والحفاظ على الهياكل والممارسات. على سبيل المثال، المشاركة في وضع الخطة الاستراتيجية التنموية للبلديات.

فيما يتعلق بمستويات المشاركة المجتمعية، يمكن تمثيلها بتقسيم العمل بطريقة محددة سلفًا من قبل الآخرين، وفي المستوى الثاني يتم استشارة المستفيدين في تحديد أولوياتهم، وفي المستوى الثالث يصبح السكان هم أصحاب القرار في التخطيط والتنفيذ والمتابعة والمسؤولية.

أما بالنسبة لمعوقات المشاركة المجتمعية، فتتضمن عدم إيمان السلطات المسؤولة بأهمية المشاركة وقلة حرية التعبير وعدم إتاحة الفرصة للمساهمة بسبب محدودية الدخل. كما تظهر الفجوة بين أصحاب القرار والمجتمع غياب سياسات التحفيز والتشجيع من الدولة.

تعتبر المشاركة المجتمعية جزءًا أساسيًا من التنمية المستدامة، حيث يجب تحفيز وتمكين الأفراد للمشاركة بفعالية في عمليات التخطيط وتنفيذ البرامج التنموية، مع التغلب على المعوقات لضمان تحقيق الأهداف المنشودة.

ثالثاً: الوسائل الرقمية والمشاركة المجتمعية

أحدثت الوسائط الرقمية ثورة في مشاركة المجتمع من خلال إنشاء مساحات للمجتمعات عبر الإنترنت للتشكيل والتعبئة حول أسباب محددة أو قضايا اجتماعية. تضخم هذه المجتمعات عبر الإنترنت الأصوات التي تم تهميشها سابقًا وتوفر منصات للعمل الجماعي، وهي بمثابة ساحات مدينة افتراضية حيث يمكن للأفراد الاتصال وتبادل المعلومات وتنظيم حملات للتغيير الاجتماعي والسياسي. من خلال الوسائط الرقمية، يمكن للمجتمعات تجاوز الحدود الجغرافية وبناء التضامن حول الأهداف والقيم المشتركة.

تأثير الإنترنت على المجتمعات المحلية وعلى القضايا الاجتماعية

تشكل المجتمعات المحلية على الإنترنت مظهرًا متنوعًا وديناميكيًا للتواصل الاجتماعي في العصر الرقمي. إن هذه المجتمعات تمثل فضاءً إلكترونيًا يتيح للأفراد التواصل والتبادل حول قضاياهم واهتماماتهم المشتركة، وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات تمتد عبر الحدود الجغرافية، فإنها تؤثر بشكل كبير على القضايا الاجتماعية في المستوى المحلي.

تعزز هذه المجتمعات التواصل وتقوية الروابط الاجتماعية بين الأفراد الذين يشتركون فيها. يمكن للناس الذين يعيشون في نفس المنطقة الجغرافية أو يشاركون في نفس الهوايات أو الاهتمامات أن يتبادلوا الأفكار والخبرات عبر الإنترنت، مما يعزز الاندماج الاجتماعي ويقلل من العزلة الاجتماعية.

من خلال هذه المجتمعات، يمكن للأفراد الانخراط في مناقشات حية حول القضايا المحلية والاجتماعية، على سبيل المثال، يمكن لمنتديات الحي المحلية على الإنترنت أن تكون وسيلة للمشاركة في الحوارات حول قضايا مثل تحسين البنية التحتية المحلية، أو مكافحة الجريمة، أو دعم المبادرات الاجتماعية. يمكن أن يسهم هذا التفاعل الإلكتروني في تشكيل وجهات نظر جماعية حول مسائل هامة، وقد يتسبب في تحفيز الفعاليات المجتمعية المحلية.

ومع ذلك، يجب أن يكون لدينا توعية بأن هذه المجتمعات لا تخلو من التحديات، بما في ذلك انعزالية الإنترنت وتفاوت الوصول إلى التكنولوجيا. يجب أن يكون هناك جهد لتوسيع الوصول إلى المجتمعات الرقمية لضمان شمولية أوسع وتمكين أكبر عدد ممكن من الأفراد.

بشكل عام، تلعب المجتمعات المحلية على الإنترنت دورًا هامًا في تشكيل الوعي الاجتماعي والمشاركة المجتمعية, وتساهم في توحيد الأفراد وتعزيز التفاعل والتواصل حول القضايا الاجتماعية المحلية. يجب أن نستفيد من هذا الفضاء الرقمي لتعزيز التعاون والتضامن المجتمعي، وبالتالي تعزيز التنمية وتحسين الحياة الاجتماعية في مجتمعاتنا.

الخلاصة والاستنتاجات

- التشديد على استمرار أهمية وسائل الإعلام الرقمية في تشكيل الديمقراطية والمشاركة المجتمعية.

- تشجيع القراء على الانخراط بنشاط في وسائل الإعلام الرقمية والمشاركة في تشكيل مجتمعاتهم المحلية.

خاتمة

نجد من خلال البحث أن الوسائل الرقمية أحدثت ثورة في طريقة نشر المعلومات واستهلاكها، مما يوفر منصة لسماع أصوات وآراء متنوعة, علاوة على ذلك، أعاد إمكانية الوصول إلى الوسائط الرقمية وفورّتها تعريف ديناميكيات المشاركة السياسية، مما سمح للأفراد بالمشاركة بنشاط في المناقشات والحركات التي تشكل المشهد الديمقراطي.

لا يمكن إنكار تأثير الوسائل الرقمية على مفهوم الديمقراطية ومشاركة المجتمع. لا يمكن المبالغة في القوة التحويلية للمنصات الرقمية في تشكيل الخطاب السياسي، وتعزيز المشاركة المدنية، وتعبئة المجتمعات للعمل. بينما نتنقل في العصر الرقمي، فمن الضروري الاعتراف بالدور الذي تلعبه الوسائط الرقمية في تعزيز الشفافية والمساءلة والشمولية في العمليات الديمقراطية, ومن خلال تسخير إمكانات الوسائط الرقمية، يمكننا إنشاء ديمقراطية أكثر مشاركة وحيوية تمكن الأفراد من خلال منصات الوسائل الرقمية، فيتم تسهيل الحوار المفتوح والمشاركة المدنية والتعاون، مما يسمح للأفراد والمجتمعات بالمساهمة بنشاط في عملية صنع القرار الديمقراطي، وبالتالي ضمان الشمولية والمحاسبة لمجموعة متنوعة من الأصوات.

من خلال القيام بذلك، يمكننا تمكين الأفراد والمجتمعات من المشاركة في الخطاب السياسي على نطاق لم يكن ممكنًا من قبل، مما يؤدي إلى خلق مواطنين أكثر استنارة وانخراطًا.

من خلال تمكين الأفراد والمجتمعات من المشاركة في الخطاب السياسي على نطاق وسرعة غير مسبوقين، يمكن لمنصات الوسائط الرقمية تعزيز مواطنين أكثر استنارة وانخراطًا، وبالتالي دفع المثل العليا للديمقراطية الشاملة والتشاركية إلى الأمام.

إنّ قدرة الأفراد والمجتمعات على الانخراط في الخطاب السياسي على نطاق واسع وبوتيرة سريعة بتيسير من منصات الوسائط الرقمية، يمكن أن تزيد من تبادل المعارف والوعي، مما يمكّن المواطنين الأكثر استنارة وانخراطًا في السعي إلى ديمقراطية شاملة وتشاركية.

المصادر والمراجع:

- الإعلام الرقميّ، مفهومه، وسائله، نظرياته، مجلة بحوث ودراسات في الميديا الجديدة، عدد02، ص:104-87، ط.د منصور حسام، 2022

- الاعلام ودمقرطة الأنظمة: دور الإعلام التلفزيوني في دعم التحوّل الديمقراطي، الدكتور عماد بن الصادق مرزوقي، مركز الخليج العربي للدراسات والأبحاث

- دور تكنولوجيات الاتصال الحديثة في تفعيل الديمقراطية التشاركية : حالة الجزائر، عبد الحميد رمضان، المجلة الجزائرية لبحوث الإعلام والرأي العام، المجلد الثالث

- الإعلام الرقمي وتعزيز التنمية المحلية والمشاركة المجتمعية، المركز الديمقراطي العربي، حميد بيواراين، https://democraticac.de/?p=91961

التَّبعِيَّة الثَّقافيَّة.. مظاهِرُها، حواضِنُها وسُبُلُ التَحرُّر منها

جميل رشيد

تمهيد:

تُعتَبر التَّبعيَّة الثَّقافيّة مرضاً مُزمناً تُصاب به الأمم والشُّعوب، وهي أخطر أنواع التَّبعيَّة على الإطلاق، فهي لا تشبه في أبعادها وتأثيراتها التَّبعيَّة الاقتصاديّة ولا السِّياسيّة ولا حتّى الاجتماعيّة. فهي لا تنبع من الدّاخل وتتعلّق بالمنظومة الفكريَّة والأنساق الثَّقافيّة الأخرى، مثل الفنّ والأدب والموسيقى، وارتباطها بمنظومات ثقافيّة خارجيَّة بالدَّرجة الأولى، أو تُعَدُّ نسخاً أو نقلاً لها، بما يلغي الثَّقافة الوطنيّة أو يجعلها في المرتبة الثّانية.

إنَّ قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة تعتبر قضيَّة شائكة ومعقَّدة لأبعد الحدود، ولا يمكن فصل خيوطها المتشابكة بسهولة، وتخضع لمنظومات الحُرّيّة والإبداع، والتحرُّر من مخلَّفات الدّين والقوميّة والحالة الشَّعبويَّة السّائدة في معظم دول الشَّرق الأوسط، وتبدو في أحيان كثيرة قضيَّة لا إراديَّة، وتخرج من نطاق التَّأثير الفرديّ والرَّغبويَّة، لترتبط بحالة مؤسَّساتية تفرض نفسها عبر أدوات السُّلطة والحكم، وتتغلغل في مسامات المجتمعات، لتغدو مع مرور الأيّام واقعاً مألوفاً ومفضَّلاً لدى الغالبيّة، حتّى يُقاس المستوى الحضاريّ لدى الشَّخص بمدى حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة والتقليد الأعمى للأنساق الثَّقافيّة المتعارضة مع الثَّقافة الوطنيّة.

لا شَكَّ أنَّ أسباب انتشار حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة في بلداننا متعدِّدة، منها ما هي خارجيَّة، ترتبط بشكل وثيق بالاستعمار وفرضه منظومته الثَّقافيّة على المجتمعات والشُّعوب المستعمَرة بأساليب وطرق كثيرة، منها بالقوَّة، مثلما ما فعلت فرنسا في الجزائر عندما اعتمدت سياسة الفرنسة وفرضت فيها اللُّغة الفرنسيَّة على الشَّعب الجزائريّ، وبالتّالي فرضت معها قيمها الثَّقافيّة من خلال اللُّغة، وهذا المثال يسري على الجمهوريَّة التُّركيّة أيضاً، عندما فرضت بقوة السِّلاح سياسة التتريك على الشَّعب الكُرديّ بعد قمعها لسلسلة الانتفاضات والثَّورات الكُرديّة حتّى ما قبل بداية الحرب العالميّة الثّانية، وربطت المجتمع الكُرديّ بالتُّركيّ عبر فرض القيم التُّركيّة عليه، ومحاولة صهر القيم الثَّقافيّة الكُرديّة في بوتقة الثَّقافة التُّركيّة، التي هي في الأصل حالة هجينة تكوَّنت في زمن الاحتلال العثمانيّ، من خلال دمج قيم ثقافيّة للشّعوب الواقعة تحت احتلالها، ولهذا تتكرَّر المفردات الكُرديَّة العربيَّة واليونانيَّة واللاتينيّة والإيرانيّة... في اللُّغة والأدب والفنّ التُّركيّ، رغم محاولة مؤسَّس الجمهوريَّة التُّركيّة كمال أتاتورك تنقية المجتمع التُّركيّ من تأثيرات القيم الثَّقافيّة الشَّرقيَّة، إلا أنَّه لم يفلح فيها، بل برع في نقل القيم الثَّقافيّة الغربيّة إلى الشَّعب التُّركيّ، بل اعتبرها مقياساً لتقدُّم وحضارة الأمَّة التُّركيّة، لتغدو مع مرور الزَّمن أمَّةً مغترَبة عن جذورها الثَّقافيّة.

كما أنَّ هناك أسباب داخليَّة تُشجّع على التَّبعيَّة الثَّقافيّة، ظنّاً منها أن نقل الموروث الثَّقافيّ للآخر المختلف عنها، يساهم في تقدُّم شعوبها ونهضتها، إضافة إلى أنَّ نخباً سياسيّة ترى في التَّبعيَّة الثَّقافيّة طريقاً للوصول إلى السُّلطة وحماية مصالحها، وهو ما يتجسَّد من خلال العديد من الأنظمة السِّياسيّة الحاكمة في الشَّرق الأوسط، وتعتبر مفتاح التَّبعيَّة الثَّقافيّة والتي اُتبِعت بالتَّبعيَّة السِّياسيّة والاقتصاديّة.

إنَّ دراسة حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة التُّركيّة للغرب منذ بدايات القرن الماضي، جديرة بأن نتَّخذها مثالاً فاقعاً على دور النُّخب السِّياسيّة في تكريس التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وربط مجتمعاتها بالثَّقافات الأخرى، والتي أقلُّ ما يمكن القول عنها إنَّها لا تتواءم مع ثقافاتها الوطنيّة، وبالتّالي تُمهِّدُ للتبعيَّة السِّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في أفضل الأحوال.

فإن كان نقيض التَّبعيَّة الثَّقافيّة هو التمسُّك بالثَّقافة الوطنيّة، من حيث أنَّها الوعاء والذّاكرة التّاريخيّة للشّعوب والأمم؛ فإنَّها في الوقت ذاته شرَّعت الأبواب أمام ولادة تيّارات ثقافيّة وسياسيّة مهَّدت للسَّلفيَّة، التي أدَّت إلى التطرّف ورفض الآخر وكُلِّ ما توصَّلت إليه البشريَّة من علوم وفلسفات وأدب وثقافة تحت مُسمّى «الحفاظ على الموروث الثَّقافيّ والدّينيّ»، واعتبرت أنَّ المدخل للمشروع الوطنيّ هو بناء الدّولة الدّينيّة والعودة إلى أيّام «السَّلف الصالح». وهي تُعَدُّ حركة رجعيَّة تَقطع كُلَّ أواصر التَّواصل مع الثَّقافات الأخرى والاستفادة منها.

كما أنَّ دُعاةَ الانفتاح على الثَّقافات الأخرى، ونقلِ كُلّ القيم الثَّقافيّة الغريبة عن مجتمعاتها وشعوبها، بزعم التطوّر الحضاريّ وتبادل العلوم والفنون والآداب مع الغير، هي أيضاً تعيش حالة اغتراب، وتسعى لنقل وإسقاط تجارب وقيم الغير بشكل ميكانيكيّ في بلدانها وربطها ثقافيّاً مع

الآخر، دون الأخذ بعين الاعتبار مميّزات وخصائص مجتمعاتها.

سنحاول في بحثنا هذا سبر أغوار هذه القضيَّة التي تؤرّق العديد من الباحثين في الحقول الاجتماعيّة والثَّقافيّة والسِّياسيّة، وتبيان مواطن الضَعف في مجتمعاتنا والتي يتسلَّل منها الغير ليفرض قيمه الثَّقافيّة على مجتمعاتنا، وتفتح الطريق أمام حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة. كما سنطرح العديد من الأسئلة التي ستُسهّل علينا عمليّة البحث، إضافة إلى الإجابة عليها بشكل منهجيّ على ضوء التسلسل التّاريخيّ لظاهرة التَّبعيَّة الثَّقافيّة وربطها بالزَّمان والمكان. ثُمَّ نخلص إلى استنتاجات هامَّة، قد تساعد في تبيان الغرض من الدِّراسة.

أسئلة البحث:

تكثر التساؤلات حول قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافية وأبعادها الاجتماعية والسِّياسية والاقتصادية والنَّفسيَّة، ولعلَّ أهمُّها:

١ – ما هي التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وما هي أهمّ تمظهراتها في المجتمعات؟

٢ – ما هي الحوامل الموضوعيَّة التي تُمهّد لعمليّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة؟

٣ – ما دور القوى الاستعماريَّة في تكريس واقع التَّبعيَّة الثَّقافيّة في الشَّرق الأوسط؟

٤ – ما هي أسباب تفشّي ظاهرة التَّبعيَّة الثَّقافيّة في بلادنا؟

٥ – ما هي الأسباب التي حدت لأن تكون بلادنا وشعوبنا تابعة ثقافيّة للغير، أي أن تكون في الأطراف وليس في مركز الإشعاع الفكريّ والحضاريّ في عصرنا الحالي؟

٦ – ما علاقة الدّين بتشكيل الحاضنة للقبول بالتَّبعيَّة الثَّقافيّة؟

٧ – كيف أثَّرَ نقل الأفكار القوميّة من الغرب في التَّسويق للتبعيَّة الثَّقافيّة تحت مزاعم متعدِّدة، وبأنَّها ضرورة حتمية؟

> **قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافيَّة تعتبر قضيَّة شائكة ومعقَّدة لأبعد الحدود، ولا يمكن فصل خيوطها المتشابكة بسهولة، وتخضع لمنظومات الحريَّة والإبداع، والتحرُّر من مخلَّفات الدِّين والقوميَّة والحالة الشَّعبويَّة السَّائدة في معظم دول الشَّرق الأوسط، وتبدو في أحيان كثيرة قضيَّة لا إراديَّة، وتخرج من نطاق التَّأثير الفرديّ والرغبويَّة، لترتبط بحالة مؤسَّساتيَّة تفرض نفسها عبر أدوات السُّلطة والحكم**

٨ – كيف يساهم الاغتراب في تكريس التَّبعيَّة الثَّقافيّة، عبر استخدام أدوات ومصطلحات ثقافيّة لا تتلاءم مع ثقافتنا، تحت شعار التَّحديث والتَّواصل الحضاريّ والثَّقافيّ بين الشُّعوب؟

٩ – كيف تساهم التيّارات الدّينيّة، على مختلف أسمائها، في حالة الانغلاق على الذّات، بذريعة عدم الانقياد نحو التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وما هي ارتداداتها على المجتمع؟

١٠ – دُعاة الانفتاح على الثَّقافات الأخرى، ما هي مبرّراتهم، وهل تتوافق مع جذورنا الثَّقافيّة والحضاريّة؟

١١ – هل هناك غزو ثقافيّ لبلداننا، أم أنَّنا نخلق الوهم لأنفسنا، وما هي أدواتنا لمواجهته إن كان ذاك صحيحاً؟

١٢ – كيف تساهم بعض النُّخب السِّياسيّة في تطويع الثَّقافة لتخدم فكرها وإيديولوجيتها، وبالتّالي تساهم في فرض عمليّة التَّطبيع والتَّبعيَّة الثَّقافيّة، لتشكّل أرضيَّة للوصول إلى السُّلطة؟

إنَّ هذه بعض الأسئلة التي يمكن طرحها بخصوص التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وهناك غيرها الكثير، وسنحاول الإجابة عليها في سياق بحثنا.

مصطلح ظاهرة التَّبعيَّة الثَّقافيّة تاريخيّاً:

إنَّ قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة موضوع معقَّد ولها أبعاد كثيرة، تتعدَّد أشكاله وتتباين من بلد إلى آخر، ولا يمكن فصل خيوطها المتشابكة بتلك السهولة، نظراً لأنَّها تتعلَّق بالفكر والثَّقافة والفنّ والموسيقا والخطاب وطريقة التَّفكير والعيش، وهي أمور ماديَّة ولا ماديَّة من الصعوبة بمكان إجراء فصل ميكانيكيّ بينها وبين الثَّقافيّة الوطنيّة أو المحلّيَّة وفق الرَّغبات والتصوّرات المُسبَقة، كما أنَّها في أحد أبعادها تتعلَّق بالفرد دون المجتمع، فيبدو شاذّاً، وهذا الفرد يغدو في أغلب الأحيان كناقل للفيروس، تنتشر عدواه بين سائر أفراد المجتمع.

لم يظهر مصطلح التَّبعيَّة الثَّقافيّة إلا في العصور الحديثة، وخاصَّةً بعد عصر النَّهضة والتَّنوير في أوروبا، وانفصال الكنيسة عن الدّولة وظهور مبدأ علمانيَّة الدّولة. فبدأت البعثات التَّبشيريّة تنتشر في كُلّ مناطق العالم، المرافقة لحملات الاستعمار العسكريَّة واحتلاله لبلدان عديدة. وهناك إلى الآن عِدَّةُ مدارس ثقافيّة ولغويَّة مازالت في بلدان الشَّرق الأوسط تعمل على نشر ثقافة بلدانها، وتحت مزاعم مختلفة. كما أنَّ نابليون عندما شَنَّ حملته على مصر؛ رافقه فيها عدد من علماء الآثار والمثقَّفين وأساتذة الجامعات، وأنشأوا مدارس ومراكز أبحاث في مصر، فيما نقلوا آثار مصر إلى بلدانهم، منها «حجر الرَّشيد».

فالتَّبعيَّة الثَّقافيّة تخضع لصيرورة تاريخيَّة طويلة تتشكَّل عبر الزَّمن، ولا يمكن حصرها بفترة زمنيَّة معيَّنة، بل هي نتاج عمليّة طويلة تتغيَّر أشكالها وأنواعها تبعاً للمرحلة الزَّمنيَّة التي يَمرُّ بها المتبوع والتّابع. وتُعتَبر التَّبعيَّة الثَّقافيّة حالة مكثَّفة من التأثُّر بثقافة الغير، دون تمكّن المتلقّي من التّأثير على المُرسِل، فالمؤثِّر يمتلك أدوات معرفيَّة وعلميَّة قادرة على استقطاب المتبوع له والتَّأثير عليه، ليغدو مع مرور الزَّمن تابعاً ونسخة منه، يُكرِّرُ ما يَتُمُّ تلقينه به، تحت شعار «الانفتاح والتَّنوير»، ويخلق حالة تبعيَّة ثقافيّة شاملة ضمن مجتمعه. مثلاً دول رابطة «الفرنكوفونيَّة» و»الكومنولث»، حملت الثَّقافة الفرنسيَّة والإنكليزيَّة كجزء من ثقافتها، حتّى أنَّها إلى الآن تتكلَّم اللُّغة الفرنسيَّة والإنكليزيّة، مثل معظم دول أفريقيا وأستراليا وأسكوتلندا وغيرها. كما أنَّ ظاهرة التَّبعيَّة الثَّقافيّة تخضع للشروط والظروف السِّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة التي يَمُرُّ بها الطرفان، مثل وقوع الدّولة المتبوعة ثقافيّاً تحت الاستعمار، وكذلك تخلُّفها الاقتصاديّ والتَّنمويّ، إضافة إلى وقوعها تحت المؤثِّرات الدّينيّة التي تَحُدُّ من التحرُّر الثَّقافيّ.

تعتبر التَّبعيَّة الثَّقافيّة أشدُّ تأثيراً على الشُّعوب والمجتمعات من التَّبعيَّة السِّياسيّة والاقتصاديّة، بل إنَّ الأخيرة نِتاج الأولى، فلا يمكن أن يكون هناك احتلال وربط اقتصاد بلد ما باقتصاد أحد البلدان دون وجود حاضنة ثقافيّة للمحتلّ في ذاك البلد، ويذكر لنا التّاريخ أمثلة عديدة على ذلك، مثل الاستعمار الغربيّ في الشَّرق الأوسط، الذي نشر ثقافته وأفكاره قبل أن تحتلَّ جنوده جغرافيَّته، حتّى في عصر الاكتشافات الجغرافيَّة وفي عصر النَّهضة في أوروبا يلاحظ هذا الأمر بكثافة، حيث حمل كريستوفر كولومبوس معه ثقافة أوروبا إلى أمريكا عند اكتشافها، رغم أنَّ هدفه الوصول إلى مناجم الذَّهب والمعادن الثَّمينة. فيما عمدت بعض القوى الاحتلاليَّة الأخرى إلى تبنّي ثقافة البلدان التي تحتلُّها، لتغدو جزءاً منها، أو تتسيَّدها، مثال السَّلطنة العثمانيَّة عندما احتلَّت بلدان الشَّرق الأوسط، تبنَّت ثقافته ودينه،

ولو بشكل موارب ومراوغ، لتكرّس احتلالها تحت شعار الدّين وقيادتها للعالم الإسلاميّ.

كما أنَّ حالة التخلُّف السّائدة في مجتمعات الشَّرق الأوسط؛ سهَّلت الطريق أمام غزو ثقافيّ متعدِّدِ الجوانب، لتقع بلداننا تحت سَطوَة الفكر الخارجيّ، وتُعاد هندسة الفكر والثَّقافة وفق معايير الثَّقافة الوافدة، والتي تتمتَّع بكل أدوات وأشكال فرض هُويَّتها وطرائق تفكيرها، وبالتّالي تغدو هي السّائدة، وتصبح جزءاً من ثقافة ذاك المجتمع والشَّعب، ولا يستطيع التحرُّرَ من تأثيراتها خلال فترة قصيرة.

إنَّ أبرز تجلّيات التَّبعيَّة الثَّقافيّة تظهر من خلال التَّقليد وفرض نمط الثَّقافات الأخرى، إن بشكل مباشر أو غير مباشر، ما يضعف الثَّقافة المحلّيّة أو الوطنيّة الأصيلة، وتترك آثارها في النشء الجديد والأجيال الصاعدة، فضلاً عن ولادة مجتمع هجين يدين بالولاء للثَّقافة الوافدة إليه، والتي تترك آثارها على مختلف مجالات الحياة، وخاصَّةً في الحقلين الفكريّ والإبداعيّ.

يحدث أحياناً كثيرة خلط، إن بشكل ممنهج أو غير مقصود، بين الانفتاح والتَّنوير والتَّبادل مع الثَّقافات الأخرى، التي تُعتبر في هذه الحالة غنى ثقافيّاً وحضاريّاً، يزيد من أواصر التَّواصل والتَّبادل الثَّقافيّ مع الحضارات والثَّقافات الأخرى، وتزيد من مساحة الخلق والإبداع، وتشارك في بناء ثقافة إنسانيَّة مشتركة، لتغدو كونيَّة. وهذا بطبيعة الحال يختلف عن التَّبعيَّة الثَّقافيّة، بل يتناقض معها كُلّيّاً.

أسباب التَّبعيَّة الثَّقافيَة:

لقد تعدَّدت أسباب التَّبعيَّة الثَّقافيّة وحالة الانقياد الفكريّ الموجودة في بلدان الشَّرق الأوسط، ولا يمكن حصرها في سبب واحد، أو إلقاء اللوم على هذا الطرف أو ذاك، أو تلك الجهة والنُّخبة بحالها، بل إن هناك أسباب بنيويَّة تتعلَّق بنمطية التَّفكير السّائد في المجتمعات الشَّرقيَّة، إضافة إلى عامل الدّين الذي لعب دوراً مثبّطاً لها.

"إن دعاةِ الانفتاح على الثَّقافات الأخرى، ونقلِ كُلِ القيم الثَّقافية الغريبة عن مجتمعاتها وشعوبها، بزعم التطور الحضاري وتبادل العلوم والفنّون والآداب مع الغير، هي أيضاً تعيش حالة اغتراب، وتسعى لنقل وإسقاط تجارب وقيم الغير بشكل ميكانيكيّ في بلدانها وربطها ثقافياً مع الآخر، دون الأخذ بعين الاعتبار مميزات وخصائص مجتمعاتها"

ويعزو الدّكتور «عبد الله الجسمي» في مقالة له في موقع «رؤية» بعنوان «التَّبعيَّة الثَّقافيّة» أسباب التَّبعيَّة الثَّقافيّة إلى عِدَّةِ عوامل، منها «حالة الجمود، والانغلاق الثَّقافيّ، وسُرعَة التَغيُّرات الماديَّة التي تمَّت في زمن قياسيّ لا يتجاوز جيلاً أو جيلين دون تغييرات ثقافيّة تُجاريها».

ولعلَّ هذا الانغلاق على الذّات الثَّقافيّة، حسب الدّكتور «الجسمي»، دفع العديد من العاملين في الحقل الثَّقافيّ للتَّماهي مع الثَّقافات الأخرى، وهي بدورها قيدت قدرتهم على الإبداع العلميّ والفكريّ والثَّقافيّ، ولم تركِّز على الجوانب الثَّقافيّة الرَّصينة، بل انصبَّ اهتمامها على الأمور والمواضيع الشَّكليّة، الموضة والاستهلاك، والظواهر السَّطحيَّة، وبالتّالي لم تتمكَّن من بناء ثقافة محصَّنة من تأثيرات الثَّقافات الأخرى السّلبيَّة.

لا شَكَّ أنَّ صعف التَّنمية الاقتصاديّة وسيطرة الإنتاج الزِّراعيّ الرَّعويّ على نمط الإنتاج في معظم بلدان الشَّرق الأوسط، سبب آخر للتَّبعيَّة

”إنّ أبرز تجلّيات التّبعيّة الثّقافيّة تظهر من خلال التّقليد وفرض نمط الثّقافات الأخرى، إن بشكل مباشر أو غير مباشر، ما يضعف الثّقافة المحلّيّة أو الوطنيّة الأصيلة، وتترك آثارها في النشء الجديد والأجيال الصاعدة، فضلاً عن ولادة مجتمع هجين يدين بالولاء للثّقافة الوافدة إليه، والتي تترك آثارها على مختلف مجالات الحياة، وخاصةٍ في الحقلين الفكري والإبداعيّ“

الثّقافيّة، حيث أنّ الاعتماد على الغير في بناء صناعة – ولو محلّيّة ضعيفة – وتوافد الخبرات العلميّة من الخارج، يستتبع هذه العمليّة غزو ثقافيّ لا يمكن مواجهته إلا بثورة علميّة وتقنيّة، والوصول إلى حالة الاكتفاء الذّاتيّ اقتصاديّاً وتنمويّاً، وهو ما انعكس على واقع التنمية الثّقافيّة أيضاً.

فالتّنمية الثّقافيّة تَتُمُّ عبر عمليّة التّحديث وإضافة قيم ثقافيّة جديدة باستمرار، إن كانت ماديّة أو ثقافيّة، وأيُّ نقل ميكانيكيّ لقيم الغير وتَبنّيها، إنّما يُشوِّه الثّقافة الوطنيّة. فالتغيير وإغناء الثّقافة لا يعني على الإطلاق تبنّي القيم الثّقافيّة الأجنبيّة تحت مزاعم الحداثة والتّطوير والانفتاح، بل يعني فَهمَ تلك القيم وإعادة إنتاجها بطريقة تُلائِمُ قيمنا الثّقافيّة ولا تَحُلُّ محلّها، لتعيد صياغتها بشكل جديد تُحدِّدُ بموجبها أطرها العامّة وطرق تفكيرها لتتكيف مع واقعها وتحمي نفسها من كُلِّ المؤثّرات الخارجيّة المُهدِّدَة لها.

كما كان لبعض المثقّفين الدّارسين في الجامعات الغربيّة، دور كبير في تكريس واقع التّبعيّة الثّقافيّة، عبر تبنّي نماذج وثقافة وإيديولوجيّات الآخر، دون تحليل لها، أو إعمال للعقل فيها، ودون فَهم حقيقي لواقعهم، ومتطلّبات تحديثه الفعليّة، وفق الدّكتور ”الجسمي“.

وقد لعبت دور النّشر في الدّول الغربيّة دوراً كبيراً في ربط ثقافة شعوب ومجتمعات الشّرق الأوسط بثقافتها، حيث كان الكتاب – ولا يزال – السّلاح الذي استخدمه الغرب في نشر ثقافته المتحرِّرة من القيود والتي تخدم مصالحه التوسّعيّة، ويقول الدّكتور ”عبد الله جمعة الحاج“ في مقالة له في موقع ”مركز الاتّحاد للأخبار“ بعنوان ”التّبعيّة الثّقافيّة والمستقبل“: ”تُعَدُّ صناعة الكِتاب مثالاً جيّداً لطبيعة التّبعيّة الفكرية والثّقافيّة، ويتّضح ذلك في تمركز معظم الناشرين والموزّعين الرّئيسيّين للكتب العلميّة الرّصينة والمُحكَمَة في كافّة العلوم في الغرب، ويتوجّب على أمم عالم الجنوب، بما في ذلك دور النشر فيها، استيراد كميّات كبيرة من مادّة القراءة العلميّة بمعناها الواسع من الغرب“.

كما أنّ الغرب تمكّن من خلال امتلاكه الإمكانات الماديّة والتّقنيّة في طباعة الكتب ونشرها بشكل واسع؛ من أن يستحوذ على الكتب بلغات شعوب الشّرق في مكتبات تنتشر في شوارع لندن وباريس وبرلين، ولا يمكن للقارئ أو الباحث في الشّرق الحصول عليها في بلدانه، كما يقول الدّكتور ”عبد الله جمعة الحاج“. إضافة إلى أنّ مِقصّ الرّقيب والسُّلطات القمعيّة التي تَحُدُّ من حُرّيّة التّعبير والإبداع؛ جعل الدّول الغربيّة تَستغِلُّ هذه الظاهرة، وتستأثر على المعلومة وتتحكّم بطريقة نشرها وتوزيعها، وتربط القارئ والباحث بها، بشكل مباشر، وتكون هي الجهة المفضّلة لديه.

فاستطاع الغرب أن يغزو بلدان الشّرق الأوسط علميّاً وثقافيّاً قبل أن يغزوها عسكريّاً، وعبر عِدَّةِ وسائل وطرق؛ منها افتتاح مدارس تُدرِّس لغات بلدانهم، إضافة إلى تعيين أشخاص يحملون

أفكارهم في المؤسَّسات ومفاصل الدّولة، وتشكيل مؤسَّساتها وإداراتها وفق النّماذج السّائدة لديهم، وبذلك تمكّنوا من السّيطرة على الدّولة والمجتمع. حتّى أنَّ تلك المدارس والجامعات "يُدرَّس فيها الاقتصاد الغربيّ والسّياسة الغربيّة وعلم الاجتماع الغربيّ وعلم النّفس الغربيّ، في صورة أفكار جاهزة معلّبة يتلقّاها الطالب، ويَكبُرُ وفق عقليّة غربيّة ليغدو تفكيره ومنطلقاته في الحياة غربيّة أيضاً، ولذلك يقود البلاد نحو الغرب". وهذه هي التَّبعيَّة الثَّقافيّة بكُلِّ أبعادها وإسقاطاتها.

ويقول الكاتب "مُحمَّد السَّعد" في دراسة له على موقع "الوطن" بعنوان "نظريَّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة خارج قاموس خبراء التخلّف"، إنَّ «التَّبعيَّة الثَّقافيّة واقع ماديّ محسوس وحقيقة تاريخيّة واجتماعيّة في الوطن العربيّ، وفي ظِلِّ تكريس التَّبعيَّة الثَّقافيّة بفعل العولمة التي ترفع شعارات الكونيّة لإلحاق بقية الشُّعوب تحت لوائها، فإنَّ خطابنا الثَّقافيّ ما زال يتجاهل قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وأنَّ تحليل التَّبعيَّة لم يكن يشكّل في الحقيقة تيّاراً نظريّاً وفكريّاً في خطابنا الثَّقافيّ اليوم".

إنَّ مظاهر التَّبعيَّة الثَّقافيّة في دول الشَّرق الأوسط متعدِّدة، ويمكن رؤيتها دون عناء يُذكر، حتّى ولو ادّعت الأطراف التي تدافع عنها وتبرِّر لها أنها في سبيل نشر العلم والعالميّة والكونيّة وتحقيق الحداثة، ويمكننا "ملاحظة المجالات التي تُمثّل بيئة خصبة للتبعيَّة الثَّقافيّة، مثل تبعيَّة التَّعليم والتَّبعيَّة في البحث العلميّ، وفي الأنشطة الثَّقافيّة والأندية الأدبيَّة والقنوات الفضائيّة، وازدياد أعداد الجامعات الأمريكيّة داخل مدن الشَّرق، وتَمتدُّ لتصل إلى أنماط الحياة اليوميَّة والقيم الاجتماعيّة والثَّقافة الشَّعبيَّة".

التسلُّط والقمع السّائد في بلدان الشَّرق؛ يُعَدُّ السبب الرَّئيسيّ في حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة وتكريسها. فالنُّخب السّياسيّة وقبلها الثَّقافيّة لعبت دوراً رئيسيّاً في توفير الأرضيَّة للغزو الثَّقافيّ الخارجيّ، بل في أحيان كثيرة جاءت بتخطيط وتدبير منها، ولعبت دور الجسر في نقل الثَّقافة الأجنبيّة إلى بلدانها، عبر تكريس حالة التَّبعيَّة السّياسيّة، بشكل مباشر أو غير مباشر، كما خلقت فئة ثقافيّة تعمل في خدمتها وتأتمر بأوامرها في توطيد أواصر التَّبعيَّة الثَّقافيّة من خلال امتلاكها وسيطرتها على المؤسَّسات الثَّقافيّة في دولها، وتسخير إمكاناتها في خدمة مصالح السُّلطات الحاكمة.

إنَّ إحدى حالات التَّبعيَّة الثَّقافيّة تبدو من خلال القراءة والكتابة بلغة غير اللُّغة الوطنيّة، فتجد الشَّخص الغارق في التَّبعيّة الثَّقافيَّة يُعبّر عن أحاسيسه وأفكاره بتلك اللُّغة ولن يفهم منها بسهولة إلا من يجيدها، ما تشكّل معها حالة اغتراب عن وطنه ومجتمعه، ويدفعه إلى الارتباط – ولو روحيّاً أو على مستوى الأفكار – بتلك اللّغة وحاملها الثَّقافيّ. وفي هذا المجال يقول الدّكتور "عبد الله جمعة الحاج" إنَّ "العديد من كتّاب العالم النّامي، حتّى أولئك الذين يكتبون بلغاتهم الوطنيّة يفضّلون نشر أعمالهم في دول الغرب لكي يضمنوا أعلى معدل انتشار لأفكارهم واعتراف بأعمالهم، فأيّ مستقبل ثقافيّ ينتظرك يا عالمنا النّامي؟".

نظريَّة المركز والأطراف وعلاقتها بالتَّبعيَّة الثَّقافيَة:

إنَّ ذوبان «الأمَّة الضعيفة» بشكل كُلّي في «الأمَّة القوية» إنَّما يَتُمُّ بالدَّرجة الأولى عبر الصهر الثَّقافيّ والتَّبعيَّة الثَّقافيّة. فالأمم القويَّة هي المُحَصَّنة ثقافيّاً وعلميّاً واقتصاديّاً، والقادرة على أن تكون المركز المؤثِّر الذي يضبط إيقاع ومنحى التَّطورات العلميَّة والحركة الثَّقافيّة واتّجاهاتها العامَّة في بلادها وحتّى في العالم أيضاً، وبالتّالي تتحوَّل إلى مركز جذب واستقطاب للثَّقافات الأخرى، شريطة ألا تتحوَّل إلى أمَّة تفرض ثقافتها على ثقافات الأطراف وتذيبها في بوتقتها، وتتحوَّل إلى بديل لها، أو تطبعها بطابعها، من خلال إمكاناتها الماديَّة والاقتصاديّة التي تمكّنها من أن تتحوَّل إلى أمَّة ذات ثقافة

> **يفترض في حالة المركز القوي أن يطرح نفسه كمركز إشعاع ثقافي وحضاري، ويستطيع بفعل امتلاكه أدوات التواصل والتأثير على الثقافات الأخرى، أن يسعى إلى خلق ثقافة كونية أكثر ثراء وغنى، ويوطِد من أواصر التبادل الثقافي، وعلى مختلف المستويات، بما يخدم خلق ثقافة إنسانية جامعة، مع احترام خصوصية كُل ثقافة، وعدم محاربتها أو التعدي على قيمها، وبما يعزز من القيم الإنسانية الحضارية**

«ساديَّة»، تمارس ساديَّتها بشكل تعسُّفيٍّ وفوقيٍّ، وتنظر إلى ما دونها على أنَّها مجرَّد توابع تدور في فلكها الثَّقافيّ والعلميّ والحضاريّ، ما يخلق معه تفاوتاً في مستويات الوعي. فيما تُعتبر من جانب آخر حرباً مفتوحة على هُويَّة الأمَّة والمجتمع، لتتحوَّل العمليّة برمَّتها إلى غزو ثقافيّ مفضوح بكُلّ المعاني.

يُفترض في حالة المركز القويّ أن يطرح نفسه كمركز إشعاع ثقافيّ وحضاريّ، ويستطيع بفعل امتلاكه أدوات التَّواصل والتَّأثير على الثَّقافات الأخرى، أن يسعى إلى خلق ثقافة كونيّة أكثر ثراء وغنى، ويوطِّدَ من أواصر التَّبادل الثَّقافيّ، وعلى مختلف المستويات، بما يخدم خلق ثقافة إنسانيَّة جامعة، مع احترام خصوصيَّة كُلّ ثقافة، وعدم محاربتها أو التعدّي على قيمها، وبما يعزّز من القيم الإنسانيّة الحضاريّة.

غير أنَّ ما نشهده في واقعنا الرَّاهن يدحض تلك الرؤية والصورة المأمولة، ففي كتابه «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النِّظام العالميّ الجديد» يقول الكاتب الأمريكي «صموئيل هنتنغتون» إنَّ الصراع العالميّ في السَّنوات القادمة سيغدو صداماً ثقافيّاً. ويعتبر أنَّ الاختلافات السِّياسيّة والاقتصاديّة والعسكريَّة المندلعة بين الدّول القوميّة خلال الفترة التّالية للحرب الباردة، أساسها الخلافات الثَّقافيّة. ويذهب «هنتنغتون» إلى حَدِّ الاعتقاد واليقين أنَّ في هذا الصدام، الذي يُعرّفه بأنَّه «إطار تحاوريٌّ بين عدد من الثَّقافات المختلفة فيما بينها»، ستحاول كُلّ ثقافة «فرض ذاتها على الأخرى، وبالتّالي يهيمن الصراع الرَّهيب والطغيان الإنسانيّ على الحضارة الكونيَّة».

فيما اعتبر الكاتب الأمريكيّ الآخر «ميشيل فوكوياما» في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان»، أنَّ شكل الحضارة الإنسانيّة ينتهي عند «الدّيمقراطيّة الليبراليّة» الغربيّة دون سواها، محدّداً الإطار العام لسيادة الحضارة والثَّقافة الرَّأسمالية، عبر تحديث قيمها الثَّقافيّة؛ نظراً لامتلاكها قوَّة وإمكانيَّة التغيير الدائم، وبأنَّ البشريَّة وصلت إلى ذروة التَّطور ونهايته مع الحداثة الرَّأسماليّة، التي باتت تسيطر على مفاصل الحياة الثَّقافيّة والعلميّة والتّقنيَّة للبشر في المعمورة.

إنَّ الرَّأسماليَّة التي وصلت إلى عصر العولمة، مع التَّطور المذهل في تقنيات التَّواصل وعالم «الرَّقمنة» وتحكّمها بمصادرها، بل واحتكارها، باتت تفرض نفسها على الثَّقافات الأخرى بأساليب تتجاوز قدرة الشُّعوب الأخرى على مواجهتها، أو على الأقلّ حماية ثقافاتها من التّأثيرات السّلبيَّة القويّة للثَّقافة الرَّأسماليّة الغازية. فبرامج الكومبيوتر وشبكة الإنترنت ومواقع التَّواصل الاجتماعيّ المتعدّدة، هي من تتحكَّم بها، وقد غزت العالم بشكل رهيب، وفرضت إيقاعها الثَّقافيّ وأنماطها الاقتصاديّة والعسكريَّة والاجتماعيّة وكُلَّ قيمها، وغدت شعوب العالم أسيرة لديها، تتحكَّم في مزاجها الثَّقافيّ وتُحدّد سلوكيّاتها، وتربطها معها من خلال علاقة تبعيَّة شبه مطلقة تلغي معها خصوصيّات الشُّعوب وثقافاتها. فالتّقنيات

التي ألغت الفوارق المكانيَّة والزَّمانيَّة في عصر الرَّقمنة والإنترنت، حوَّلت الكُرة الأرضيَّة إلى قرية صغيرة، يَتُمُّ فيها نقل المعلومة بسرعة فائقة، وتتبادل الشُّعوب ثقافاتها عن بعد وعبر الأثير والعالم الافتراضيّ، وليس كما كان سائداً في العصور السّابقة. فالثَّورة السّيبرانيَّة/ المعلوماتيّة التي يشهدها العالم؛ ورغم قدرتها على نشر المعرفة وجميع العلوم والثَّقافة وجعلها في متناول الغالبيَّة العظمى من البشر، إلا أنَّها في ذات الوقت تُعَدُّ غزواً وتبعيَّة ثقافيّة واقتصادية وسياسيّة لا حدود لها للمركز القويّ الذي يتحكَّم بمصدر المعلومة، بل وأحياناً كثيرة ضبطها لإطارها العام، يُهذّبها ويُخرجها بحُلَّة تناسب أذواق كُلَّ مجتمع وشعب، إلا أنَّها تحتفظ بحقِّ التصرف بها بما تتناسب مع مصالحها ورؤاها السِّياسيّة والثَّقافيّة. مثلاً خلال التَّنافس الاقتصاديّ المحتدم بين شركة "مايكروسوفت" الأمريكيَّة وشركة "هواوي" الصّينيّة، عارضت الولايات المتّحدة الأمريكيَّة تزويد الشَّركة الصّينيّة ببرامج تشغيل هواتفها الخليويّة وخاصَّةً برنامج "أندرويد/ Android" الأمريكيّ، ما أدّى إلى إفلاس الشَّركة وإغلاقها. رغم أنَّ هذه الحرب لها جانبها الاقتصاديّ؛ إلا أنَّ لها جانبها الثَّقافيّ أيضاً، فالولايات المتّحدة تسعى من خلال تحكّمها بالبرمجيّات الرَّقميّة فرض هيمنتها الثَّقافيّة على العالم أجمع واعتبار نفسها دائماً المركز القويّ.

فيما يُفترض أن تحذو "المجتمعات الإنسانيّة في هذا العصر، وعلى اختلاف ألسنتها وثقافاتها، على التَّواصل، بل التَّعايش، ذلك أنه قد أصبح من الصعب القول بالهُوِيَّة الواحدة، في مقابل المتعدّدة، بعد قد ارتفع المُحدِّد الجغرافيّ عن رسم حدود اللّغات والثَّقافات، فأصبحنا نعيش نمط القرية الواحدة، فحجم التّداخل الثَّقافيّ الذي تسبَّبت فيه من جهة، عوامل الهجرات المختلفة العاملة والعالمة، التي أدَّت إليها الكولونيالية ومراحل الاستعمار وضعف البنيات الأساسيَّة للأوطان الضعيفة اقتصادياً وسياسيّاً وعسكريّاً، خصوصاً بعد التَّقسيم الذي نتج عن الحربين العالميّتين الأولى والثّانية، ومن جهة أخرى أدى التَّطور التكنولوجيّ والرَّقمنة إلى جعل العالم الشاسع جغرافيّاً متداخل ثقافيّاً وفكريّاً، حيث وسائل التواصل تعجِّل بنقل المعلومات من بلد لآخر متجاوزة القدرات البنيويَّة لذلك البلد وثقافته ولغته".

إنَّ نظرة أوَّليّة على واقع الشَّرق الأوسط وشعوبه في ظِلِّ نظام العولمة، توهم بأنَّ العالم سيتحوَّل إلى بيئة متسامحة يقبل فيها الآخر المختلف عنه ثقافيّاً. غير أنَّ مجريات الصراع الدّائر فيه وعليه، تؤكِّد أنَّه دون الجاهزيَّة أو الاستعداد الفكريّ والثَّقافيّ الكافي لمواجهة التحدّيات والمخاطر النّاجمة عنه، يجعل الشَّرق برمَّته يتعرَّض للضغوط وأنَّه أحد أسباب تخلّفه، وهو ما يفتح الطريق أمام "زيادة موجة التَّبعيَّة الفكرية والثَّقافيّة للدّول الغربيّة، وهو ما انعكس على تعميق أزمة الهُوِيَّة والانتماء وما رافقها من آثار على الصَّعيد المجتمعيّ. فالانفتاح الثَّقافيّ دون وجود المعايير والضوابط والرؤية والهدف، لن يساعد على بناء مجتمع عصريّ، وذلك لأنَّه يدعو إلى التَّغريب والتَّبعيَّة، كما أنَّه يؤدّي إلى الانغلاق والجمود، والعكس صحيح"، حسب بعض المفكّرين.

الهُوِيَّة الثَّقافيَة وحمايتها من علاقات التَّبعيَّة:

تُحدَّد هُوِيَّة أيّ مجتمع أو شعب أو أمَّة من خلال ثقافته، التي تعكس علاقاته التَّفاعليّة وبنائه الحضاريّ ويُستدَّل عليه عبرها. فالثَّقافة هي خزّان أفكاره وتراثه المعنويّ، وتتشكَّل خصوصيَّته عبر هُوِيَّته الثَّقافيّة. فالعلاقة تبادليَّة بين الهُوِيَّة والثَّقافة، فكُلّ واحدة تشكّل الأخرى، ولا يمكن الفصل بينهما، بل تكملان بعضهما البعض. فالهُوِيَّة الوطنيّة أيضاً تُحدَّد من خلال الهُوِيَّة الثَّقافيّة.

ويقول المفكّر «عطيّة عاطف» في دراسة له بعنوان «الثَّقافة العربيَّة بين الأصالة والتَّبعيَّة»

نشر في موقع «سعادة للثَّقافة"، إنَّه "لا يمكن الكلام على الثَّقافة بمعزل عن الهُويَّة. فالمفهومان مترابطان دون تطابق. إذ يمكن للثَّقافة أن تعمل دون وعي للهُويَّة. كما يمكن للهُويَّة أن تصنع ثقافتها أو تعدِّلَ في عناصرها. وإذا كانت الثَّقافة تُبنى بأنماط تفكير وممارسات واعية ولا واعية، فإنَّ الهُويَّة انتماءٌ واع ومدرك. وهي باعتبارها هُويَّة ثقافيّة، فإنَّها هُويَّة اجتماعيّة أيضاً؛ بل إنَّ الهُويَّة الثَّقافيّة مُتضمَّنة في الهُويَّة المجتمعيَّة. هذه الهُويَّة تعمل على ربط الفرد في محيطه الاجتماعيّ. هي، إذن، تعني الانتماء إلى الرَّوابط الأوَّليّة للفرد في جنسه وعمره ونسبه وفئته القرابية الأهليّة والدّينيّة بما يُسمّى الانتماء الأهليّ للإنسان؛ وهو الانتماء الذي لا إرادة له فيه ولا حول. والهُويَّة، بهذا المعنى، تجعل الفرد محدّداً لموقفه في السّياق الاجتماعيّ، وتجعل الآخرين قادرين على تحديد موضعه اجتماعيّاً". أي أنَّ الهُويَّة المجتمعيَّة تُحدَّد من خلال الهُويَّة الثَّقافيّة. ولذلك تسعى القوى الكولونياليّة/ الاستعماريّة عند احتلالها أيّ من البلدان إلى تدمير هُويَّتها الثَّقافيّة، وبالتّالي تلغي وجود وكيان شعبها، وهذا ما دأب عليه الاحتلال التُّركيّ عندما احتلَّ منطقة عفرين عام ٢٠١٨، فغيَّر ديمغرافيَّتها السُكّانيّة، كما غيَّر من معالمها الثَّقافيّة واستبدلها بالتُّركيّة، مثل أسماء القرى والسّاحات والأماكن العامَّة، إضافة لسرقة كنوزها الأثريّة، سعياً وراء تغيير هُويَّة منطقة عفرين وثقافتها الكُرديّة، وتكريس الثَّقافة التُّركيّة وإلحاقها بتركيّا.

إنَ الحفاظ على الهُويَّة الوطنيّة حتماً يَمُرُّ عبر حماية الهُويَّة الثَّقافيّة بكُلِّ تلاوينها، وأوَّلها حماية اللُّغة من الاندثار والضَّهر، من خلال تنميتها وتنقيتها وممارستها في الحياة العمليّة. فما أكثر الشُّعوب التي اندثرت عندما لم تحافظ على لغاتها بشكل لائق، مثل الهنود الحمر، وكذلك الآشوريّون والسُّريان اللذين هما على وشك الاندثار، حيث لم يعتنوا بلغاتهم بشكل يحميها من المؤثّرات الخارجيّة. وكذلك لكان حال اللُّغة الكُرديّة، لولا أنَّ الكُرد حافظوا على

"التجربة التركية في إنشاء الدولة القومية – أيّ الجمهورية التركية – بموجب معاهدة لوزان؛ دفع كمال أتاتورك إلى إلغاء الموروث الثقافي للشعب التركيّ، واستبدالها بالقيم الثقافية الغربية، بدءاً من اللباس، حيث فرض على سكان تركيا ارتداء القبعة، إضافة إلى سنِّ قوانين وتشريعات تتعارض مع الثقافة الأصيلة لشعوب الأناضول"

ثقافتهم وآدابهم بلغتهم الأمّ، ولو شفاهيّاً، دون كتابتها. كما أنَّ اللُّغة الكُرديّة التي يأتي ترتيبها الثّامن بين لغات العالم الـ/١٦٨/، تُعَدُّ غنيَّة بمفرداتها وقواعدها، كما أنَّ تدريسها في إقليم كردستان العراق وروجآفا وشمال وشرق سوريّا بشكل أكاديميّ، جعلها مرَّة أخرى من اللُّغات الحيَّة، وبدأ الكُرد بكتابة تاريخهم وإظهار هُويَّتهم عبر اللُّغة بالدَّرجة الأولى، بعد أن كانت ممنوعة من التَّدريس بها وحتّى التحدُّث بها في ظِلِ الدّول المحتلّة لكردستان.

فاللُّغة هي سِرُّ الهُويَّة الثَّقافيّة وعنوانها العريض، وتعلُّم لغة ما والتحدُّث بها واعتبارها لغة أساسيّة، يدفع المرء إلى تبنّي ثقافة ذاك الشَّعب صاحب اللُّغة أيضاً، فالثَّقافة تجد تعبيرها الواضح في اللُّغة، وامتلاك ناصيتها والتمسُّك بها، يتجسَّد عبر تبنّي ثقافتها والتَّماهي معها. كما أنَّ استخدام لغات أجنبيَّة من قبل بعض النُّخب الثَّقافيّة، والادّعاء بأنَّها لغة العلم والثَّقافة، والتّرويج للمصطلحات

الأجنبيَّة، يزيد من الشَّرخ في اللُّغة والثَّقافة، وتعميق حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة.

فللغة دور في حفظ التُّراث الثَّقافيّ للشُّعوب، وهي ليست فقط للتحدُّث بها والتَّفاهم فيما بين أبناء المجموعة العرقيَّة الواحدة، بل هي الوعاء الذي يستوعب كُلَّ نشاطاته الثَّقافيّة الأخرى. إنَّ هدم اللُّغة يُسهّل السَّيطرة على الشُّعوب والمجتمعات.

ويرى بعض الباحثين والمفكّرين أنَّ اللُّغة "حاملة للقيم والعادات والأعراف، بل لأنماط التَّفكير"، ويعتمد الدّكتور «مُحمَّد عابد الجابري» في مشروعه "نقد العقل العربيّ» على اللُّغة كمحدّد لفهم طبيعة تكوين العقل العربيّ، ويقول " اللُّغة تُحدِّد أو على الأقل تساهم مساهمة أساسيَّة في تحديد نظرة الإنسان إلى الكون وتصوّره له ككلٍّ وكأجزاء، ولاحظنا أنَّ اللُّغة العربيَّة رُبَّما كانت اللُّغة الحيَّة الوحيدة في العالم التي ظلَّت هي هي في كلماتها ونحوها وتراكيبها منذ أربعة عشر قرناً على الأقل، أدركنا مدى ما يمكن أن يكون من تأثير لهذه اللُّغة على العقل العربيّ ونظرته إلى الأشياء، تلك النظرة التي لا بُدَّ أن تتأثَّر قليلاً أو كثيراً، بالنَّظرة التي جَرَّها معها اللُّغة العربيَّة منذ تدوينها، أي منذ عصر التَّدوين ذاته".

إنَّ اللُّغة والتّاريخ والثَّقافة عناصر متداخلة مع بعضها، وهي تُشكِّلُ هُويَّة الشَّخص المنتمي لها وأيضاً مجتمعه، ومن هنا تظهر خطورة توظيف لغة أجنبيَّة وتبنّيها محَلَّ اللُّغة الوطنيّة الأم، فعدا عن أنَّها توطِدُّ علاقات التَّبعيَّة الثَّقافيّة؛ فإنَّها تتسبَّب بمزيد من التخلُّف والرَّجعيَّة، إذا ما وضعناها أمام القيم الثَّقافيّة للشَّعب المنتمي إليه ذاك الشَّخص، وتبدو العمليّة برمَّتها تبعيَّة عمياء حيث يغيب العقل والمنطق. ويربط بعض المفكّرين النُّهوض الحضاريّ باللُّغة وأنَّها "عامل من عوامل النُّهوض الحضاريّ متى ما تَمَّ الاعتناء بها وحَسُنَ توظيفها، فموتها يعني موت مجموعة قيم ومعارف وثرات. وإذا كان الاستعمار

"إنِ ردةِ فعل الإسلام السِياسيّ السلبيةِ حيال ظاهرة الانفتاح على الثقافات الأخرى ورفض كِلِ ما هو قادم من الخارج، حتّى العلوم التجريبيةِ وكذلك الفكريةِ العامةِ، بذريعة التمسك بـ"الأصالة"، جعلتها ترتدِ نحو مواقع السلفيةِ والتطرُّف والانعزاليةِ، والتقوقع ضمن الذات والابتعاد عن الحضارة والابتكارات العلميةِ والفنون والثقافات الأخرى"

السّابق عسكريّاً فرض نفسه بالقوَّة؛ فإنَّ الاستعمار الجديد استعمار ثقافيّ يفرض نفسه بالإرادة والثَّقافة لا بالقوَّة".

إنَّ انتماءات الهُويَّة الثَّقافيّة وعلاقتها بالتُّراث والحاضنة الاجتماعيّة التي تشكَّلت ما قبل تشكُّل الوعي الجمعيّ لدى شعب ما – ذاك الوعي الفطري الذي تشكَّلَ في البداية دون إرادة ووعي منه – مثل اسم الشَّخص والدّين اللذين يختاراهما له والداه، هي بداية تبلور هُويَّته الثَّقافيّة، تبدأ فيما بعد ومن خلال التَّراكم الكميّ والكيفيّ، ومع تنامي الوعي وتطوُّره، ما يفضي إلى تشكيل هُويَّته الثَّقافيّة المتميَّزة. ويوضِّح "عطيَّة عاطف" انتماءات الهُويَّة الثَّقافيّة على الشَّكل التّالي: "في الهُويَّة الثَّقافيّة انتماءان؛ الأوَّل، الانتماء الأوَّلي للإنسان. والإنسان هنا، ليس له أيُّ إرادة في هذا الانتماء، أعطيناه صفة الانتماء الأهلي. وهو انتماء ثابت لا يَحول ولا يَزول. والانتماء الثّاني، هو ما يُعرف بالانتماء الاجتماعيّ ذي المرجعيَّة المبنيَّة على

الميراث الثَّقافيّ المبني اجتماعيّاً. وإذا كان هذا الانتماء مفروضاً على الفرد اجتماعيّاً باعتباره ينتمي إلى هذا المجتمع وإلى هذه الثَّقافة، فإنَّ هذا يعني أيضاً أنَّ الهُويَّة سابقة على وجود الفرد. وهي كذلك فعلاً. لذلك ينسب الفرد إلى هُويَّة ثقافيّة وإلى مجتمع بعينه محدَّد بخصائصه الثَّقافيّة وبهُويَّته المميَّزة".

الهُويَّة الثَّقافيّة تتطوَّر عبر شعور الانتماء لها، ووعي هذا الانتماء، وفق "عطية"، إلا أنَّ حالة الاغتراب تحت مزاعم الانفتاح، يُضعف شعور الانتماء، ويدفع نحو التَّبعيَّة الثَّقافيّة، لتضمحَّل الهُويَّة الثَّقافيّة. والنُّخب التي تُسوِّق لثقافة الغير، ولا تعير أيَّ اهتمام لثقافاتها الوطنيّة، متذرِّعة بعالميَّة الثَّقافة، وهي تعتبر رأس الحربة في تكريس حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة.

الهُويَّة الوطنيّة في الشَّرق الأوسط معرَّضة لكُلِّ أنواع التَّهديدات، والدّولة لا حول لها ولا قوَّة، فهي – أي الدّولة – في "حالة عطالة" كما يصفها الدّكتور الفلسطينيّ «أحمد البرقاوي"، وأنَّها لا يمكنها أن تنهض بأعباء استعادة الهُويَّة الوطنيّة نظراً لضعفها وتبعيَّتها، وهي من خلال نخبها السِّياسيّة والثَّقافيّة المرتبطة بها ضمن إطار ترابط المصالح بينها، غير قادرة على بلورة الهُويَّة الوطنيّة الحاملة للمشروع الثَّقافيّ والقطع مع حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة.

ويعتبر الدّكتور "البرقاوي" أنَّ العوامل الجاذبة للهُويَّة الوطنيّة في بلدان الشَّرق الأوسط غائبة، فيما العوامل النّابذة حاضرة، وبقوَّة، حاضرة في الإيديولوجيا التي هي جزء من الثَّقافة، حاضرة في "السياسة، الفنّ، الدّين، الفلسفة، الأخلاق... إلخ".

فيما الثَّقافة الوطنيّة التي تبني الهُويَّة الوطنيّة والثَّقافيّة تقاوم كُلَّ أشكال الاستبداد والغزو الثَّقافيّ والتَّبعيَّة الثَّقافيّة وحالة الاستلاب، إضافة إلى الاستبداد السِّياسيّ والاضطّهاد.

دور الدّين في ترسيخ التَّبعيَّة الثَّقافيّة:

إنَّ المؤسَّسة الدّينيّة الرَّسميَّة، وكذلك رجال الدّين بشكل عام في الشَّرق، ومن خلال تشدّدهم وانغلاقهم، عمَّقت من حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة في دول الشَّرق، حيث أنَّ تحالف السُّلطتين السِّياسيّة والدّينيّة، فتحت الأبواب أمام حالة من الاغتراب والتوجُّه للخارج. فحالة الاستبداد السّائدة في ظِلِّ السُّلطات السِّياسيّة والدّينيّة، دفعت العديد من الأشخاص للبحث عن ذواتهم خارج أوطانهم.

كما أنَّ ردَّة فعل الإسلام السِّياسيّ السّلبيَّة حيال ظاهرة الانفتاح على الثَّقافات الأخرى ورفض كُلّ ما هو قادم من الخارج، حتّى العلوم التَّجريبيَّة وكذلك الفكريَّة العامَّة، بذريعة التمسُّك بـ"الأصالة"، جعلتها ترتدُّ نحو مواقع السَّلفيَّة والتطرُّف والانعزاليَّة، والتقوقع ضمن الذّات والابتعاد عن الحضارة والابتكارات العلميّة والفنون والثَّقافات الأخرى. هذه التيّارات تأثيرها المُدمِّر لا يَقُلُّ عن تأثير التيّارات التي ترتبط بشكل عضويّ بالثَّقافات الأخرى الوافدة وتروِّج لها تحت اسم "الانفتاح" و"التَّبادل الثَّقافيّ» مع الثَّقافات الأخرى.

لقد ساهم المذهب "الوهّابيُّ» في السُّعوديَّة، ومن ثُمَّ انتشاره في مناطق أخرى، في حالة من الانغلاق الفكريّ على الذّات، وبتلك السويَّة جرى فرضه، وبقوَّة، الدّولة على المجتمع، بعد أن تبنَّته الدّولة كمذهب دينيّاً وسياسيّ لها لحماية نفسها وديمومة سلطتها، إضافة إلى فرض قيمها الخاصَّة بها في الدّين والحياة والتَّعامل مع الغير، فأودت بالبلاد إلى التصحُّر الفكريّ وقتل روح الإبداع لدى الأفراد، حتّى أنَّ الدّولة أنشأت مؤسَّسات خاصَّة بها، ووضعت باستلهام من الوهّابيّة قوانينها وتشريعاتها القرووسطيَّة، وبالتّالي أغلقت كُلَّ مسامات التَّواصل مع المجتمعات الأخرى، إلا في الحدود المسموح بها من قبلها، ما ولَّد أجيالاً تؤمن بالغيبيّات وتبتعد عن واقعها، وهذه بالذّات حالة اغتراب وافتراق عن

العلم والواقع، وما نراه من متطرّفين وإرهابيّين يفجّرون أنفسهم، ما هم إلا نتاج ذاك الفكر الأصوليّ المتشدّد.

إنَّ الوسائل والطرائق التي استخدمها القيّمون على الدّين في رفض التَّبعيَّة الثَّقافيّة، أدَّت إلى حالة اغتراب أشَدّ عمقاً وتأثيراً، وتسبَّبت في تكريس العداء بين المجتمعات وقطيعة شبه كاملة مع ثقافاتها، فهي لا تؤمن بكونيّة الثَّقافة ولا تقتنع أنَّه لا يمكن تجزئتها وفق الخصوصيَّة الدّينيّة، وأنَّه يستحيل بناء ثقافة ما وصونها من الغزو الثَّقافيّ بالاعتماد على الدّين فقط. فطبيعة الدّين وأصول ممارسة عقائده؛ تولِّد الانعزاليَّة وعدم قبول الآخر. إنَّ معظم الحملات والغزوات الدّينيّة (المسيحيَّة والإسلامية) فرضت عقيدتها على الشُّعوب التي استعمرتها تحت اسم "الفتح ونشر تعاليم الدّين السَّمحاء"، إلا أنها في حقيقتها صهرت تلك الشُّعوب في ثقافاتها بالقوَّة، مثال ما حدث مع الكُرد الإيزيديّين، حيث مُنِعوا من ممارسة طقوسهم الخاصَّة بدينهم، بل تعرَّضوا لمجازر جماعيَّة اضطرّوا معها للجوء إلى الجبال والتحصُّن فيها لحماية أنفسهم من الغزو الإسلاميّ لبلادهم.

كما أنَّ مؤسَّسة الأزهر، كان لها دورها البارز في تكريس حالة القطيعة مع الثَّقافات الأخرى، عبر التَّركيّز على اعتماد الدّين فقط أساساً في تعليم أجيال عديدة. مثلا جامعة "كامبريدج" البريطانيّة و"الأزهر" تأسَّستا في فترة متقاربة، إلا أنَّ الدَّور الذي لعبته الأخيرة في تطوير العلوم الإنسانيّة والتَّجريبيّة فاق الآفاق، فيما اعتمدت السُّلطات الحاكمة المتعاقبة في مصر على الأزهر في تبرير أفعالها ضُدَّ مجتمعاتها، فالفتاوى التي أصدرها الأزهر منذ ما قبل الاحتلال العثمانيّ للمنطقة وما بعدها، عمَّقت من حالة الاغتراب والتخلّف عن العصر ومبتكراته العلميَّة، إضافة إلى إعدادها لكوادر تدين بالتشدُّد وتَقيس كُلّ العلوم وفق معاييرها الدّينيّة المنغلقة على نفسها.

إنَّ التيارات والنُّخب الدّينيّة تستمدُّ قوَّتها "من إسباغ اليقين الدّينيّ والتمسُّك بأصالتها الماضويّة وبالثَّوابت". وبهذا الشَّكل تَمَّ "سدّ السُّبُل أمام الفكر الحرّ وإبداعه الذي يعتمد على النَّقض والنقد وقابليَّة التجاوز والشَّكِ والجدل والتعدُّديّة والاحتماليّة". إنَّ واقع الإعلام في دول الشَّرق الأوسط يكشف بجلاء وقوعه تحت سيطرة أنظمتها ووجَّهته بما "يعزّز النَّظرة الدّينيّة التُّراثيّة، ويخدم مصالح النُّخب الحاكمة في آن معاً، إضافة إلى إحكام الرَّقابة على دور النَّشر والكتب المستورَدة والصحافة، وإخضاع المؤسَّسات الثَّقافيّة لمؤسَّسات حكوميَّة بيروقراطيَّة لا تفهم معنى الثَّقافة ولا تدرك أهميَّتها المجتمعيَّة".

من جانب آخر يوجد جدل بين تيّارات الانغلاق والانفتاح، وينعكس هذا الجدل على المجتمع ويترك آثاراً كبيرة على توجُّهاته وفي بناء حالة ثقافيّة متطوِّرة ومتقدِّمة ومقاومة بذات الوقت. وفي هذا السِّياق يقول أستاذ الفلسفة "لطفي زكريّا" في دراسة له بعنوان "جدل الانغلاق في العلاقات البينثقافيّة» نشرت في موقع «الإصلاح»، بأنَّ هناك نوع من الجدل والصراع بين أنصار تيّارات الانفتاح والانغلاق والتي يغلق عليها اسم أنصار كُلّ من "الإتّباع والابتداع"، ويقول: "يختزل هذا التوتُّر في العلاقات البينثقافيّة في مجالسنا ومنابرنا في المواجهة بين مشروعَين؛ هما المشروع التَّحديثيّ والمشروع الأصوليّ. وكلاهما يرى في نظيره خطراً داهماً أو مشروعاً انتحاريّاً للذّات. فالتَّحديثي يقول عن الأصوليّ إنَّه منغلق ورجعيّ ومتخلّف وعدوّ للإنسانيَّة، أما الأصوليّ فيقول عن التَّحديثي إنَّه تغريبيٌّ ومنبت وعدوٌّ لهُوِيَّته ولتاريخه. بحيث يتراءى المشروعان على طرفي نقيض ويستحيل على أحدهما أن يتحمّل وجود الآخر أو يقيم وإيّاه علاقات حوار وتعايش سلميّ".

غير أنَّ وضع نهايات حتميَّة للجدل بين ظاهرَتي «الانغلاق والانفتاح" تنطوي على مغالطات فكريَّة، فلا يمكن إطلاق أحاكم مطلقة عليها بالاستناد إلى مُسلَّمات مسبقة، فهي تبقى أحكاماً نسبيَّة، ولا يجوز تعميمها واعتبارها ناموساً عامّاً ضمن أيّ من المجتمعات. ومن خلال

> **"الوسائل والطرائق التي استخدمها القيّمون على الدّين في رفض التّبعيّة الثّقافيّة، أدّت إلى حالة اغتراب أشدّ عمقاً وتأثيراً، وتسبّبت في تكريس العداء بين المجتمعات وقطيعة شبه كاملة مع ثقافاتها، فهي لا تؤمن بكونيّة الثّقافة ولا تقتنع أنّه لا يمكن تجزئتها وفق الخصوصيّة الدّينيّة، وأنّه يستحيل بناء ثقافة ما وصونها من الغزو الثّقافيّ بالاعتماد على الدّين فقط"**

فهم سياقات نشوئهما، وإخضاعهما لقانون السّببيّة؛ تتضّح أكثر الرّؤية حولهما. وفي هذا الصدد يقول "لطفي زكريّا": "ليس الانغلاق شرّاً محضاً وليس الانفتاح خيراً محضاً، بل الخير في الوعي بالعلاقة الجدليّة التي تحكمهما، والشّرُّ في الاحتكام لإحداهما دون الأخرى. فليس الانغلاق حلّاً، ولكنّه ليس مشكلاً أيضاً، وبالمثل ليس الانفتاح مشكلاً ولكنّه ليس حلّاً أيضاً. إنّ جوهر الإشكال يكمن في مضمون الانغلاق ومضمون الانفتاح، هل هو الاتّباع أم هو الإبداع؟". ويضيف "يبدو في حمأة هذا السّجال بين الأصوليّين والحداثيّين أنّه لا يوجد اختلاف حقيقيّ بين المشروعَين؛ لأنّ كليهما يسوّق لتبعيّة ثقافيّة يتوهّم فيها التميّز وإثبات الذّات. فإذا كانت النّزعَة الأصوليّة تحتكم إلى الزّمان في تسويق تبعيّة ماضويّة؛ فإنّ النّزعة الحداثيّة تحتكم إلى المكان في تسويق تبعيّة غربويّة. وتتناسى النّزعَتان أنّ الإنسان لا يكون جديراً بشرف الإنسانيّة إلا إذا خطّ طريق كدحه بنفسه وليس على أيّة قاعدة اتّباعيّة".

ويَخلُصُ في نهاية بحثه أنّ «تحرُّرَ الأصوليّين والحداثيّين من سُلطَة العقل الإتّباعيّ لا يتحقّق إلا بالإمساك بشروط الإبداع وبرسم الحدود الواصلة أو الفاصلة بين الإتّباع والإبداع، أو بين ما يبدو إتّباعاً أو إبداعاً من وجوه الابتداع. وطريق الإبداع لا يَسلكها هُواةُ التّكرير (Reproduction) لأنّها طريق وعرة لا يتحمّلها إلا المنتجون (Producteurs). وليس الابتداع إبداعاً، وإنّما هو توهُّم الإبداع في الإتّباع. إنّ المبدع لا يتبع ولا يبتدع؛ بل يجعل اللا مرئيَّ مرئيّاً واللا مسموع مسموعاً. إنّه يفتح فينا السمع والبصر والفؤاد فنكتشف معه ما لم يكن معلوماً لدينا من قبل".

الفكر القوميّ ودوره في تكريس التّبعيّة الثّقافيّة:

من المعروف أنّ الأفكار القوميّة انتقلت إلى المنطقة عن طريق الدّارسين في الجامعات الغربيّة مثل باريس ولندن وبرلين، وكذلك عن طريق البعثات الأثريّة والدّينيّة والقنصليّات والسّفارات الغربيّة في بلدان الشّرق.

إنّ أشخاصاً شرقيّين مولعين بتجارب الدّول القوميّة في الغرب؛ دفعهم لنقل تلك الأفكار إلى بلدانهم وإسقاطها فيها، دون الأخذ بالاعتبار ثقافة بلدانهم وخصوصيّاتها. وهذا ما جرى مع بعض النُّخب السّياسيّة والثّقافيّة حيال تجارب الاشتراكيّة المُشيَّدة أيضاً.

لقد لعبت الحواضن والنُّخب القوميّة في الشّرق دوراً اغترابيّاً خطيراً في وضع شعوبها ضمن فلك الدّول الغربيّة، من خلال نسخ أفكار وتجارب الدّول الغربيّة في تشكيل دولها القوميّة، رغم أنّها – أي الدّول الغربيّة – نفسها تجاوزت الفكر القوميّ بأشواط طويلة.

إنّ التّجربة التُّركيّة في إنشاء الدّولة القوميّة – أي الجمهوريّة التُّركيّة – بموجب معاهدة لوزان؛ دفع كمال أتاتورك إلى إلغاء الموروث الثّقافيّ للشّعب التُّركيّ، واستبدالها بالقيم الثّقافيّة

الغربيّة، بدءاً من اللّباس، حيث فرض على سُكّان تركيا ارتداء القُبَّعة، إضافة إلى سَنِّهِ قوانين وتشريعات تتعارَض مع الثَّقافة الأصيلة لشعوب الأناضول، مثل فرضه عقوبة القتل على ارتكاب الزِّنا، وهذا القانون بحَدِّ ذاته زاد من مُعدَّلات البغاء والزِّنا في تركيّا. هذا فضلاً عن افتتاح المعاهد والأكاديميّات العلميَّة واللُّغويَّة الأجنبيَّة. لقد تمكَّنَ أتاتورك خلال سنوات معدودة من تحويل وجهة تركيّا، وإلحاقها بالغرب، وقطع إلى حَدٍّ كبير صلات الشَّعب التُّركيّ بشعوب منطقة الشَّرق الأوسط، وفرض عليها الثَّقافة الغربيّة بكُلِّ أشكالها وألوانها، فكرَّسَ لحالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة في تركيّا، لتغدو جزءاً من الغرب.

كما أنَّ الدّول العربيَّة أيضاً فرضت أنماطاً ثقافيّة هجينة ومشوَّهة، فهي لم تتمكَّن من تطوير ثقافة شعوبها وفق أصولها الحضاريّة، بل استوردت كُلّ ما هو غير وطنيّ، وحقنته في بنية الدّولة والمجتمع، فلا هي استطاعت أن تتمسَّكَ بجذورها الثَّقافيّة، ولا هي تمكَّنت من تقليد الثَّقافة الغربيّة، ورغم سَنِّها العديد من القوانين والتَّشريعات التي تَحُدُّ من التَّبعيَّة الثَّقافيّة للغرب، مثل منع إطلاق أسماء غربيَّة على المحال التِّجاريَّة والماركات وكذلك أسماء الأشخاص، وكذلك في مجال الفنون وضعت قوانين تمنع فيها التَّرويج للأغاني الأجنبيَّة، لكن تبيَّن أنَّها كانت مؤقّتة، وسرعان ما انتشرت كُلّ أنواع وألوان الثَّقافة الغربيّة بين مجتمعاتها وتسري فيها كما النّار في الهشيم، ولم تتمكَّن من الصمود أمام الغزو الثَّقافيّ الغربيّ، فعمقَّت من حالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة، لتنتشر في كُلّ مفاصل مجتمعاتها.

بالتَّأكيد إن حالة التَّبعيَّة السِّياسيّة والاقتصاديّة جُزُّها نحو تبعيَّة ثقافيّة واسعة، ولا يمكن البتَّة الفصل بينهما، وإن كان بالإمكان إنجاز التحرُّر السِّياسيّ عبر الثَّورات؛ فإنَّه يَصعُب التحرُّر من آثار الغزو والتَّبعيَّة الثَّقافيّة خلال أمد قصير، والتَّجربة الفرنسيَّة في دول المغرب العربيّ وخاصَّةً في الجزائر ماثلة للعيان، فلايزال معظم الشَّعب الجزائريّ يتحدَّث باللُّغة الفرنسيَّة ومرتبط ثقافيّاً مع فرنسا أكثر من ارتباطه بجذوره العربيَّة.

فَشِلَ الفكر القوميّ في بناء دولة وطنيَّة محصَّنة؛ وتَرَكَها في مرمى سهام الغزو الثَّقافيّ، دون أن يبادر إلى صياغة مشروع ثقافيّ وحضاريّ لشعوب المنطقة؛ بل ركَّزَ جُلَّ اهتمامه على حقن الشَّعب بالفكر القوميّ الذي جُهِّزَ في مطابخ الغرب. واعتمد على النَّظريَّة الأحاديَّة في تشكيل القوميّة ذات "العرق الواحد، اللُّغة الواحدة، الثَّقافة الواحدة، التُّراث الأوحد"، وحاول من خلالها صهر جميع الثَّقافات الأخرى في بوتقة ثقافته الأحاديَّة. انطلقت تجربة الفكر القوميّ في المنطقة منذ الرّبع الأوَّل من القرن الماضي واستمرَّت إلى يومنا هذا، ورغم ذلك فشلت حتّى في بناء ثقافة أُحاديَّة أيضاً، عداك عن عدم تمكّنها من بناء جسور التَّواصل مع الثَّقافات الأخرى والاستفادة من خبرات وتجارب شعوب تختلف عنها لغويّاً وثقافيّاً.

وصول أحزاب وحركات حاملة للفكر القوميّ للسُّلطة في بلدان عديدة من الشَّرق الأوسط، زاد من حالة الاغتراب فيها، فكما أنَّها لم تتمكَّن من بناء تنمية اقتصاديَّة مُستدامة في بلدانها، كذلك لم تطوّر حالة ثقافيّة متطوّرة تُلبّي حاجات مجتمعاتها في التَّعبير عن نفسها، وتحميها من الغزو الثَّقافيّ الخارجيّ، بل وقعت بسهولة في شباك التَّبعيَّة الثَّقافيّة، بشكل مباشر أو غير مباشر.

لعلَّ الدّيمقراطيّة هي أهمُّ سلاح بيد الشُّعوب لحماية ثقافاتها من الذَّوبان في الثَّقافات الأخرى، وبها فقط يمكنها أن تحافظ على هُويَّتها وخصوصيَّتها. فالدّيكتاتوريات في الشَّرق كرَّست لحالة التَّبعيَّة الثَّقافيّة، بعد أن عادت الهُويَّة الثَّقافيّة آخر ما يمكن أن تَهتَمَّ بها، حيث ما يُشغلها أكثر هو الحفاظ على سلطتها. كما أنَّها تخشى من الحالة الثَّقافيّة المنفتحة على نفسها وعلى الثَّقافات الأخرى، بل حدَّدت أطراً ضيِّقة لممارسة حتّى الثَّقافة الوطنيَّة، لتردِّدَ خطابها الثَّقافيّ الخاص بها، فأنتجت ثقافة مشوَّهة لأبعد الحدود، انحصر اهتمامها في

تبجيل الدّيكتاتوريّة والتّسبيح بحمدها. وهذا أوصل بشعوبها إلى حالة الهزيمة الثّقافيّة أمام نظام العولمة الرّاهن، لافتقادها للأدوات والوسائل المعرفيّة الخاصّةِ بها، إضافة لإغلاقها مساحات حُرّيّة الإبداع أمام شعوبها ومجتمعاتها، فتخلّفت عن الشُّعوب الأخرى، وكانت سهلة الاصطياد من قبل الآخرين، وبالتّالي قبول التّبعيّة الثّقافيّة لهم.

وحول واقع تبعيّة دول الشّرق للغرب، يقول المفكّر "سمير أمين": "إنّ الحقائق التّاريخيّة التي أظهرت عمق فشل السّياسات التّنمويّة التي اقترحتها نظريّات التّحديث، بسبب تجاهلها المستمرّ لواقع احتواء دول العالم الثّالث في النّظام الرّأسماليّ، هي التي بالتّالي مهّدت لانتشار نظريّات التّبعيّة".

وفي راهننا؛ وبعد اندلاع ثورات الرّبيع العربيّ؛ ازدادت حالة التّبعيّة الثّقافيّة والاغتراب عمقاً وتأثيراً، وأخذت أبعاداً أكثر خطورة، عبر تبنّي ثقافات وقيم شعوب أخرى، والادّعاء بأنّها هي قيمها الحقيقيّة، وأنّها عادت إلى أصولها، أي عودة الفرع إلى الجذر، مثلما حصل مع أطياف من المعارضة السُّوريّة التي ارتبطت بتركيّا، حيث شرعت "تدافع عن شرعيّة مفقودة بأدوات تفتقد إلى الشّرعيّة"، عبر ارتكابها عمليّات القتل والنّهب والاختطاف، فتحوّلت إلى عصابات ومرتزقة غايتها إعادة الشُّعوب سنين طويلة إلى الوراء، ولو على حساب دمائه.

من خلال دراسة تاريخ الصراعات؛ يمكن فهم أنّ التناقض بين ثقافة وأخرى غالباً ما يظهر بشكل فجٍّ، وأحياناً بوسائل عدوانيّة، وهو مستمرٌّ إلى يومنا هذا، و»يُعبّر عنه عن طريق الحروب والنّزاعات السّياسيّة والاقتصاديّة، وعدم قبول الآخر المختلف معه ثقافيّاً، بكلمة أخرى، فرض هيمنته الثّقافيّة على ثقافة مغايرة لها. لكن علّمتنا دروس التّاريخ بأنّه من المستحيل حلول ثقافة مكان ثقافة أخرى، بل جُلُّ ما يمكن أن يحصل هو ما تتقبّله الثّقافة، وأن تتحوّل إلى ثقافة هجينة، لا هي بالأصلية الهاضمة لعناصر من ثقافات الآخرين، ولا هي بالثّقافة المؤثّرة».

> **"فشِل الفكر القوميّ في بناء دولة وطنيّة محصّنة؛ وتركِها في مرمى سهام الغزو الثّقافي، دون أن يبادر إلى صياغة مشروع ثقافي وحضاري لشعوب المنطقة؛ بل ركّز جلّ اهتمامه على حقن الشّعب بالفكر القوميّ الذي جهّز في مطابخ الغرب. واعتمد على النّظريّة الأحاديّة في تشكيل القوميّة ذات العرق الواحد، اللغة الواحدة، الثّقافة الواحدة، التُّراث الأوحد".**

على الطرف الآخر؛ نشهد تعايشاً للثقافات في حقب تاريخيّة مختلفة ومتعدّدة، حيث تمكّنت الشُّعوب استناداً إليها أن تبني جسور التّواصل والتّلاقح بين بعضها البعض، مع احتفاظ كُلٍّ واحدة منها بخصوصيّتها، دون الحلول في ثقافة أخرى. ونلاحظ في الشّرق الأوسط طغيان الثّقافة الدّينيّة الإسلاميّة بشكل موسّع، حيث أنّها ترفض غيرها من الثّقافات الأخرى، إلى جانب رفضها العقائد والأديان الأخرى. ولقد تبنّى القوميّون العرب هذه النّظريّة أيضاً واتّخذوها أساساً لهم في بناء دولهم القوميّة، حيث رفضوا كُلّ ما هو غير عربيّ وفرضوا التّعريب على جميع القوميّات الأخرى، فيما استلهموا تجربة أتاتورك ونظريته في بناء الدّولة القوميّة التُّركيّة «الجمهوريّة التُّركيّة».

وفي مفهوم الغزو الثّقافيّ وتقديس الثّقافة الوطنيّة، يقول الدّكتور الفلسطينيّ "أحمد برقاوي" في دراسة له بعنوان "على العرب أن

يكفّوا عن تقديس الثَّقافة الوطنيّة" نشرت على موقع "العرب"، بأنَّه عندما نكتب عن الثَّقافة الوطنيّة، وكيلا نقع أسرى الوهم في أنَّ هناك مؤامرة عالميَّة تسعى للنَّيل من ثقافتنا، وكيلا نسقط فيما يُسمّيه البعض "الغزو الثَّقافيّ» الذي يؤدّي إلى التعصُّب، وتجاهل الملامح القانونيّة لسيرورة الثَّقافة والنَّظر إلى كُلِّ فكرة أو أيديولوجيا أو فلسفة أوروبيّة تمارس تأثيرها على أنَّه غزو ثقافيّ أوروبيّ – غربيّ، يستدعي التحصُّن خلف التُّراث الأصيل".

ويُسقِطُ "البرقاوي" عن الثَّقافة صفة «القُدسيَّة»، فهو يرى بأنَّه في حال تقديسها؛ فإنَّنا نُسقِطُ عنها صفتها «العالميّة». أو كجزء من الثَّقافة العالميّة واحتكاكها مع غيرها.

وسائل مكافحة التَّبعيَّة الثَّقافيَة:

إنَّ أهمَّ ما يتبادر إلى الأذهان عندما نتحدَّث عن التَّبعيَّة الثَّقافيّة وآثارها، هو طرق وأدوات مواجهتها، وبكلمة أخرى بناء ثقافة منيعة قادرة على سَدِّ المنافذ على الثَّقافات الأخرى من ممارسة التَّأثير السّلبيّ على الثَّقافة والهُويَّة الوطنيّة والثَّقافيّة. وفي هذ الصدد يقول الدّكتور العراقيّ «عبد الله إبراهيم» في دراسة له بعنوان «التَّبعيَّة الثَّقافيّة» على موقع «الرّاية»: «ما من موضوع شغل به المثقفون العرب في القرن الماضي كما شغلوا بموضوع التَّبعيَّة الثَّقافيّة، ومَرَدُّ ذلك تعثُّر مفهوم النَّهضة، وعدم تحقُّق أيّ من الوعود التي جاء بها، فبدل أن يتمكَّن العرب من اشتقاق نموذج حضاريّ حديث معبّر عن خصوصيَّتهم الثَّقافيّة؛ وقعوا في أَسرِ مُحاكاةِ النَّموذج الغربيّ للتقدّم، متوهّمين بأنَّه يمكن استعارة النَّماذج الثَّقافيّة الكبرى كما تُستعار المكتشفات العلميّة المجرَّدة، وانتهى الأمر بهم الى التَّبعيَّة التي تجعل المغلوب ممتثلاً للغالب».

إنَّ أهمَّ أداة يمكن بها تحصين الثَّقافة الوطنيّة، هو الوعي الوطنيّ، الذي يتشكَّل عبر مراحل طويلة من عمر الأمَّة – الشَّعب، والذي يُعَدُّ وعاءها وذاكرتها الجمعيَّة. فلا ثقافة ولا إنتاج

> **"العولمة فتحت الأبواب أمام الغزو الثّقافي وبالتّالي التّبعية الثّقافية، وعدّم قدرة الدّول الضّعيفة على مقاومتها. والعولمة عمليّة نشطة ومزدوجة من التوسّع العابر للحدود ومن التّرابط الاقتصادي، وهي أيديولوجيا وظيفتها ّ القضاء بلا رحمة على أية مقاومة تتصدّى لها، الى درجة لا يمكن إيقاف عجلتها. إنّها طاغوت غير ديمقراطيّ يبني نفسه من خلال الأنظمة الدّيمقراطيّة".**

ثقافيّ دون وعي لها، ومستوى الثَّقافة أيضاً يُحدّد الوعي واتّجاهاته. فكما أنَّ الوعيَ يُنتِجُ الثَّقافة، والعكس صحيح أيضاً، فالثَّقافة أيضاً تُنمّي الوعي بالهُويَّة وتعزِّز الارتباط بالقيم المجتمعيَّة، وبالتّالي بالثَّقافة المُنتِجَة له. والحقيقة الثّابتة أنَّ هزيمة الأمم والشُّعوب عبر التّاريخ، إنَّما تَتُمُّ بالدَّرجة الأولى ثقافيّاً وليس عسكريّاً واقتصاديّاً. فإن كان التّاريخ يذكر أنَّ المقاومة هي السَّبيل الوحيد أمام الشُّعوب والأمم في الحفاظ على وجودها أمام الغزوات والحملات العسكريَّة؛ فإنَّ الثَّقافة لعبت دوراً أساسيّاً في ولادة تلك المقاومة، فثقافة الوعي أو المنتجة له تفتح الطريق أمام الشُّعوب لتحصِّن نفسها وتحمي قيمها الثَّقافيّة والاجتماعيّة، ولا تنقاد بسهولة وراء التَّبعيَّة الثَّقافيّة. ويَجدُر بنا أن نذكر مثالاً على دور الثَّقافة والوعي في تحرر الشُّعوب من الاحتلال، ما ذكره البروفيسور التُّركيّ المعروف «إسماعيل بيشكجي» في كتابه «كردستان مُستَعمَرَةٌ دوليَّة»، عندما ذكر بأنَّ مؤسِّس الجمهوريَّة التُّركيّة مصطفى كمال أتاتورك، وغداةَ تأسيس جمهوريَّته، عقد ندوة

لطلّاب وأساتذة الجامعات، وخلال النّدوة، طرح السؤال التّالي على الحضور: ما السّبب الرّئيسي لانسحابنا من دول البلقان؟ فلم يجبه أحد، فردَّ على سؤاله بالقول: لقد عملت شعوب البلقان، وبالأخصّ الإغريق (اليونانيّين) على البحث في تاريخهم، وافتتحوا مراكز أبحاث ودراسات، ونشروا نتاجاتهم لشعبهم، وهذا شكّلَ لديهم وعياً حضاريّاً متطوّراً أكثر من وعينا نحن «العثمانيّين». فلقد هُزِمنا حضاريّاً وثقافيّاً قبل أن ننهَزِمَ عسكريّاً.

وحسب الدّكتور «عبد الله إبراهيم» فإنَّ مناصري التَّبعيَّة الثَّقافيّة للغرب يرون أنَّها تأتي في سياق التَّطور الكونيّ الشامل والعولمة، ولا مناص من التَّأثير الثَّقافيّ المتبادل بين جميع الأمم والذي يتعثَّر بالخصوصيّات الثَّقافيّة. فيما يرى خصومها أنَّها ألغت الخصوصيَّة الثَّقافيّة لشعوب الشَّرق الأوسط وتراثها اللا ماديّ، وحالت دون تطوير نموذج خاص بها. وبين هذا التيّارين المتنازِعين، لم تتولَّد أيُّ إرادة للتغيير الحقيقيّ أو مشروع ثقافيّ بديل يتلاءم مع الخصوصيَّة الثَّقافيّة لشعوب الشَّرق الأوسط بشكل عام.

إنَّ أهمَّ مظاهر التَّبعيَّة الثَّقافيّة هي «روح الامتثال للغير»، ويرى عدد من الباحثين أنَّها تجلَّت أكثر مع العولمة، حيث تبرّر مواقفها بأنَّ «الاندماج مع العالم يَتَمُّ عبر اندماج كُلّي معه، وفي جميع المجالات. وهذا ما دفع إلى صَحوة الثَّقافات الطرفيَّة الفرعيَّة، وتفكّر بالانفصال عن المركز ومعارضته في كُلّ شيء، وهذا ما انعكس حتّى في السِّياسة والاقتصاد تحت شعار «تحقيق الاستقلال السِّياسيّ والاقتصاديّ الناجز». بل التَّبعيَّة الثَّقافيّة أُتبعت بتبعيَّة سياسيّة واقتصاديَّة من قبل النُّخب الثَّقافيّة والسِّياسيّة التي وصلت إلى السُّلطة في بلدان الشَّرق الأوسط، وعبر أدوات غربية على الأغلب».

غير أنَّ البعض الآخر يرى أنَّ أنساقاً ثقافيّة مُتعدِّدة ظهرت في سياق «التحوّلات العميقة في الغرب، وجميعها توحَّدت حول فكرة كونيَّةِ قِيَمها الثَّقافيّة وأبديّتِها، وكرَّستها في الواقع السِّياسيّ والاقتصاديّ». فيما تذهب بعض النُّخب في آرائها إلى أبعد من ذلك؛ حيث تجد أنَّ «التيّارات الدّينيّة والقوميّة التي ولدت في الغرب، خدمت بشكل مباشر أو غير مباشر فكرة الاستعمار الجديد بعد دخول أوروبا عصر النَّهضة والتَّنوير، على شكل المبشِّرين بالمسيحيَّة والمستكشفين»، وأنَّه تَمَّ «نقل الثَّقافة الغربيّة وحقنها ضمن مسامات المجتمعات الشَّرقية عن طريق البعثات الدّينيّة والدّراسية في الغرب أيضاً، وتبيَّن بشكل واضح لا لُبسَ فيه عدم كونيَّة القيم الثَّقافيّة الغربيّة بأيّ شكل من الأشكال، بل يمكن اعتبارها أنَّها جزء من القيم الإنسانيّة».

ويوضح المفكّر الأمريكيّ «إدوارد هيرمان» أهداف العولمة التي فتحت الأبواب أمام الغزو الثَّقافيّ وبالتّالي التَّبعيَّة الثَّقافيّة، وعدم قدرة الدّول الضعيفة على مقاومتها بالقول «إنَّ العولمة عمليّة نشطة ومزدوجة من التوسُّع العابر للحدود ومن التَّرابط الاقتصاديّ، وهي أيديولوجيا وظيفتها القضاء بلا رحمة على أيَّة مقاومة تتصدّى لها، الى درجة لا يمكن إيقاف عجلتها. إنَّها طاغوت غير ديمقراطيّ يبني نفسه من خلال الأنظمة الدّيمقراطيّة».

يتوهَّمُ البعض بأنَّ التكنولوجيا الحديثة، وخاصَّةً الإنترنت، سيزيد من أواصر التَّواصل الحضاريّ بين شعوب الأرض، إلا أنَّ الدّول المتحكّمة بوسائل الإنترنت تسيّرها وفق مصالحها، ويقول أحد المفكّرين إنَّها «استخدمتها أسلوباً في الغزو الثَّقافيّ والسَّيطرة على العقول والأدمغة وسرقتها، أو جعل مجتمعاتنا نمطيّة تُفكّرُ كما تُفكّرُ المجتمعات الغربيّة وتقلّدها، بدءاً من المأكل والمشرب ولتتحوَّل إلى مجتمعات استهلاكيَّة، وأثّرت عليها حتّى في طريقة التَّفكير بالقضايا المصيريّة التي تُهدِّد وجوده وتنسفه بالمطلق، وخاصَّة قضيَّة الهوية الثَّقافيّة المتميَّزة، وساهمت في تفكيك مجتمعاتنا وانقسامها على نفسها، وعدم تمكّنها من صياغة مشروع حضاريّ نهضويّ قادر على تبديد المؤثّرات الثَّقافيّة

الغربيّة».

لا شَكَّ أنَّ حماية الثَّقافة الوطنيّة ومعها الهُويَّة الوطنيّة، يستدعي تسخير كُلّ الإمكانات الماديَّة والوطنيّة، ووضعها في خدمة تعزيز الثَّقافة الوطنيّة. وهي لا تَتُمُّ عبر حرق المراحل، أو أنَّها قضيَّة رغبويَّة، بل هي حاجة موضوعيَّة، كما أنَّ وجود شعب ما من عدمه مرتبط إلى حَدٍّ كبير بحمايته لموروثه الثَّقافيّ الذي يُبلور هُويَّته الاجتماعيّة والإنسانيّة، وهي تأتي عبر عمليّة تراكم طويلة، لكنَّها بالتَّأكيد قادرة على قطع الطريق على التَّبعيَّة الثَّقافيّة التي تستتبعها التَّبعيَّة السِّياسيّة والاقتصاديّة. إنَّ الأمر يتطلَّب إعداد أجيال واعية تُدين بالولاء لوطنها وتحمل في ذاكرتها موروثها الثَّقافيّ وتغنيه.

إنَّ الخطوة الأولى في القضاء على التَّبعيَّة الثَّقافيّة تبدأ من خلال إنشاء المعاهد التَّعليميّة والمدارس والجامعات، والتُّركيز على تعليم النشء الجديد جميع العلوم والمعارف، وبلغته الأم، على أن تراعى فيها اتّخاذ الجانب الأخلاقيّ كأساس في إعداد الأجيال. كما أنَّ تقديم البدائل الفكريَّة يُعَدُّ شرطاً أساسيّاً في أيّ عمليّة تنمية ثقافيّة، وهي متعلّقة ببناء مراكز ومؤسَّسات ثقافيّة قادرة على تنمية الوعي المجتمعيّ المبَني على الفكر الوطنيّ والمتمسّك بثقافته الوطنيّة. كما أنَّه يحتاج للتَّركيز على المناهج الدِّراسيّة، وإعداد سياسة تعليميّة صحيحة ومتناسبة مع ثقافتنا ولا يتناقض في ذات الوقت مع العلوم التَّجريبيّة المختلفة. فبناء الكوادر الثَّقافيّة والتَّعليميّة والأكاديميّة؛ يساهم في قطع دابر التَّبعيَّة الثَّقافيّة والسِّياسيّة والاقتصاديّة. صحيح نحن بحاجة إلى الكثير من العلوم الإنسانيّة مثل دراسة التّاريخ والجغرافيا والفلسفة وكُلّ العلوم الحديثة الأخرى، لكنَّنا أحوج إلى دراستها وتدريسها بأساليب تتوافق مع مرجعيّتنا الثَّقافيّة والمجتمعيّة، ووفق أصول ومنطق شعوبنا وخلفيّاتها الثَّقافيّة والحضاريّة.

وباعتبار أنَّ الفن جزء من الثَّقافة، وله تأثير كبير في صياغة عقول وأذواق النّاس وتوجيههم؛ فإنَّ الاهتمام به يُعَدُّ من أولويّات البناء الثَّقافيّ المنيع. لقد استطاع الغرب من خلال مؤسَّساته الإعلاميَّة والثَّقافيّة والفنيَّة، وخاصَّةً مؤسَّسات السينما، غزو بلادنا والتَّرويج لثقافته وأفكاره عبر الأفلام السّينمائيّة والمسلسلات التي تحاكي ثقافته وحضارته، لتقع أجيال بكاملها تحت تأثيرها. وتسيطر مؤسَّسة "هوليوود" الأمريكيَّة على صناعة الأفلام وإنتاجها، وهي أكبر واجهة تستخدمها الولايات المتّحدة في التَّسويق ثقافتها، كما أنَّها عبرها تمارس التَّهديد والوعيد لعدد من البلاد، وكم من شخص وقع تأثير أحد تلك الأفلام، وظَلَّ يُروّج له في محيطه، وكأنَّه اكتشف فيه شيئاً جديداً. بينما يجب أن نتوجَّه بخطابنا الفنيّ إلى شعبنا عبر استخدام أدوات ثقافيّة تجمع ما بين الأصالة والتَّحديث، وتحمل معها كُلّ عناصر التَّشويق والمتابعة، وبهذا تُسَدُّ كُلّ المنافذ أمام متابعة مجتمعاتنا للفنون الأخرى التي تَروِّجُ لثقافتها فقط. هذا لا يعني البتَّة أن نقطع كُلّ الوشائج مع الغير، بل أن نُقيمَ توازناً بين ما هو وطنيّ وما هو أجنبيّ، وألا يكون الثّاني طاغياً على حساب الأوَّل، بل أن يكون الأساس هو المحلّيّ والوطنيّ.

غير أنَّ آخرين يعتبرون أنَّ التحرُّر من التَّبعيَّة الثَّقافيّة يبدأ من بوّابة التحرُّر الاقتصاديّ بالدَّرجة الأولى، لأنَّها توفِّر الأسس الماديَّة لبناء منظومة ثقافيّة قادرة على حماية الموروث الثَّقافيّ وإنتاج حالة ثقافيّة واجتماعيّة متطوّرة، وتطوير مؤسَّسات بحثيَّة وإبداعيَّة قادرة على مواجهة الغزو الثَّقافيّ الذي تتعرَّض له بلادنا.

إنَّ بناء الاقتصاد المتين الإنتاجيّ، يَمُرُّ عبر إطلاق الحُرّيّات السِّياسيّة وفتح الطريق أمام تطوير النُّظم وقواعد الإنتاج، دون التقوقع ضمن بنى اقتصاديّة قديمة ومتهالكة، وهذا يفترض الوصول إلى حالة سياسيّة ديمقراطيَّة، تتجاوز التابوهات المرسومة، والتي تَحُدُّ قدرة الفرد على الإبداع والتَّطوير، ما تشكِّلُ سدّاً منيعاً أمام أيّ غزو ثقافيّ لبلادنا.

للتحرّر من التَّبعيَّة الثَّقافيّة يتطلّب أوّلاً بناء حضارة علميّة، ويحدّد "عطيّة عاطف» الإطار العام له من خلال: «صنع الذّهنيَّة العلميَّة المعرفيَّة، ونشرها في قطّاعات المجتمع كافَّة، ليصير العلم والذّهنيَّة العلميَّة والمعرفيَّة من سمات المجتمع ومن أوصافه، ومن مواصفات الفئات المجتمعيّة . وإن كانت بدرجات متفاوتة".

خاتمة:

إنَّ قضيَّة التَّبعيَّة الثَّقافيّة غدت في عصرنا الحديث، قضيَّة متشعّبة ومعقَّدة تواجهها شعوب منطقة الشَّرق الأوسط، في ظِلّ سيادة ثقافة الهيمنة الثَّقافيّة عبر الأثير، وغدا من الصعوبة بمكان إبداء أيّ نوع من المقاومة الثَّقافيّة بالأدوات والأساليب السّابقة، بل يجب على الشُّعوب التي أصبحت ترزح تحت تأثير الكمّ الهائل من المعلومات والثَّقافات المتناقلة بسرعات خياليّة، أن تطوِّرَ خياراتها وطرائق دفاعها عن هُويّاتها الثَّقافيّة، ولا تَركُن إلى الأساليب البدائيَّة، وتنبري لمحاربة كُلّ أنواع الغزو الثَّقافيّ، عبر تطوير بنى ومؤسَّسات ثقافيّة إبداعيَّة، قادرة على خلق بدائل متطوّرة، غير مستَلَبة الإرادة، أو خاضعة لسلطات الرَّقيب والحسيب، عليها بالدَّرجة الأولى الانطلاق من المحلّيّ نحو العالميّ، بأن تُحَرِّرَ نفسها من القيود التي تُكبّلها، وترسم سياقات إستراتيجيَّة لها، تُشكِّلُ في النِّهاية قوَّةً ثقافيّة لها حضورها في السّاحة الثَّقافيّة العالميّة أيضاً.

المراجع:

1 – الدّكتور "عبد الله الجسمي" مقالة له في موقع "رؤية" بعنوان "التَّبعيَّة الثَّقافيَّة".

2 – دراسة للدّكتور "عبد الله جمعة الحاج" في موقع "مركز الاتّحاد للأخبار" بعنوان "التَّبعيَّة الثَّقافيَّة والمستقبل".

3 – كتاب "صدام الحضارات وإعادة تشكيل النِّظام العالميّ الجديد" للكاتب الأمريكي "صموئيل هنتنغتون".

4 – كتاب "نهاية التاريخ والإنسان" للكاتب الأمريكيّ "ميشيل فوكوياما".

5 – دراسة للمفكّر "عطيّة عاطف" بعنوان "الثَّقافة العربيَّة بين الأصالة والتَّبعيَّة" نشر في موقع "سعادة للثَّقافة".

6 – الدّكتور "مُحمَّد عابد الجابري" وكتابه "نقد العقل العربيّ".

7 – دراسة لأستاذ الفلسفة "لطفي زكريّا" بعنوان "جدل الانغلاق في العلاقات البينثقافيّة" نشرت في موقع "الإصلاح".

8 – دراسة الدّكتور الفلسطينيّ "أحمد برقاوي" بعنوان "على العرب أن يكفّوا عن تقديس الثَّقافة الوطنيّة" نشرت على موقع "العرب".

9 – دراسة الدّكتور العراقيّ "عبد الله إبراهيم" بعنوان "التَّبعيَّة الثَّقافيّة" نشرت على موقع "الرّاية".

10 – كتاب "كردستان مُستَعمَرَةٌ دوليَّة" للبروفيسور التُّركيّ المعروف "إسماعيل بيشكجي".

11 – المفكّر الأمريكيّ "إدوارد هيرمان" وحديثه عن أهداف العولمة.

الهجرات السكانية إلى «الرقة» بعد الغزو المغولي

محمد عبد الله العزو

في عام /1259/ علم أهل «الرقة» أن القوات المغولية تتجه إلى «الرقة» قادمة من «بغداد»، فدبّ الذعر بين السكان، وفي اليوم الثاني كانت «الرقة» خالية من السكان إذ هجرها أهلها وهاجروا إلى مدن غرب «سوريا»، والسؤال هل حقيقةً أنَّ «الرقة» بعد غزو المغول لها، وتدميرهم ثقافتها الحضارية وبنيتها الداخلية، بقيت قروناً طويلة أرضاً خراباً، سكنتها الغربان، وعافها البشر؟ وهل صحيح أنها لم تكن حتى الماضي القريب مأهولة بالسكان؟ سؤالان أثارا الكثير من الجدل بين أوساط الباحثين في تاريخ «الرقة».

في حدود عام /١٣٢١/ م الموافق /٧٣١ /هـ. زار أبو الفداء «الرقة»، وقد ذكرها في تقويمه حيث يقول: «الرقة في زماننا مدينة خراب ليس فيها أنيس»، وبعد أكثر من قرنين وربع من زيارة «أبي الفداء» لمدينة «الرقة» لم نعرف عن أخبارها شيئاً يذكر، حتى جاء عام /١٥٧٤/م حين زارها الطبيب «ليونهارت وولف»، حيث يَذكرُ في تقرير له وصفاً لقصر في المدينة و/١٢٠٠/ جندي من جنود السلطان التركي وباحتمال كبير أنه «قصر البنات»، وكانت المباني والأسوار بحالة يرثى لها، يبدو أنَّه بعد التدمير الذي لحق بالمدينة إثر الغزو المغولي لها, قد بُنيت بعض مبانيها، وأنه حدث استيطان جديد ربما وقع مع إنشاء المراكز التركية، وكنقطة ومحطة هامة لطرق الاتصال بين «سوريا» و»العراق» ولم تكن حينها ذات أهمية تذكر، وحسب رأي الرحالة «ليونهارت» فإنَّ التجار فضّلوا أن يستعملوا الطرق التجارية ذات المسار الشمالي، المارة بالبيرة «براجيك» حيث تجتاز الفرات وتتابع طريقها إلى /أورفا/ (أديسا).

وفي عام/١٦٥٠/م قام الرحالة التركي «أولياء جلبي» بزيارة إلى «الرقة»، وقد أكد في كتابه «سياحة ناما» أنَّ «الرقة» كان فيها سكان ثابتون، ويذكر أيضاً أنَّ «التركمان» قد دمروا المدينة وعلى أثرها أصبحت «الرقة» تابعة لأورفا (أديسا)، وحسب النظرية الشعاعية التي يقول بها علماء الآثار والتاريخ، فإنَّ «الرقة» كانت مكاناً للّقاء الشتوي للعرب والتركمان، بينما هي في شهر تموز خالية على الإطلاق من السكان، وكانت «الرقة» في تلك الفترة وحتى في الفترات اللاحقة مكاناً قصياً, لذلك نجد أنَّ الرحالة الأوربيين المتأخرين، الذين كانوا يأتون عبر «براجيك» و»أورفا» والمنطقة، لم يذكروا «الرقة» رغم وجودها، ومن جهة أخرى نجد أنَّ بعض الرحالة الذين زاروا المنطقة في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، قد رسموا «الرقة» على خرائطهم، مثل الرحالة «ريتشارد بوكوك» و»ج.م كينابر»، وهذا يعني أنَّ المدينة مازالت حية رغم خلوّها من السكان. إنَّ الانقلاب الجديد في حياة مدينة «الرقة» قد حدث في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، حيث بدأ الاستيطان الجديد لجمل وادي الفرات والجزيرة السورية «الجزيرة الفراتية»، إذ كانت البداية متواضعة ومع مرور الزمن تكونت مجموعة من المدن من بينها «الرقة» إنّ هذه القبائل تعود في أصلها ونسبها إلى الأرومة العربية الأصيلة, وأن كل القبائل العربية منذ الألف الثالث ق.م، هي في حالة حركة دائرية مستمرة, بعضها تحضَّر واستقر في القرى وفي الحواضر, وبعضها الآخر استمر في حركته الدورانية. إن تدوين تاريخ أي قبيلة أو أي عشيرة أو أي مكوّن آخر، يتطلب منا امتلاك وثيقة علمية، نعتمد عليها في صحة ما نقوله, لذلك فالحديث عن قدوم الهجرة السكانية الأولى إلى أرض "الرقة" القادمة من "العراق" مثل قبيلة "الأبي شعبان" والقبائل الأخرى مثل قبيلة "البو جابر"، وقبيلة "المعامرة"، والعشائر الدليمية، وغيرها إلى "سوريا" بشكل عام و"الرقة" بشكل خاص، يتطلب أن يكون بين أيدينا مثل هذه الوثائق، ورغم كل الصعوبات التي تصادفنا, فإننا نستطيع إلقاء الضوء على مثل هذه الهجرات, ولكن بحذرٍ شديد، وخلافاً لكل ما قيل حول هجرة هذه القبائل, ومن أنها هاجرت إلى أرض "الرافدين" في نهاية القرن الثاني الهجري, فإننا نقول, مع المعذرة الشديدة: إنّ قبائل "الأبي شعبان" والقبائل والعشائر الأخرى كانت متواجدة في أرض "العراق" و"سوريا" منذ أكثر من ألف سنة أو أكثر، قبل القرن الثاني الهجري. أما الهجرة الثانية فقد حدثت في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، عندما قدمت موجة كبيرة من قبائل "عنزة" (الفدعان) من الجزيرة العربية، هرباً من الجدب والقحط، الذي حلَّ بأرض "نجد" و"الحجاز"، وقد استقرت هذه القبائل على النحو التالي: "ضنا الوِلِدْ" إلى الغرب من نهر البليخ, بين "مسكنة" وتل "أبي هريرة" ومخفر "الحمام"، في حين أنَّ "ضنا ماجد" استقروا في الشرقي، أي شرقي نهر البليخ, وكانوا في الشتاء يعبرون نهر الفرات إلى الجهة الشامية "النجعة", علماً أن قبيلة عنزة كانت متواجدة في شمال "سوريا"

منذ القرن الرابع قبل الميلاد. أما الهجرة الثالثة إلى مدينة "الرقة" فكانت في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي, أي بعد عام /١٨٥٠/م. وكانت أوائل المجموعات المهاجرة, عبارة عن مجموعة من الأفراد وليست على شكل عشائر, استقرت حول المخفر التركي الذي أقيم في حدود عام /١٨٦٠/م لمراقبة عبور النهر وحفظ الأمن في المنطقة. وهكذا نجد أنَّ تأسيس المخفر قد لعب دوراً أساسياً في جذب المهاجرين وتثبيت المسكن في "الرقة", وأنَّ أغلب المهاجرين الجدد قدموا من "أورفا" و"الموصل" و"العشارة" و"ديار بكر" الذين شكلوا النواة الأولى للمدينة الناشئة أي أغلب هؤلاء هم من سكان الحدود. الرحالة "الليدي آن بلنت" مرت بالرقة عام /١٨٧٨/م وأكدت في كتابها "قبائل بدو الفرات" ترجمة "أسعد الفارس" أنها لم ترَ سكاناً داخل الأسوار الأثرية وربما هي محقّة في ذلك كونها مرت في المدينة أثناء فترة الصيف. والسكان في هذه الفترة هم خارج المدينة بعضهم يمارسون زراعة الخضار على ضفة الفرات اليسرى بعد انحسار ماء النهر نحو الجنوب. وكانوا يسكنون في بيوت مبنية من القصب والزلّ ونبات السوس تسمى "سيباط" أو "عريشة", والبعض الآخر من السكان يكونون قد رحلوا مع ماشيتهم إلى مناطق الشمال أو الجنوب. وراء مساقط الغيث والكلأ وفي نهاية فصل الصيف يعودون إلى المدينة.

الرحالة "زاخاو" زار "الرقة" عام /١٨٧٩/م حيث أشار في كتابه (رحلة إلى سوريا وبلاد الرافدين) أنه كان هناك مجموعة من السكان يقطنون في دور سكنية مشيّدة من مادة اللبن في الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة القديمة. وأن عددهم يقارب مئة شخص ويقول: "أعتقد أنَّ التجار هاجروا إليها من مدينة "حلب". أما انطباع عالم الآثار "أرنست هرتسفلد" الذي زار "الرقة" في عام /١٩٠٧/م فقد أكد بأنها (مدينة حديثة جداً). وأنها كانت تضم مركز بريد وبرق, وأن سكان المدينة كانوا يعيشون من التجارة مع العرب المحيطين بالمدينة من صناعة قصب السكر ومن حفريات اللقى الأثرية. وبعد خمس سنوات من زيارة "هرتسفيلد" للرقة. وفي شهر أيار من عام /١٩١٢/م قدم إلى "الرقة" الرحالة التشيكي "لويس موزيل". وقد أكد أنه وجد فيها سكاناً عددهم /٣٠٠/عائلة, ولكن هذا الرقم قد يكون نتيجة لتقديرات غير مؤكدة والسبب في ذلك عدم وجود استقرار سكاني في المدينة في تلك الفترة الزمنية ليشكل مساحة أفقية واسعة, والمهاجرون الجدد عبارة عن مجموعة من الأفراد وليس عائلات وليست على شكل عشائر, استقرت حول المخفر التركي الذي أقيم في حدود عام /١٨٦٠/م لمراقبة عبور النهر وحفظ الأمن في المنطقة. وأطلق عليهم فيما بعد العشائر القولية نسبة للمخفر العثماني القراقول, ولم نسمع بهذه التسمية داخل الدولة العثمانية على الإطلاق. كما أن الوثائق العثمانية لم تشر إلى هذه التسمية. إلا أن الآثاري "أبو فرج العش" أشار إلى العشائر "القولية" في "الرقة" عام/١٩١٧/م وقال عنهم أنهم من سكان الحدود. مرة ثانية نجد أنَّ تأسيس المخفر قد لعب دوراً أساسياً في استقرار السكان الأوائل الذين شكلوا النواة الأولى للمدينة الناشئة. وبعد عام/١٩١٥ م هاجرت مجموعات جديدة إلى الرقة منها عشائر عربية مختلفة ومكوّنات غير عربية مثل الهجرة الكردية إلى الرقة. والهجرات الأرمنية. والسريانية. والأرمنية والشركسية. والشيشانية, وجميعها وضعت لِبنات جديدة في بناء مدينة الرقة الناشئة.

الجانب الخفي للأزمة السورية ومصير أنظمة المنطقة

لقمان أحمي

مقدمة:

يعاني العالم ومنذ سقوط الاتحاد السوفياتي، مخاض إنشاء نظام عالمي جديد بقطب واحد، بنظام بين الفيدرالي والكونفدرالي، والدمج بينهما، حيث أنّه عندما لا يفي النظام الكونفدرالي بالغرض يتم اللجوء إلى النظام الفدرالي وهكذا حسب الحاجة، حيث ستكون هناك حكومة في المركز تدير شؤون العالم، مع وجود حكومات مهيمنة في كل إقليم، ولأجل ذلك يتطلب حل جميع القضايا التي يعاني منها العالم، فالحكومة الواحدة تتطلب الاستقرار وليس المشاكل مثلما في عالم القطبين أو متعدد الاقطاب، حيث يميل نظام كل دولة إلى القطب الايديولوجي الموافق له أو الذي يحقق بقاءه دون الأخذ بعين الاعتبار حل القضايا من عدمها، وبذلك كانت تتحقق التحالفات، ويبقى الرؤساء في حكم الدول إلى ما شاء.

في هذا النظام الجديد، يجب حلّ جميع القضايا حاجة الاستقرار العالمي، ولا تستطيع أي حكومة الاستقواء بأي طرف آخر لعدم وجوده، وبذلك يضطر للالتزام بالنظام الجديد ومتطلباته، من حيث الديمقراطية وحقوق الانسان، وحقوق الأقليات.

وحيث لا يوجد مشروع ديمقراطي ويضمن حقوق المكونات لدى من يتبنون مشروع تعدد الأقطاب. ضمن هذه السياسة تنطلق القوة المهيمنة عالميا، اي أمريكا، لتنفيذ هذا الأمر.

ـ الثورات في شمال أفريقيا والشرق الأوسط:

بدأت الثورات في المنطقة للإطاحة بالأنظمة العسكرية الديكتاتورية, وحلول البديل الديمقراطي، حيث كانت أوروبا الشرقية قد نالت نصيبها من الثورات الديمقراطية وتحوّلت في تسعينيات القرن العشرين إلى التخلّي عن الاشتراكية.

بدأت الثورات في تونس ومصر وليبيا وسوريا واليمن، وقد فطنت الأنظمة إلى مشروع التغيير في المنطقة، فأعدت خطة بديلة، حيث قامت بالإفراج عن جميع قيادات المجموعات المصنفة إرهابية من سجونها، وأبقت على القيادات الديمقراطية ونكّلت بهم. ومن ثم فتحت جميع السبل أمام المجموعات الإرهابية لتسيّد الموقف، وقيادة الحراك الثوري، وكانت لها ما أرادت حيث تم استيلاء هذه المجموعات الإسلاموية على الحكم في تونس ومصر وليبيا، وبذلك تمكّنت الأنظمة الديكتاتورية من إقناع الرأي العام أن بديلهم يعني الإرهاب وبذلك استطاعت تشويه الثورات من خلال البقاء أو الرجوع للحكم مرة أخرى، عبر معادلة إمّا الديكتاتوريات أو الإرهابيين في الحكم. وتشتّتْ الجهود وخلطت الأوراق.

وأرادت تركيا أردوغان وإمارة قطر، قيادة قطب إسلاموي وتأسيس قطب منافس والخروج عن دورها الوظيفي وذلك بمساعدة الروس ولكن تمنع منعها من ذلك مؤخراً.

ـ الصراع في سوريا:

لم يختلف الوضع في سوريا وطريقة تعامل السلطات مع الحراك الثوري، حيث أفرجت عن الإرهابيين المعتقلين لديها، وقامت باعتقال وملاحقة القيادات الديمقراطية والتضييق عليها، واستطاعت عبر هذه السياسة إبراز الوجه الذي تريد إلصاقه بالحراك الثوري، حتى أنّها تغاضت عن توسع داعش في سوريا، ولم تقدّم أيّ مساعدة لوحدات حماية الشعب أثناء مقاومة كوباني.

كان التدخل الروسي بقصد منع تكون طريق أو خط بديل للغاز الروسي الذي يغذي أوروبا، وبالمقابل تدخّلت تركيا كطرف مباشر في سوريا بهدف السيطرة عليها، وبتمويل قطري، وبذلك دعمت المجموعات الإرهابية بما فيها داعش.

كما تدخّلت إيران لدعم النظام ومنعه من الانهيار، حيث العلاقات بينهما هي علاقات تكافل وتضامن.

استطاعت القوى والأحزاب الكردية منذ بداية الحراك الثوري من تنظيم نفسها، وتأسيس قوات عسكرية بالمشاركة مع العرب والسريان لحماية روجآفا، كما تمكّنت من تأسيس إدارات ذاتية ديمقراطية، تدير مناطقها، وأصبحت قوة لا يمكن تجاوزها.

ومع توجيه تركيا لتنظيم داعش الإرهابي نحو المناطق الكردية، واحتلال معظمها ومحاصرة كوباني، ومع عدم تلقّي القوات الكردية الدعم من أي جهة تساعدها في الحرب ضد داعش، وإثباتها نفسها كقوّة حلّ وكطرف في المعادلة، تدخّلَ التحالف الدولي لمحاربة الإرهاب بمساندة قوات حماية الشعب الكردية، وبذلك اكتملت حلقة التدخلات في سوريا، ومع كلّ هذه التواجدات لم يسقط نظام البعث في سوريا.

ـ الحرب على أوكرانيا:

كانت أوروبا بأكملها تعارض سياسة أمريكا تجاه

روسيا، ولم تكن تُلقي بالاً لها، حيث أنّ المشروع الأمريكي هو قيادة العالم بقطب واحد، وهذا ما كانت لا تحبّذه القوى الأوروبية وخاصة ألمانيا وفرنسا، حتى أنّ الرئيس الفرنسي قد نعى حلف الناتو في إحدى خطاباته، وبذلك أدركت أمريكا خطورة الوضع فتحركت بسرعة، ولذلك خرجت بريطانيا من الاتحاد الأوروبي تحضيراً للمرحلة المقبلة، ولكي تستطيع التصرف بحرية توافقاً مع السياسة الأمريكية.

فقد كانت العلاقات الأوروبية الروسية مميّزة، وميزان التبادل التجاري كان يرتفع باضطراد.

ولكن روسيا بوتين وقعت في خطأ قاتل؛ ألا وهو الهجوم على أوكرانيا، وبذلك سيطر الرعب على أوروبا كلّها خوفاً من السيطرة العسكرية الروسية، وتم تفعيل حلف الناتو الميت سريريا، وأصبح الملجأ الوحيد ضدّ التهديد الروسي، فتداعت أوروبا بداية لخلق البديل عن الغاز الروسي واستطاعت تحقيق ذلك وإن كانت بأسعار أعلى حيث المعادلة كانت إمّا الخضوع للهيمنة الروسية أو البديل؛ الغاز الغالي، فاختارت الثاني، وأصبحت أوروبا تقبل سياسية القطب الواحد والحكومة العالمية. فالذي أرادت موسكو من تدخلها في سوريا لعدم خلق البديل لغازها، قد حققته الحرب الروسية على أوكرانيا.

ولأجل حلّ هذه القضايا، كانت الحرب في سوريا، والحرب الروسية على أوكرانيا هي لمنع هذه السياسة من التطبيق، ولكنّ الحربين دخلت في الخطّة وخدمتها إلى أبعد الحدود.

والآن روسيا في حرب استنزاف والغرب كله متّحد خلف أوكرانيا وما ينتظر روسيا الآن هو خسارة الحرب والتفتت، حيث بداخلها اكثر من أربعين قومية يتوقون للحرية، وستصبح روسيا في أحسن الأحوال دولة كونفدرالية هشّة، وتدخل في النظام الجديد.

ـ إيران:

"في هذا النظام الجديد، يجب حل جميع القضايا حاجة الاستقرار العالمي، ولا تستطيع أي حكومة الاستقواء بأي طرف آخر لعدم وجوده، وبذلك يضطر للالتزام بالنظام الجديد ومتطلباته، من حيث الديمقراطية وحقوق الانسان، وحقوق الأقليات. وحيث لا يوجد مشروع ديمقراطي ويضمن حقوق المكونات لدى من يتبنون مشروع تعدد الأقطاب. فضمن هذه السياسة تنطلق القوة المهيمنة عالمياً؛ أي أمريكا، لتنفيذ هذا الأمر"

التي دفعت بكلّ ميليشياتها لمنطقة الحرب، كانت لمنع هذا النظام من التشكّل، وهي رافضة أيضا للنظام العالمي السابق، ولكن بدأت الجبهة تتّسع أمامها، وما لم يكن ممكناً قبل الحرب السورية، قد حدث فاتفقت الدول الخليجية، حيث أنّ السعودية على بعد أشهر لتوقيع اتفاق مع إسرائيل، إضافة إلى الدول الموقعة سابقاً للاتفاقات مع اسرائيل إلى جبهة واحدة، وأصبح الطوق يغلق على إيران من الغرب، ومن الشمال أذربيجان وتركيا، ومن الشرق طالبان، وأصبحت إيران في عين العاصفة.

الآن هناك أمام إيران مساران إمّا الخضوع لنظام عالمي ذات قطب واحد، أي أن يتم احتواءها، أو الاستعداد لمواجهة عسكرية شاملة أعدت لها أمريكا كلّ السبل للانتصار فيها.

وبذلك نأتي على محاصرة روسيا بالكامل، وبالتالي عدم السماح لها حتى بالاستسلام والحفاظ على قوتها، بل لا بدّ من إيصالها إلى دولة

دون قوّة تستطيع بها تهديد الجوار من جديد.

ـ الصين:

الصين أصبحت محايدة تقريباً بعد أن رأت ما حدث لروسيا بوتين في حرب أوكرانيا.

ـ تركيا:

عليها أن تتنازل عن أطماعها في الدول المجاورة، وأن تسير على طريق الديمقراطية، وهذا ما نراه بعد فوز أردوغان بأنه دخل الخط المرسوم له دون عنتريات، ودون صفة خليفة السنة، وما إليها من ألقاب فارغة غذتها توجهه نحو روسيا، لعله يحقق مآربه، لكن بعد تيقّنه من وقوع بوتين في المستنقع الأوكراني، فهم الدرس.

ـ دول الخليج:

بحكم أنّ هذه الدول جزء من المشروع أو النظام العالمي الجديد، فإنها عملت على دعم التغيير في سوريا وغيرها من الدول، ومع تدخّل العديد من الدول تعقّد الوضع السوري، وفقدت دول الخليج تجارة الترانزيت عبر سوريا بوابتها إلى أوروبا، وكذلك مناطق السياحة السورية. ولم تؤمن خط غاز بديل عن الغاز الروسي عبر سوريا، فما كان منها سوى البحث عن بديل عن خط غاز المار من سوريا المقترح، وإيجاد بديل سياحة وتجارة مع أوروبا.

ـ اسرائيل:

هي جزء رئيسي من النظام العالمي الجديد، وإحدى الدول الاقليمية المهيمنة، كانت تراقب الوضع عن كثب، ومع عدم استطاعة أي طرف من السيطرة على الجغرافية السورية كاملة، فقد استطاعت الاستفادة من الوضع في سوريا فأصبحت تتدخل جوا وتفعل ما تريده عبر الأجواء السورية.

فمن ناحية أزمة الشرق الاوسط؛ أي الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، بدأت تحل لأنّ الحرب في سوريا أجبرت الجميع على الخضوع لمنطق الاقتصاد، فالطرق التجارية المقطوعة منذ عقد بين الخليج وأوروبا، والتي كانت تمرّ من سوريا والعراق، كانت تبحث عن بديل، فكان لا بدّ من اتفاقات أبراهام بين الدول الخليجية واسرائيل، فلأجل وصول غاز الخليج والتجارة بين الخليج واوروبا لا بدّ من فتح طريق في ساحل المتوسط والبديل هو إسرائيل.

فطرحت إسرائيل نفسها البديل عن الجغرافيا السورية، كبوابة للخليج إلى أوروبا وبديل سياحي وأيضا ممرّاً لعبور التجارة والغاز الخليجي، فكانت اتفاقات أبراهام مع الإمارات والبحرين، وكذلك السودان، وقد لا ننتظر للنهاية، إلا ونرى اتّفاقا مع السعودية، إذا اخذنا بعين الاعتبار الأجواء السعودية المفتوحة أمام الطيران الإسرائيلي، وأيضا مشروع الطريق الذي يربط الخليج بإسرائيل، وقد يكون مترافقا مع خط للغاز، وقد يتم إنجازه نهاية العام الجاري.

ـ الخلاصة:

بناءً على المعطيات السابقة وغيرها، فإنّ سوريا والحرب فيها أو الازمة السورية، ستبقى مستمرة إلى حين تأخذ الطرق التجارية وخطوط الغاز أماكنها، وأيضا يستقر إنتاج الغاز من المتوسط، والتعود عليها، وهذا يتطلب وقتاً قد يستمر عقداً آخر، وبذلك ستظل الحال السورية هكذا، منطقة الادارة الذاتية بإرادة شعوبها و بغطاء أمريكي، منطقة المجموعات الإرهابية بدعم تركي وغطاء أمريكي، ومنطقة النظام بدعم روسي إيراني وغطاء أمريكي.

حينذاك يمكن النظر في الأزمة السورية من قبل القوى العالمية صاحبة الحل والربط، كما أنّ الحل سيكون بشكل سوريا دولة اتّحادية ديمقراطية تؤمن وتضمن حقوق جميع المكونات السورية، دولة مسالمة لا تخلق المشاكل في الإقليم ، ولا زالت الحرب السورية تفعل مفاعيلها في ذلك.